لجنة التأليف والترجمة والنشر

رفائيل

صحائف من العشرين

لشاعر الحب والجمال (لامرتين)

نقله إلى العربية

أحمد حسن الزيات

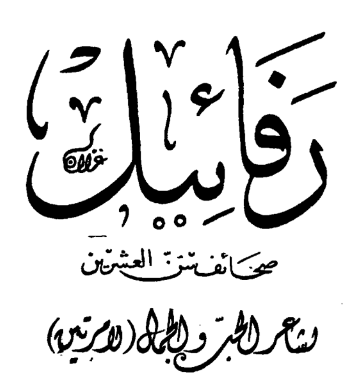
[الطبعة الثالثة]

بآخر الكتاب قصيدتا البحيرة والوحدة للامرتين

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

١٣٥٨ — ١٩٣٩

لجنة التأليف والترجمة والنشر



صحائف سن العشرين

لشاعر الحب والجمال (لامرتين)

نقله إلى العربية

احمد حسن الزيات

[الطبعة الثالثة]

بآخر الكتاب قصيدتا البحيرة والوحدة للامرتين

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

١٣٥٨ — ١٩٣٩

لامرتين

نشأته وحياته

ولد ألفونس د لامرتين بماكون سنة ١٧٩٠ من أبوين شريفين وقضى عهد الطفولة فى (ميلى) تحت جناح أمه الرءوم؛ ثم عهد بتقويمه وتعليمه إلى القسيس دمونت وهو رجل واسع الاطلاع أريحى الطباع خيالى النزعة، فكان له فى نفسه وحسه أثر جميل. ولما نما جسمه وقوى فهمه أرسل إلى مدرسة فى ليون، ثم أدخل بعد ذلك معهداً لليسوعيين فى ميلى فأتم به دراسته واستكمل ثقافته، ونال منه إجازة فى الفلسفة. ثم عاد إلى أهله سنة ١٨٠٨، وقضت عليه مَلَكيته ألا يعمل فى حكومة (الطاغية) بونابرت كما كان يسميه، فأخلد إلى البطالة وسكن إلى العزلة واستغرق فى المطالعة فغذى عقله وقلبه بما كتب روسو، وتاس، ودانتى، وبترارك، وشاكسبير، وملتون، وشاتوبريان، وأسيان. ثم تعلم الإيطالية والإنجليزية وعكف على دراسة تاسيت.

ثم حركته دواعى الصِّبى إلى الحب فنال من صفوه ومن رنقه، وتامت قلبَه فتاة من (ميلى) فأولع بها ولوعاً خبل عقله وشف جسمه. فبعث به أهله إلى إيطاليا ليبرأ ويسلو. ولما عادت أسرة (البربون) إلى الملك سلك نفسه فى نظام الحرس، ولكنه ما عَتِم أن ترك الجيش إلى السياسة. على أن شيئاً من ذلك لم يشغله عن قرض الشعر، فنشر منه ما أحله فى

الذروة بين شعراء الغزل ، ومهد له الطريق إلى الأكاديمية الفرنسية سنة ١٨٣٠ . وفى سنة ١٨٣٢ استأنف الرحيل ، فعبر البحر مع زوجه وابنته إلى الشرق ، فزار سورية وفلسطين . وفى بيروت رزأه الموت فى ابنتـه . وكان لامرتين إذ ذاك قد بلغ أوج الشهرة ، وتسور شرفات المجد ، وصافح كف الثروة ، فأتاه الخبر فى بعلبك أنه انتخب نائباً عن دائرة (بيرج) فعاد إلى فرنسا ودخل مجلس النواب . ولما سئل عن الجهة التى سيتخذ فيها مقعده أجاب : (فى السقف) إشارة إلى أنه فوق المنافسات الحزبية والأهواء السياسية . وفى سنة ١٨٤٨ رشح لرياسة الجمهورية ، فظهر عليـه لويس نابليون . وانقلب نظام الحـكومة سنة ١٨٥١ فاعتزل السياسة . وطاردته فى شيخوخته جيوش الفقر ، وفدحته أعباء الدين ، فنصب للعمل خمسة عشر عاماً لا يفتر قلمه ولا يكل عزمه ، حتى كسب ستة ملايين فرنك قضى بها دينه . ثم مدت له الحـكومة يد المعونة فرتبت له وظيفة مقدارها خمسمائة ألف فرنك يُعطاها فى كل سنة ما دام حياً . ولـكن المنية لم تدعه يتمتع بهذا الرزق غير عامين ، ثم اخترمته سنة ١٨٦٩ فى وحشة من الناس ووحدة من الأهل . فقد توفيت قبله زوجته وأولاده ، فلم يغمض عينه غير حفيدته

شعره

كان لامرتين يقدم فى رأيه رجل الفعل على رجل القول ويقول : (إن الشعر ينبغى أن يكون سلوة الفراغ وزينة الحياة ، ولـكن قوت اليوم وملاك العيش هو الجهاد والعمل) . على أنه خلق بالطبع شاعراً غمر البديهة فياض القريحة ينطبق عليه ما قاله هو على لسان الشاعر المحتضر: « أنا أغنى ياصحابتى

كما يتنفس الإنسان ، ويغرد العصفور ، ويعزف الهواء ، ويخر المـاء »

ولقد كان شعره الحى العميق المؤثر بدء عهد جديد للشعر الوجدانى . وطالما قال بلهجة الفخور : « إنه أبدل إلٰهة الشعر من قيثارتها ذات الأوتار السبعة أعصاب القلب البشرى يحركها ما لا عَدَّ له من خلجات النفس وهزات الطبيعة »

كان تأثره داخلياً ذاتياً فما فكر فى غير نفسه ، ولا استمد إلا من حسه . ومن قوله : « إن الشعر غناء الباطن » . والحقيقة أن لامرتين أراد أن يشعر فغنى كما قال ابن الأثير فى البحترى

فكان منذ صباه موسيقى الجمل ، موزون الكلم ، وثاب الخيال ، فياض الشعر ، يستمد وحيه و إلهامه من مصادر ثلاثة : من نوازع القلب ، وجمال الطبيعة ، وحماسة الإيمان

مؤلفاته

للامرتين مؤلفات كثيرة لا يتسع المقام لتفصيلها وتحليلها . فبحسبنا أن نسردها سرداً . فمؤلفاته النظمية هى ديوان التأملات ، وخير ما فيه ما قاله فى « ألڤير » أو چوليا

وديوان التأملات الأولى ، ونغمات شعرية ودينية ، وتأملات شعرية . وچوسلين ، وسقطة ملاك

ومؤلفاته النثرية هى الرحلة الشرقية ، وتاريخ الجيرونديين ، والمسارات: وهى كتابان لخص فيهما تاريخ شبابه وجملة حياته . أولهما جرازيلا ، وثانيهما رفائيل ، ثم ديوان رسائله

لامرتين والسيدة جوليا شارل

فى ربيع سنة ١٨١٦ أصيب لامرتين بمرض فى الكبد ، فأشار عليه طبيبه بالاستحمام فى إكس ، فوفد عليها فى أواخر أكتوبر . واتفق أن كان فى المصحة التى نزل بها فتاة مريضة هى السيدة چوليا شارل زوج الأستاذ شارل ناموس المجمع العلمى الفرنسى . فكان أول ما لفته إليها وعَطَفه عليها شحوبها البادى ، وهزالها الملحّ ، وعزلتها الساكنة ؛ ثم فتنته منها ملامحها الشاعرة

لامرتين

غرفة لامرتين فى إكس ليبان

وثقافتها النادرة ، ولهجتها البارعة وقسامتها الرائعة ، فاتصل بها وأغرم بحبها ، وقضى معها ثلاثة أسابيع على ضفاف بحيرة بورچيه ، ذاق فيها حلاوة الغزل الجميل ولذة الحب النبيل ورقة الشعور المحض . ثم عادت

إلى باريس وعاد هو إلى (ميلى) ولم يرها ثانية إلا فى يناير سنة ١٨١٧ فى منزل زوجها بباريس ، فتساقيا كؤوس الحب مترعة صافية فى أرباض العاصمة الجميلة ورياضها مدة أربعة أشهر . ثم افترقا على أن يتلاقيا مع الخريف فى سفوا . ولكن القدر أبى عليهما هذا اللقاء . فذهب لامرتين إلى إكس ينتظر قدوم حبيبته ، فما وجد غير النبأ الفاجع بإشفائها على الموت ، فارتد إلى ماكون . وهنالك أتاه نعيها . فهاله الخبر وبرح به الحزن ، واشتد عليه الصبر ، وانبجس الدمع من عينيه والشعر من قلبه ، فأتى فى

چوليـــا
حبيبة لامرتين

غرفة چوليا
فى إكس ليبان

رثائها وذكراها بالمعجب المعجز . وقصائده فى (ألفير) وهو اسمها المستعار أشد ما فى ديوان التأملات استهواء للشعور وامتلاكا للنفس

كان لصلة هذه السيدة بلامرتين أثر عميق فى حياته ، وصدى مُدوٍ

فى شعره . وربما كان تأثيرها فيه لا يقل عن تأثير السيدة دفرنس فى روسو . وفيما نشره الأستاذ (دوميك) من رسائلها سنة ١٩٠٥ ما يؤيد ذلك

وفى سنة ١٨٤٩ أخذ يكتب ذكرياته عن هذه الحادثة تحت اسم رفائيل مستعيناً بمذكراته ورسائله على ما ناله النسيان وعبث به الزمن ، فكان من ذلك هذا الكتاب الذى ستقرأه الآن



لامرتين

مقدمة

بقلم الأستاذ الدكتور منصور فهمى بك

ألِف الكُتاب إذا ما وضعوا مقدمة لكتاب من الكتب أن يضمنوها بعض مايحتويه هذا الكتاب من مبتكرات الفكر وأمهات المسائل ، وحسنا يفعلون ، فإن مقدمات الكتب هى مداخلها التى تهيئ القارئ إلى ماسيقرأ ، وتعد فكره لما ينساب فيه من مختلف المعانى وشتى الصور . على أننى تهيبت أن أضع مقدمة لقصة رفائيل عند ما تكرم أخى الأستاذ الزيات بدعوتى إلى ذلك ، لأنى خشيت ، إن أنا نحوت فى هذا الكتاب منحى الكتَّاب فصغرت صورته ولخصت فكرته ، أن أكون قد شوهت شيئاً من جماله ، وأنقصت كثيراً من كماله . لأن قصة رفائيل جمال حى وأدب راق وفن صاف ، وهيهات أن ينقل المرء إلى القارئ صورة من صور الجمال الحى! وهل تستطيع ريشة المصور مهما آتاها الله من الرقة والدقة أن تنقل صورة صحيحة لحسناء لابس الجمال معناها ومبناها ؟ أم هل يستطيع قلم الكاتب مهما نال من حسن الصياغة وقوة البلاغة أن يلخص كتابا فنيًّا من كتب الأدب ، ويبسط للناس ما فيه من روعة وحسن ؟ إن من حاول ذلك شق عليه الأمر والتوت به السبيل . إن خير ما أنصح به لمن يريد أن يمتع نفسه بأثر الجمال الحى أن أغريه برؤية ذلك الجمال حياً . وخير ما ينتصح به من يريد أن يتذوق الأدب أن يقرأ ما كتب الأديب . وعلى ذلك ينبغى أن يقرأ هذا الكتاب من فاتحته إلى خاتمته .

على أننى فضلا عن تهيبى تلخيص ما فى الكتاب تحرجت أن أدفع بقلمى فى ميدان ليس من فرسانه ، فإن الكتاب من وضع أديب كبير ، ومن ترجمة أديب كبير ، وجدير بقلمى أن يدع مضمار الأدب للأدباء ، و يترك مجال البلاغة للبلغاء . ولكن حرصى على إجابة الصديق سهل علىّ مااستصعبت ، وهدى قلمى إلى ما أحببت ، فبدا لى أن أقتطف من الكتاب بعض زهراته لأجعلها دليلا على مافيه من سمو البيان ورقة الأدب . ولكن اقتطاف شىء منه ليس باليسير الهين ، فإن كل ما يقع عليه نظر القارئ لا يخلو من درة فكرية ، أو نكتة بيانية ، أو انسجام حسن ؛ فكيف لا يحار الإنسان إذا أراد أن يتخير شيئاً دون شىء ؟ وكيف يترك قطعة فيها عظمة الفكرة إلى أخرى فيها سحر اللسان ؟ ففى الكتاب ماشئت من دقة الوصف ورقة الغزل وعمق الفكرة وفلسفة الشك وصدق النقد ونشوة التصوف ونغمة الموسيقى وحلاوة الإيمان وطهارة الحب . وسترى فى كل صفحة من صفحات الكتاب مثالا صادقا على كل ذلك . على أن أضوأ نواحى الكتاب وأجلى مظهر فيه رفع الحب إلى مستوى التقديس والعبادة . وقد يزعم نفر من الذين لا يرون فى الوجود إلا الحقائق المادية أن ذلك الحب العذرى النقى هو اختلاق شاعر أو تصوير مصور ، و ينسى هؤلاء أن من خير وظائف الكتاب والفنانين أن يستنزلوا من السماء إلى الأرض عالماً وسطاً بين عالم هذه الأرض المظلمة التى نسير عليها ونتأثر بحقائقها ، و بين عالم الكمال الذى تحن إليه النفس وتنزع إليه الإنسانية ، و إن هذا العالم السماوى الوسط يرفع الناس من حقائقهم الكدرة إلى حقائق أصفى ، و إن ما يبدو من الأمور للناس بعيد المنال قد يدنون منه شيئاً فشيئاً مع مرور الزمن ، حتى إذا ما بلغوه أصبح

حقيقة من وجودهم ، وجزءاً من سلوكهم وأخلاقهم . ألم تكن تلك الحقائق الخلقية من شفقة على المظلوم ، وامتهان للرق ، واحترام لحقوق الإنسان ، خيالات الشعراء فى العصر الغابر فأصبحت اليوم حقائق أو شبه حقائق ؟ إن المُثل العليا من القول والفعل لتسمو بالإنسان من الأرض إلى السماء .

وشيء آخر فى الكتاب أعلى وأجل : ذلك هو الوصف بنوعيه الحسى والنفسى . ومنذ القدم انطوت النفس البشرية على نزعتين مخصبتين ظهرتا على أشد ما تكونان فى عصر النهضة الغربية ، وأمدتا بوحيهما وهديهما حركة المدنية . فالأولى نزعة لفيف من مفكرى النهضة إلى سبر أغوار النفس ليتبينوا ما فى عالمها من معان ، ويصفوا ما فى ساحتها من مشاهد .

وقدماً تطاولت الرقاب إلى معرفة خفايا النفس واستجلاء عالمها القدسى ، وجابت صحراواته طوائف الفلاسفة وفئات المتصوفين ، فإذا عاد إلينا أحدهم بنبأ لا نستخلص منه إلا أن فى هذا العالم ما يدهش وما يحير . لذلك تلجلجت ألسنة المحدثين عنه ، وكان جل ما نسمع من المتصوفة وأضرابهم رموزاً وتمتمة أشبه برُقَى المشعوذين والسحرة . وذلك لأن أكثر شؤون النفس مستغلق لا تجد العبارات إلى تصوير معانيه سبيلا . ودام ذلك الأمر حتى قيض الله للناس رجالًا من عصر النهضة جلوا بألسنتهم تلك الشؤون ، ووصفوا بأقلامهم تلك الحالات ، وصرفوا عنايتهم إلى تجريد المعنويات ، فكسب ذلك لغات الغربيين عنصراً جديداً قواها ونماها ، لأن الكاتب الذى يغوص فى أعماق نفسه ليتصيد المعانى صافية جلية لا يلبث أن يعود إلى القراء بدرر من الألفاظ ، ولا تلبث تلك الألفاظ الدرية أن تندس فى أنسجة اللغة فتزداد نماء وجلاء وقوة . أما النزعة الثانية فهى امتداد

العقل إلى معرفة الموجودات الحسية واكتناه طبائع هذا الوجود الخارجي .
والوجود الخارجي هو هذه الأشياء المحيطة بنا ، وإن عالمها ليضيق بضيق علم الإنسان بمميزاته ، وضآلة فهمه لصفاته ، وقصور نظره عن استطلاع جهاته ؛ ولكنه يجل ويتسع بمقدار إحصاء المرء لشؤونه ، وتناول بيانه لهذه العبارات التى بمقدار وفرتها تنبيء أن الإنسان على قلته قد اتصل بالكثير ، وعلى ضعفه قد جابه من هذا الكون العسير ، فصاغ للموجودات المسميات وعرف منها ما كان نكرة لديه ، ووسم بألفاظه وأسمائه من مظاهرها ما كان خفياً عليه . ولا شك أنه بقدر ما يبلغ الإنسان من معرفة هذين العالمين ، وبقدر ما يتقصى النظر فى مهامه هذين الكونين ، يكسب لسانه ويرقى بيانه . وفى الكتب المقدسة أن الله لما سوى آدم علمه الأسماء كلها . ولعل أبا البشر بلغ بتوفيق ربه درجة من العلم لا يفوقها إلا علم الله . وذلك لأن معرفته لجهات النفس وعلمه بأسمائها إذا أضيف إليه أسماء الموجودات الخارجية ومعرفتها كان ذلك كمال العلم ، وفضل الله يؤتيه من يشاء

فكأن الأستاذ الزيات باختياره ترجمة هذه القصة التى استمدها كاتبها من جمال الطبيعة وجلال الإيمان وشرف العاطفة قد حرص على أن يقرئنا صحيفتين فيهما دقائق الكونين من عالم الغيب والشهادة ، أو من عالم المعنى وعالم الحس . وبهذا الحرص قد خدم اللغة العربية أجل خدمة . وأى خدمة أعظم من أن يعين الإنسان لغته على بلوغ دقة الوصف ورشاقته ، وتحليل الشعور ودقته ؟

* * *

إن الأوائل من العرب لم يغفلوا بعض الأوصاف فوصفوا الإبل وسيرها

والخيول وكرّها ، ووصفوا أساليب القتال من مجاولة ومصاولة ، ومناظر الطبيعة من سحاب وهضاب و بر و بحر ، ووصفوا الخمور ومزجوا بين بعض الأوصاف وألموا أحيانا بوصف حالات النفس من هيام وغرام ، أو زهادة وابتهال . لـكن هذه الأوصاف التى توخوها لم تكن إلا جزءاً صغيراً علموا به القليل من حالات النفس ، وقدراً يسيراً كشفوه من مساحة هذا الـكون الخارجى . فبعد مضى عصرهم امتدت معارف الإنسان إلى أرض غير هاتيك الأراضى و إلى سموات غير هاتيك السموات ، وتغيرت نفس الإنسان وتطورت ، وكسبت من العلم ورقت ، وأصبحت الأرض غير الأرض ، والسماء غير السماء ، والنفس غير النفس . فإذا نقل إلينا الناقلون كتابا حديثاً يتضمن أوصافا لأرض غير التى ذكرها العرب ، ويحتوى مشاعر غير التى أحسها العرب ، فإنهم بعملهم هذا يمدون فى لغتنا سبباً ، و يضيفون إلى زهراتها زهوراً ، و إلى نغماتها ألحانا ، و إلى حياتها حياة

إن رفائيل أثر من آثار هذا العصر الحديث ، وثمرة من ثمار هذا الزمن المتأخر ؛ وهو آية من آيات فنه ، و إلهام نابغة من نوابغه ، قد اشتمل على التصوير الدقيق والتعبير الرقيق والخيال المتوثب . فلما تبينت أن لغتنا العربية لم تعجز عن نقل ما فيه من البدائع الحسية والمعنوية تذكرت ضجة قامت حديثاً بين جماعة من أدبائنا يذهب بعضهم إلى أن اللغة العربية دون غيرها من لغات الغرب فى تسمية الأشياء وتصوير المعانى . ويذهب البعض الآخر إلى أن العربية قد وسعت المعانى كلها ، وتناولت جميع الأغراض ، من ذوات وأعراض . ويبدو لى أن الفريق الأول قد أحاطوا بالـكثير مما دون الغربيون من علم وأدب وفن ، ولـكنهم ألموا بالقليل مما احتوته اللغة العربية

من العبارات ، وسجلته من الاصطلاحات ، فظنوا أنها لا تطاول اللغات الأخرى ، فأثموا فى بعض هـذا الظن ، ويئسوا من أن تحقق لهم العربية ما يجيش فى صدورهم من المشاعر ، وما علموه وشهدوه من تباين الآيات ، وضروب الصناعات ، وشتى المخترعات . وكأن هذا الفريق فيما يراه فى أمر اللغة لا يخلو بعضه من غيرة صادقة عليها ، ورغبة محمودة فى إعلاء منارها ، وبعضه عن افتتان بأدب الغرب فتنه عن لغته وأدبه ؛ وبعضه من جهل بما فى العربية من ثروة وقوة وعظمة ؛ ومن جهل شيئاً عاداه . أما الجماعة الذين أفرطوا فى الوثوق بخصائص اللغة العربية وحسبوا أنها قاربت كمالها ، وكادوا يقولون فيها ليس فى الإمكان أبدع مما كان ، فإن أكثرهم ممن لم ينل حظاً من العلم بما فى آداب الأمم ، وفاته أن فضل الله لم يكن ليتركز فى إنسان ، ولا يحبس على مكان دون مكان . ولعل أشد ما ورط هؤلاء الجماعة فى هذه الدعوة نوع من العصبية المحمودة الأثر فى حفظ مشخصات الأمم وتقوية مقوماتها ، أو نوع من التعصب عقيم ، وركون إلى خمود ذميم . وعندى أن هؤلاء وأولئك لو أنصفوا أنفسهم لوجدوا أنهم يقاتلون فى غير عدو ، وأن ضجيجهم لو تأملوا ليس له مبرر ، لأن اللغة ليست إلا نفوس الناس تتحرك فتجرى ألفاظاً على اللسان ، وتعابير فى الأذهان ، عند ما تدفعها الدوافع والحاجات ، وتهزها هزات التقدم وأسبابه ، وترنحها سكراته وتطربها نغماته . فلو أن نفوس القوم طاوعت حاجات الزمن لطاوعت لغتهم أموره ، ووسعت مراميه ، واحتالت إلى ذلك بأنواع النحت والاشتقاق ، وبعث ما كان مقبوراً ، وكشف ما كان مستوراً ، ولوجد كل قائل ما يقول

وخير برهان على ذلك أن قصة رفائيل التى نحن بصددها يقرأها الإنسان

عربية صحيحة على أسلوب العرب ، و بيان العرب ، وفيها رخامة ألحانهم ورنات أوتارهم ، وهى تحمل إلينا كل ما قاله وصوره كاتب من أكبر كتاب الفرنجة بلغة الفرنجة وأسلوبهم ولحنهم . أوَ يقول المتطرفون بعد ذلك إن اللغة جامدة ؟ أو يقول الجامدون بعد ذلك إن نفوسنا لا تتأثر بما تنقله إلينا اللغة من مشاعر الغير وأساليبه فى تصوير الوجود ؟

* * *

بقى علىَّ أن أقول كلمة فى رفائيل من جهة الترجمة . وتوطئة لذلك أثبت هنا ما نقله البستانى فى مقدمة الإلياذة عن العاملى عن الصلاح الصفدى قال :

« وللترجمة فى النقل طريقان : أحدهما طريق يوحنا بن البطريق وابن الناعمة الحمصى وغيرهما . وهو أن ينظر إلى كل كلمة مفردة من الكلمات اليونانية وما تدل عليه من المعنى فيأتى الناقل بلفظة مفردة من الكلمات العربية ترادفها فى الدلالة على ذلك المعنى فيثبتها وينتقل إلى أخرى كذلك حتى يأتى على جملة ما يريد تعريبه . وهذه الطريقة رديئة لوجهين : أحدهما أنه لا يوجد فى الكلمات العربية كلمات تقابل جميع كلمات اليونانية ، ولهذا وقع فى خلال التعريب كثير من الألفاظ اليونانية على حالها . الثانى أن خواص التركيب والنسب الإسنادية لا تطابق نظيرها من لغة أخرى دائماً . وأيضاً يقع الخلل من جهة استعمال المجازات وهى كثيرة فى جميع اللغات

الطريق الثانى فى التعريب طريق حنين بن إسحاق والجوهرى وغيرهما ، وهو أن يأتى بالجملة فيحصل معناها فى ذهنه ويعبر عنها من اللغة الأخرى بجملة تطابقها سواء ساوت الألفاظ أم خالفتها ؛ وهذا الطريق أجود . ولهذا لم تحتج كتب حنين بن إسحاق إلى تهذيب إلا فى العلوم الرياضية لأنه لم يكن قيما بها ، بخلاف كتب الطب والمنطق والطبيعى والإلهى فإن الذى عربه منها لم يحتج إلى إصلاح »

ثم قال البستانى بعد ذلك : « و إن هذين الطريقين اللذين أشار إليهما الصلاح الصفدى منذ زهاء ستة قرون هما المذهبان المعول عليهما فى النقل حتى يومنا . وليس وراءهما مذهب ثالث فى التعريب الصحيح »

وعندى أن الترجمة فن من أدق الفنون ينم عما للمترجم من سلامة الذوق و براعة القدرة ولا سيما فى الترجمة الأدبية . وذلك لأن اللفظ الواحد فى لغة من اللغات قد يقابله لفظان أو ثلاثة فى اللغة المترجم إليها ؛ وقد يحصل أن اللغة المنقول إليها ليس فيها من الألفاظ ما يعبر عن معنى يحمله لفظ واحد فى لغة أخرى . وفى هذه الظروف تظهر قوة المترجم و براعته وفنه . إذ تراه يتخير من الألفاظ الكثيرة لفظاً دون آخر ، إما لأن ما اختاره يكون أدق من جهة المعنى ، و إما لأنه فضلاً عن دقته يكون أوقع من حيث الموسيقى والانسجام . وتراه أحياناً يقدم الفاعل على الفعل ، والخبر على المبتدأ ، و يؤخر جملة تقدمت ، و يقدم أخرى تأخرت ، دون أن يحيد عن القصد أو يخرج عن المعنى

ولقد وجدت فى ترجمة رفائيل أن الأخ — شكر الله له جهوده — جمع فى منهاجه فى الترجمة فضائل الأساليب جميعاً . فلم يفرط فى نظام الكلمات إذا سلم المعنى ، فكأنه توخى بذلك خير ما فى أسلوب ابن البطريق والحمصى ، ولم يفرط فى معنى إذا لزم الأمر التفريط فى مبنى ، فكأنه توخى بذلك خير ماجاءت به طريقة حنين والجوهرى . و بين تزويجه للطريقين قد أفاده تمكنه من اللغتين المنقول إليها والمنقول عنها ، فتخير الألفاظ وصقل الأسلوب وأدى الأمانة بما يقتضيه الدقة والإيجاز . والخلاصة أن الأستاذ الزيات كان فناناً فى نقله ، أميناً فى فنه ، موفقاً فى عمله

على أننى كنت أوثر أن يلتزم النقل عن نسخة واحدة بعينها ، فإن تفاوت الطبعات أدى لامرتين إلى شىء من الزيادة والنقص فى بعض مواضع الكتاب ، ولذلك جاء بعضه منقولاً عن نسخة والبعض عن أخرى ، وبين

الأصلين تفاوت يقتضى لمن يريد أن يراجع الترجمة أن يعالجها من نسختين وفى ذلك ما فيـه من مشقة . على أن عدم الحرص على نسخة واحدة لم يخرج المترجم الفاضل أبداً فى مواضع الزيادة أو مواضع النقص عن قول المؤلف وعمله ، ولم يكن فيما لم يحرص عليه مقترفاً صغيرة ولا كبيرة (١)

أسأل الله للأخ الكريم أن يوفقه فى عمله ، ويمد فى أجله ، لينقل إلينا كثيراً من هذه الروائع الأدبية ، فإن الله قد خصه بما لم يخص به الكثيرين من النقلة من الوقوف على سر اللغات ، وآتاه من القدرة على صحيح الترجمة وفصيحها ما لم يؤته الكثير من متعاطيها ، فلا يسعنى إلا أن أرجوه أن ينقل إلينا الكثير والكثير ، فإنما ينقل بذلك لغتنا العربية إلى خطوات فى سبيل تقدمها فضلاً عما يغذى به عواطف شبابنا وعقول شيوخنا من هذه الثمرات الشهية ، والزهرات العطرية ، التى تفتحت فى رياض الغرب فكان لكل قطر من شذاها نصيب ؟

منصور فهمى

---

(١) ملاحظة مهمة للناقد : رأى لامرتين بعد الطبعة الأولى لرفائيل أن فى بعض الجمل شيئاً من المبالغة أو بعضاً من الحدة ، فتناولها بالحذف فى الطبعات التالية ثم غير فى تقسيم الفصول . وكان أمامى ساعة الترجمة هاتان الطبعتان ، فكنت أوافق مرة وأخالف أخرى ابتغاء الجمع بين فضيلتى النسختين . فاذا قوبلت الترجمة على احداهما دون الأخرى ظهر فى بعض المواضع منها اختلاف يكون فى النسخة الأخرى اتفاقا ولا شك

« المترجم »

الإهداء

أخوَىَّ الحبيبين « ع . س » و « ح . س »

اسمحا لى أن أقدم إلى حبكما الخالد هذا الكتاب الخالد . فإن لكما جميل الأثر فى إشراق سطوره ، وانبثاق نوره : فمن عينك الساجية يا أختاه فهمت لغة الدموع ، ومن نفسك الصافية أدركت معنى الحساسة ، ومن قلبك الفياض أحسست طهر المودة ، ومن لسانك العذب اقتبست هذا البيان

أما أنت يا أُخَىَّ فمن نظرتك الوديعة فهمت جمال الطيبة ، ومن بسمتك الرقيقة استشعرت إخلاص الأخوة ، ومن ملامح وجهك الأبلج عرفت دلائل النُّبل

فأنتما صورة ما فى هذه الصفحات المشرقة من عواطف كريمة ومواقف عظيمة وشمائل حلوة ؛ ولولا أن عليكما طابع الشرق الجميل ، لقلت إنكما چوليا ورفائيل

٢٠ مارس ١٩٢٦ — أ . الزيات

فاتحة الكاتب وخاتمة رفائيل

ليس رفائيلُ اسم ذلك الصديق الذى كتب هذه الصفحات ، و إنما هو عَلَمٌ كنا كثيراً ما نطلقه عليه مزاحاً ودُعابة ، لأنه كان وهو فى صدر شبابه ورونق يفاعته شديدَ الشبه بصورة لرفائيل[1] وهو غلام ، تجدها بروما فى إيوان بَرْبرينى ، و بفلورنسا فى قصر بِتّى ، و بفرنسا فى متحف اللُّوفْر .

كذلك كنا ندعوه بهذا الاسم لأن أخص صفاته وأظهر مميزاته ، شعور قوى بالجمال فى الطبيعة والفن ، حتى لكأنَّ نفسه مرآة للجمال الحسى والمعنوى المبثوث فيما خلق الله وفيما صنع الإنسان . ومرجع ذلك فيه إلى حساسة بارعة كادت تبلغ حد المرض لولا أن كف من غرْبها الزمن ؛ فكنا نقول إن به مرض السماء ، إشارة إلى ما يسمونه مرض الوطن ، وهو ما يأخذ الغريب من الوحشة والهمّ لفراق سكَنه ووطنه . وكان هو يوافقنا على ذلك فى ابتسامة رقيقة .

على أن هذا الحب الذى شغف قلبه للجمال كان طريقاً إلى بؤسه وشِقوته ، ولو كان فى غير حاله لكان سبيلاً إلى نبوغه وشهرته . فلو أنه أمسك الريشة لصوَّر « عذارى فُولِجْنُو[2] » ، أو استعمل المِنحت لمثَّلَ

---

(١) رفائيل صنزيو هو أشهر المصورين وأقدر المثالين فى المذهب الابتداعى Romantisme . تمثلت فيه وفى صاحبيه ليونار دفنسى وميخائيل أنج عبقرية الفن فى عهد النهضة . وكان له المكان الأسمى فى بلاط البابيين يوليوس الثانى وليون العاشر . وقد شارك فى زخرفة الفاتيكان وترك على قصر عمره من الروائع الفنية ما ظفر بالتخليد ، وعز على التقليد . ولد بأربينو سنة ١٤٨٣ وتوفى عام ١٥٢٠ ودفن بالبنطيون

(٢) هى صور مختلفة للعذراء صورها رفائيل لكاتدرائية فولجنو إحدى المدن الإيطالية

«بسيشيه كانوڤا[١]» ، أو كان يعرف لغة الألحان لدوّن رفيف الريح البحرية تهبُّ آنّةً شاكية على ألياف الصنوبر فى إيطاليا ، أو أنفاسَ الفتاة الناعمة النائمة تحلم بمن لا تريد أن تسميه . ولو أنه كان شاعراً لكتب مناجاة أيوب لله ، وموشحات هِرمينى لتاس[٢] ، وحديث روميو وچولييت فى ضوء القمر لشكسبير ، وصورة هيدى للورد بيْرن . وكان حبه للخير لا يقل عن حبه للجمال ؛ إلا أن حبه للفضيلة كان لجمالها لا لكمالها ، ولنفاستها لا لقداستها . وما كان الطمع ظاهراً فى أعماله ، ولكنه كان باطناً فى خياله . فلو أنه عاش فى عهد الجمهوريات الأولى أيام كان الرجل ينمو كله فى جو الحرية كما ينمو الجسم المرسل فى الهواء الطلق والشمس الضحوك ، إذن لرقى رقىَّ قيصر[٣] ، ولتكلم كلام ديمستين[٤] ، ولمات ميتة قاطون[٥] . ولكن جدَّهُ المهيض العاثر

(١) فى الميتولوچيا أن بسيشيه فتاة بارعة الجمال أحبها (أمور) . وقد افتن المصورون والمثالون فى تصويرهما وتمثيلهما . ومن هؤلاء أنطوان كانوڤا المثال الإيطالى (١٧٥٧ — ١٨٢٢ م) ، فقد نحت لهما تمثالين من المرمر يمثل أحدهما (أمور) مطوقاً بذراعه خصر بسيشيه وهو يريها فراشة ، ويمثله الآخر ممسكا بها يمنعها من السقوط فى هاوية

(٢) تاس شاعر إيطالى قدير له كتاب خلاص أورشليم وهو من البدائع الخالدة ولد فى سورنت سنة ١٥٤٤ وتوفى بائساً فقيراً سنة ١٥٩٥

(٣) يريد يوليوس قيصر القائد الرومانى العظيم

(٤) ديمستين أشهر خطباء اليونان . ولد بأثينا سنة ٢٨١ ق م وأعجب وهو صغير ببلاغة الخطباء وتصفيق الناس لهم فتاقت نفسه إلى التشبه بهم فسخر الناس منه لسقم عبارته وضعف صوته ولثغة لسانه . فكاد ييأس من نفسه لولا أن شجعه ساتيروس الممثل الشهير وأفهمه أنه لا ينقصه إلا حسن الأداء وإجادة الإلقاء . فابتنى حجرة تحت الأرض واختفى فيها ليمرن لسانه . وكان يحلق نصف رأسه ليرغم نفسه على ملازمة تلك الحجرة . وكان يصعد الجبل عدواً أو يرقى صخراً على ساحل البحر وهو يلقى أبياتاً من الشعر وفى فمه بعض الحصى ليحل عقدة لسانه . وظل على تلك الحال سنين حتى ملك أعنة القلوب بفصاحته ، ووقف فى وجه فيلبس يدافع عن حرية بلاده ، ويذود عن استقلال شعبه ، توفى سنة ٣٢٢ ق م

(٥) قاطون دوتيك هو حفيد قاطون انسين ، ولد سنة ٩٥ ق م واشتهر بدفاعه عن الحرية أمام استبداد قيصر . ثم اخترق جسمه بسيفه على أثر هزيمة طبسوس سنة ٤٦ ق م ، فكانت حياته ومماته رمزاً لشجاعة القلب ، ورباطة الجأش ، وشرف النفس

٣

قعد به على الرغم منه فى دَعة البطالة وعزلة التأمل ؛ فكان له جناح يبسطه وينشره ، دون أن يجد حواليه هواء يحمله ويُطَيره . ثم مات غريضَ الشباب وهو يلتهم الفضاء بالنظر دون أن يظفر منه بمجال ومَسْبَح !

لقد كان هذا العالَم فى دنياه حُلماً ، فعسى أن يكون هذا الحلم فى أخراه حقيقة !

أرأيت صورة الفتى رفائيل التى حدثتك عنها منذ قليل ؟ إنها صورة غلام ناشىء فى السادسة عشرة من عمره ، على وجهه أثر من الشحوب وسَفْعٌ قليل من شمس روما ؛ ولكن خديه لا يزال عليهما رُواء الصبى وزَغب الطفولة ، وكأنما يتألق بريق من النور على خَمَل بَشرته . مرفقه متكىء على منضدة ، وساعده منتصب تحت فوْده الأيمن فاستراح الرأس على راحته ، وأصابعه الجميلة الوضع قد طبعت على الذقن والخد خطا خفيفاً أبيض . أما الفم فرقيق ساهم حالم ، والأنف دقيقٌ ما بين العينين ضارب قليلا إلى الزرقة ، كأنما رقة البشرة شفَّت عن لازَوَرْد الوريد ؛ والعينان ذواتا لون أزرق صاف قاتم كلوْن سماء الأبينينَ قبل الفجر ، تنظران إلى الأمام فى طموح قليل إلى السماء ، كأنما تتبصران ما هو أسمى من الطبيعة ، وهما مشْبَعتان إلى أقصاهما بالنور ، مخْضلَّتان قليلاً من الأشعة المغموسة فى رُضاب الندى أو فيض المدامع ؛ والجبهة قوس يكاد يتم عقده ، ترى من ورائها اختلاج عضلات الذهن تحت البشرة الناعمة الرقيقة ؛ والصدغ مفكر ، والأذن منصتة ، والشعر مرسل فاحم مقصوص لأول مرة على غير انتظام ، يلقى شيئاً من ظلاله على الخد واليد ؛ وعلى الرأس قَلَنْسُوةٌ صغيرة مسطوحة من القطيفة السوداء تغطى أعلى الناصية ثم تسقط على الجبهة . فمن مر أمام

هذه الصورة تفكر ثم اكتأب دون أن يعرف سبباً لتفكيره واكتئابه . تلك عبقرية ناشئة تحلم على عتبات القدر قبل أن تدخل ، ونفس شابة واقفة على أبواب الحياة تفكر فيما تقبل عليه وفيما تصير إليه



هذه صورة رفائيل التي وصفها هنا لامرتين وهي من أبدع ما خطته يد فنان نقلت عن الأصل المحفوظ في متحف اللقر ، ولكن لم يستطع الحفار وا أسفاه أن يظهر منها إلا هذا الخيال المشوه

إذا علمت ذلك فأضف ستة أعوام إلى عمر هذا الصبي الحالم ، ثم وضّح هذه الملامح ، ولوّح هذا اللون ، وغضّنْ تلك الجبهة ، وكوّم هذا الشعر ، واكسر هذا النظر ، وارسم الأسى على تلك الشفة ، ومد هذه القامة ، وأبرزْ تلك العضلات ، واستبدل بهذه الحلة الإيطاليـة التي ترجع إلى عهد ليون

العاشر حُلة قاتمة ذات شكل واحد لفتى نشأ فى عهد البساطة بين القرى والحقول، لا يريد من الثوب إلا أن يستره فى حشمة؛ ثم امسح على هذه الهيئة كلها بشىء من النحول الناشئ من إدمان الفكر، أو إلحاح الألم، يكن لك من مجموع ذلك صورة صادقة ناطقة لرفائيل وهو فى العشرين من عمره

كانت أسرته فقيرة على طول ما أقامت فى جبال فوريز منبت أرُومتها ومدْرج طفولتها. فأبوه كان من رجال الحرب، ألقى السيف وأخذ المحراث على نحو ما يفعل أشراف أسبانيا، ولم يبق له من كرامة ولا وجاهة ولا اعتبار إلا فى الشرف الذى رجح عنده بكل شىء. وأمه كانت لا تزال شابة جميلة يحسبها الناظر لمشابهتها إياه أختاً له. ربيت فى حجر الترف، وتقلبت فى أعطاف النعيم، وشبت على أناقة الحاضرة؛ ولكنها لم تحتفظ من هذه النشأة إلا بعبير اللهجة وخلابة المنطق. فلما نُفيت إلى هذه الجبال وعاشت بين زوج نالت به حاجة قلبها وبغية حبها، وأولاد وجدت فيهم كل رضاها وغاية فخرها، لم تأس على ماض ولم تسخط على حاضر، وإنما طوت كتاب شبابها الجميل على هذه الكلمات الثلاث: ربها، وزوجها، وأولادها. وكانت تختص رفائيل بحبها وإعزازها، وتود لو كانت تملك تصريف القدر فتجعل حظه حظ ملك. ولكنها وا أسفاه! ما كانت تملك غير قلبها أداة لرفعه ووسيلة لنفعه. فعارض القدرُ أملها باليأس، وقوض الدهر بناء حظها حتى الأساس من ثروة ضئيلة وأحلام جميلة!

وكان حينئذ شيخان من رجال الكنيسة قد اعتصما بهذه الجبال بعد عهد الإرهاب بزمن يسير فراراً من المضطهدين الذين يتعقبونهما لاعتقادهما آراء فى التصوف لا أدريها. فوجدا فى بيت هذه الأم ملاذاً وحمى، وأحبا رفائيل وهو يومئذ فى حجرها، وتنبآ له نبوءة، ورصدا له كوكباً، وقالا لها:

« ارعى بقلبك هذا الطفل » والأم من طبعها أن تعتقد . فكان هذا الاعتقاد سندها فى البأس ، وأملها فى اليأس ؛ إلا أنه حمَّلها فى سبيل تربيته فوق طاقتها ، ثم تكشف لها برقه عن سحاب خلَّب ووعد كذوب

عرفت رفائيل وهو فى الثانية عشرة من عمره ، فتساهمنا الوفاء ، وتقاسمنا المودة ، حتى كنت أحَبَّ الناس إليه بعد أمه . ولما قضينا عهد الدراسة عدنا فتلاقينا فى باريس ثم فى روما . وكان قد أقدمه إليها قريب لأبيه لينسخ معه كتباً مخطوطة من مكتبة الفاتيكان . ومن ثَمَّ وقع فى نفسه الميل إلى اللغة الإيطالية وأدبها فثقفها وأتقنها إتقانه للغته . ثم كان كثيراً ما يرتجل مقطوعات من الشعر الرقيق ، ونحن فى ظلال الصنوبر من مدينة بمفيلى ، والشمس راقدة على سرير الشفق تودع النهار ، والسهل ممتلىء بعظام روما ورفاتها ، فيهيج أشجانى و يستدر حوالب عينى . ولكنه ما كان يدون شيئاً مما يقول ، فسألته مرة : « لماذا لا تكتب شعرك يا رفائيل ؟؟ » فأجابنى قائلاً : « عجباً ! وهل يكتب الهواء ألحانه التى تسمعها من هذه الأوراق الهازجة ؟ أم هل يكتب البحر أنينه الذى يلفظه على كثبانه وشطئانه ؟ لا جمال فيما يُكتب . و إن أقدس شىء وأنفسه فى قلب الرجل لهو المكنون الذى لا يظهر . الآلة من لحم واللحن من نار ! فماذا أنت صانع ؟ و إن بين ما تحسه و بين ما تعبر عنه من البعد لَما بين النفس وحروف الهجاء ، أعنى اللانهاية . فهل تريد أن توقع على ناى من القصب أنغام الفلك ؟ »

ثم تركت رفائيل ، وعاد القدر فلف به شملى فى باريس . لقيته يبحث بحث المُعَنَّى الخائب عن عمل يخفف أعباء نفسه ، و يفرج ضائقة نحسه . وكان الشباب من أترابنا يطلبونه و يبحثون عنه ، والنساء ينظرن إليه وهو مارٌّ بهن فى الشارع نظرة ذى عَلَق . ولكنه أبداً لم يغش أبهاء السمر ولم يحب

من النساء غير أمه . ثم فقدنا أثره وجهلنا خبره على حين بغتة مدة ثلاث سنوات كاملة . ثم علمنا من بعد أن ناساً رأوه فى سويسرا ، وفى ألمانيا ، وفى سَفْوا ، ثم فى باريس أثناء الشتاء يقضى هزيعاً من لياليه على جسر من جسور السين ، أو على رصَف من أرصافه . وكان ظاهره ينم على الفاقة والعوز ، ولكننا لم نستبطن دخيلة أمره وحقيقة فقره إلا بعد سنين . كان وهو غائب متَّجَه أفكارنا وموضوع أحاديثنا ، لأنه من الأفذاذ القلال الذين يتحدَّونك أن تنساهم ، أو تشغل عنهم بسواهم

ثم ضرب الدهر بيننا ، وصدع البين شملنا ، فلم نلتق إلا مصادفة بعد فراق اثنى عشر عاماً . وإليك كيف كان ذلك : كان لى فى إقليمه إرث ، وكان من هذا الإرث قطعة أرض أريد أن أبيعها ؛ فلما بلغت هذه البلاد تنسمت خبره فقيل لى إنه فجع فى أبيه وأمه وزوجه على فترات من السنين . ثم أصيب فى ثروته ، بعد مصابه فى أسرته ، فلم يبق فى يده من ملك آبائه إلا مسكن من برج عتيق مربع مهدم يشرف على واد من الأودية ، وإلا حديقة وبستان ومرْج فى هذا الوادى ، وخمسة أو ستة فدادين من نِكاد الأرض يفلحها هو نفسه على بقرتين عجفاوين ، فما يميزه من جيرانه الفلاحين غير الكتب التى يحملها معه إلى الحقل . ولكنه منذ بضعة أسابيع احتبس فى طلله البالى فما عاد يبصره أحد . فظن الناس أنه ربما استأنف تلك الرحلات الطويلة التى كانت تستغرق سنين . وسارت كلمات الأسف على أفواه العارفين به والمنتفعين منه ، وقالوا : « إن فراقه بلاء على الجيرة وأهل الحى ، فقد كان على فقره يُفْضل عليهم افضال الغنى ، وكثير من الفُرش الجميلة فى هذه البلاد منسوج من أصواف ضأنه . وكان فى المساء يعلم أطفال الضياع المجاورة القراءة والكتابة والرسم . ثم هو يدفئهم بناره ، ويطعمهم من خبزه ، والله

يعلم هل يَفضُل عنده بعد إطعامهم شيء يأكله إذا ما نقص التمر وقل الحصاد كهذه السنة العجفاء »

بهذا اللسان كان القوم يحدثوننى عن رفائيل . فأحببت أن أزور على الأقل مسكن هذا الصديق القديم . فاقتادنى إليه بعض الناس حتى بلغ بى سفح الأكمة التى قام عليها برجه الأسود تكتنفه اصطبلات واطئة فى وسط أيكة من شجر البقس والبندق . فاجتزت مجرًى ناضباً من مجارى السيل على جذع شجرة ، وصعدت إلى البرج فى طريق لاحب[1] من الحجارة ، فرأيت على جانب جديب من الهضبة بقرتين وثلاث غنمات ترعى فى حراسة شيخ كليل البصر يذكر الله على مسبحته وهو جالس فوق شعار منحوت من الحجر قد سقط من عقد الباب . فتقدمت إلى هذا الشيخ واستفهمته عن رفائيل ، فقال لى : إنه ما سافر ، وإنما اعتراه مرض ثقيل ألزمه الفراش منذ شهرين . وهو يرى أنه لا يخرج من هذا البرج إلا إلى تلك المقبرة . ثم أشار الشيخ بيد عارية الأشاجع[2] إلى الهضبة المقابلة فرأيت فوقها المقبرة . فسألته أوَ يستطيع أحد أن يراه ؟ فقال ولم لا ؟ اصعد الدرَج واجذب رتاج الباب على الشمال ينفتح لك عن القاعة الكبرى ، فادخل تجده ممدداً على سريره وديعاً كالملاك ساذجاً كالطفل

قال ذلك وهو ينهنه دمعه المسفوح بظهر يده . فصعدت سلماً خارجيا وعراً يستند إلى جانب البرج ، وينتهى برحبةٍ صغيرة عليها سقف من الخشب والطوب تناثرت قراميده فوق بلاط السلم ؛ ثم جذبت الرتاج إلى الشمال ودخلت فإذا منظر لا أنساه ما حييت : غرفة واسعة تشغل مساحة

---

(١) الطريق اللاحب : الواضح

(٢) عارى الأشاجع : قليل لحم الكف . والأشاجع أصول الأصابع

الفراغ الذى بين الحوائط والبرج ، بها شباكان كبيران ذوا قواطع من الحجر ، زجاجهما المغبّر المكسر مُدْخل فى مربعات شطرنجية معيَّنة من الرصاص ، وهى مرصوفة بالطوب مسقوفة بجذوع غليظة من الخشب قد اسودت من الدخان ؛ ومدفأة مرتفعة ذات قوائم من الخشب المضلع فى غير دقة ، تدلى من علاقة فيهـا قدر مملوءة من البطاطس تحتها حطبة تحترق من طرفها . وليس فى هذه الغرفة من أثاث غير كرسيين عاليين مسندهما من الخشب المصقول ، وظهارتهما من قماش رمادى احْتُمل[1] لونه فما تستطيع أن تعرف أصله ؛ ومنضدة كبيرة على جانب منها خبز ملفف فى خوان ، وعلى الجانب الآخر أوراق وكتب مبعثرة مهوشة ؛ ثم سرير ذو أعمدة نخرة ؛ وستور من الصوف الأزرق المفوّف قد هصرت حول الأعمدة حتى تأذن للنسيم أن يدخل من الشباك المفتوح ، وللشمس أن تلق أشعتها على اللحاف المنشور ؛ ورجل جالس على حافة هذا السرير لايزال فى ربيع العمر ولـكنما شفه السقم وبراه البؤس فعاد من الهزال مثل الخيال . كان حين فتحت عليه الباب يفتت قطع الخبز لسرب من أفراخ الدُّورى والسنونو ، يضطرب ويموج على أرض الغرفة تحت قدميـه . فلما أحست العصافير وقع قدمى طارت فوقعت على رفرف القاعة وفوق سمـاء السرير . وعرفتُ رفائيل من خلال شحوبه ونحوله ؛ فإن صورته وإن فقدت صباحتها ، لم تفقد سماحتها ، وإن ذهب عنها جمال الحياة ، فقد بقى عليها جلال الموت . وكان شعره الأسود يتهدَّل حلقاً فوق كتفيه كما يتهدل شعر الحراث بعد عناء اليوم ؛ وكانت لحيته طويلة مرسلة ، قد نبتت على نسق طبيعى متعادل ، فتركتك ترى جمال

---

(١) احتمل لونه : تغير

مقطع الشفتين ، و بروز الوجنتين ، وتقوّس العينين ، وتجويف الصُّدغين ، و بياض البشرة ؛ وعليــه قميص مفتوح عن صدر ناحل شديد العضل والعصب ، فلو تركه الوهن ينتصب لـكَسَبَ هيأته جلالاً وعظمة

عرفنى من أول نظرة ، نخطا إلىَّ خطوة وذراعاه مبسوطتان يريد أن يضمنى إلى صدره ، ولـكنه سقط على حافة السرير ، فبادرت إليه وكلانا لا يملك سوابق دمعه . ثم تحدثنا فقص علىَّ تاريخ حياته وهو سلسلة متصلة من الإخفاق والخيبة . فتارة بالفقر الذى قصم جناحه ، وأفسد صلاحه ؛ وتارة بالموت الذى حال بينــه و بين اقتطاف الزهرة أو اجتناء الثمرة . ثم حكى لى فجيعته بأبيــه وأمه وزوجه وولده ، وكيف رماه الدهر فى عمله بالخذلان ، وفى أمله بالحرمان ، حتى خلعه بالقهر من ملك أبيه ، وألجأه إلى هذه العزلة فى هذه الأنقاض الباقية من بيت الأسرة ، لا أنيس له إلا هذا الراعى الهرم الذى يخدمه من غير أجر إبقاء لحرمة البيت و إرعاء على مجد أهله . ثم ذكر لى ذلك السقم الذى تخوّنه وأذواه وسيسقط به على الموت إذا ما سقطت أوراق الخريف ، فيدفن فى مقبرة القرية التى ضمت عظام آبائه وأحبائه . ثم قال وهو يشير بأصبعه إلى صف الطيور الواقعة على رفرف السرير : « أتدرى ما الذى زاد همَّه على كل هم وفاق أَلَمُه كل ألم ؟ هى هذه العصافير المساكين التى اتخذت منهــا خُلَصَائِى ، وجعلتها آخر أهلى ولأْنى ! إنها ستبحث عنى فى الربيع المقبل فلا تجد لى ريحاً ولا تحس منى حركة . ولن ترى بَعْدُ ذلك الزجاج المـكسر فتدخل الغرفة من خلاله ، ولا ذلك الـكتان المتساقط من حَشِيَّتى على الأرض فتبنى عشها من نُساله . على أن الحاضنة التى أوصيت لها بما تركتُ من رزق يسير ستُعنَى بهذه الطيور

ما دامت حية — وفى ذلك بعض العزاء — فإذا ما فارقت الحياة بقى لها الله الذى لا يحرم الصغار ولا الضعفاء ، نعمة الأكل والماء . وكان الحنان بادياً فى حركاته وكلماته وهو يتحدث عن هذه الطيور الصغيرة ، فكأن رقة قلبه لما عزها الخلوص إلى الإنسان ، لجأت بعطفها وبرها إلى الحيوان . ثم قال : أتلبث فى هذه البلاد زمناً ؟ فقلت له : نعم . فقال : حسن ! إنك إذن ستغمض عينى وسأكل إليك أن يُشَق ضريحى فى أقرب الأماكن إلى ضريح أمى وزوجى وولدى » ثم طلب إلى أن أدنى منه صندوقاً كبيراً من الخشب المنقوش كان مطموراً تحت عِدْل من أعدال الذرة فى إحدى زوايا الغرفة . فوضعت الصندوق على السرير وأقبل هو عليه يخرج منه رِزَماً من الورق ظل يمزقها نصف ساعة وهو صامت . ثم رجا من حاضنته أن تلقى بجذاذاتها فى النار أمامه . وكان فى هذه الأوراق طائفة كبيرة من الشعر فى كل اللغات ، وصفحات كثيرة فى موضوعات متفرقة وأوقات مختلفة كأنها ذكريات . فسألته على استحياء لماذا تحرق كل هذا ؟ أليس للرجل بجانب ميراثه المادى ميراث أدبى يتركه لمن بعده ؟ ربما تحرق فيما تحرق خواطر وعواطف تبعث فى بعض النفوس الحياة والقوة . فقال : « دعنى أفعل ، فحسب هذا العالم ما فيــه من دموع . ولا جدوى على الناس فى أن نضيف إلى تلك العبرات هذه القطرات . إن هذه الأشعار ريش قريحتى الشابة العابثة ، وقد نَسَلْتُهُ من زمن واستقلت أجنحة الأبد » ثم استمر يمزق ويحرّق وأنا فى أثناء ذلك أتأمل المزارع الجدباء من خلال الزجاج المحطم . ولما فرغ من ذلك دعانى إليه وقال : « خذ هــذا المخطوط الصغير فأنقذه وحده ، فليس لى جَلَد على إحراقه . ولو تركته بعدى لاتخذت حاضنتى من أوراقه

أكياساً لبذورها ، وأنا ضنين بالاسم الذى يملأها على الهوان والدنس . خذه واحتفظ به حتى تعلم أنى مت فيكون لك الخيار حينئذ إما أن تحرقه وإما أن تتركه إلى أن يبلغك الكبر فتجد فى قراءته الحين بعد الحين ذكرى صديقك

فأخذت الملف وغيبته فى ثيابى ، ثم خرجت وفى نفسى أن أعود إليه غدا وفى كل يوم لأخفف عنه بالعناية والحديث عبء أسقامه ، فى أخريات أيامه . وما كدت أتوسط السلم حتى رأيت زهاء عشرين طفلاً يحمل كل منهم بابوجه[1] فى يده ، وهم يصعدون الدَّرَج ذاهبين إلى رفائيل يأخذون عنه الدروس التى حرص على تلقينهم إياها حتى على سرير موته . ثم أبصرت على بعد منهم قسيس القرية آتياً يقضى صدر الليل بجانبه ، فحييته فحيانى وبه ما بى من الأسى والحزَن . ولما عدت فى اليوم التالى إلى البرج كان رفائيل قد استوفى فى الليل أنفاسه وقضى نحبه . وكان ناقوس القرية المجاورة قد شرع يدق دقة النعىّ ، والنساء والأطفال قد خرجوا من دورهم باكين معولين ينظرون إلى جهة البرج ، ورجلان يحفران الأرض فى حقل صغير أخضر بجانب الكنيسة يشقان فيه ضريحاً تحت صليب ! . . . فدنوت من الباب فرأيت غمامة من عصافير السنونو تطير نائحة حول الشبابيك المفتحة ، لا تَفْترُ عن الدخول والخروج ، كأنما اجتاحت أعشاشها جائحة . ولما قرأت هذا الكتاب فهمت لماذا ألِف رفائيل هذه العصافير ، وماذا كانت تبعثه من الذكرى فى قلبه ، حتى ساعة لقاء ربه !

---

(١) البابوج : القبقاب أو الصندل

رفائيـــــل

١

إن من الأمكنة والأجواء والساعات والفصول والأحوال الخارجية لَمَا يتصل سلكه بحبات القلب ومشاعره، حتى لتخال الطبيعةَ جزءاً من النفس، والنفسَ جزءاً من الطبيعة؛ فإذا فصلت المسرح عن الرواية، والرواية عن المسرح، ذوى المشهد وانمحت العاطفة. جَرِّد (رِنيه) من شواطئ بريطانيا الصخرية، و(أتالا) من مُروج الصحراء الوسيعة، و(آلام ڤرتر) من أندية السواب الكثيفة، وپول وڤرجيني من غوارب الماء المشبعة من الشمس وجبال (المرْنِ) الناصَّة من الحرارة، فإنك لا تفهم شاتـِبريان ولا جوتَ ولا بِرْنَرْدَنْ دُسَنْ پيير

إن بين الأماكن والأشياء علاقة وُثقى، لأن الطبيعة واحدة في قلب الرجل وفي عينه. إنما نحن أبناء الأرض، وما يجرى

فى عُصارتها من الحياة هو نفسه ما يجرى فى عروقنا منها ، وما تحسه هى وتقوله لأعيننا بلسان مناظرها ووجوهها ، وطلاقتها وعبوسها ، يتبين فى نفوسنا رَجْعه وأثره . هيهات أن تستكنه عاطفة فى غير موضعها الذى نبتت فيه واستقرت به !

٢

هناك لدى مدخل سَقْوا — وهو ذلك التيه الطبيعى لتلك الأودية العميقة المتحدرة إلى سويسرا وفرنسا تحدُّرَ مدارج السيول على جبال سَمْبلون وسَنْ برنار وسنيز — ينحلُّ من عقدة جبال الألب واد فسيح الرقعة قليل الوعورة ، يشق له بين المخاضر والأنهار والبحيرات طريقاً إلى چنيف وأنيسى بين جبال القط وجبال بوج الحائطية . فإذا أبصرت عن شماله رأيت ضِلعاً من جبل القط قد نتأ على امتداد فرسخين فضرب فى السماء قاتمَ اللون واحد الشكل مُوَطأ الذروة ، تحسبه سوراً متسع العرض قد مَرَدوا سطحه على خيط بنَّاء . ثم تكاد لا نجد ما يقطع هذا التماثل الهندسى إلا سنين أو ثلاث أسنان برزن من صخرة شهباء فى طرفه الشرقى ، فدللن الأعين على أن ليس ليد الإنسان عمل فيه ، وما كان لغير يد الله أن تعبث بهذى الجروم . أما سفح هذا الجبل

من ناحية شمبيرى فيمتد فى أحشاء السهل فى سلاسة ولين ، ثم يترك وراءه وهو يهبط درجات وهضبات تُغَشيها أشجار التنُّوب[١] والجوز والقسطل[٢] ، وتُوَشّج[٣] بينها أغصان الكروم العارشة . فإذا سرَّحت بصرك فى هذه الخُضْرَة الموحشة الملتفة رأيت خلالها المنازل الريفية تلوح بيضاء على مسافات بعيدة ، والقبابَ العالية تظهر شمّاء فوق القرى الحقيرة ، والأبراجَ البالية تبدو سوداء فوق القصور المشرَّفة[٤] العتيقة . وفى قرارة ذلك المنحدر الأوهد تبصر السهل وقد كان فى غابر الدهر بحيرة فيحاء لا تزال تحفظ من شكلها الأول غَوْرَها المطمئن ، وشُطئانَها المتعرجة ، ورءوسها البارزة ؛ غير أنها استبدلت بأمواجها الزُّرْق أمواجًا من خُضرة الجوز ، وحُوَّة[٥] المرج ، وصفرة الحصيد . ثم تقوم فى سُرَّة هذا الوادى الأبطح بضعةُ نجود كانت فى عهدها الأول جُزراً ، وفوق تلك النجود منازل يجللها يبيس النبت ، ويظللها وَرِيق الشجر . ثم ترى من وراء هذا الحوض الناضب جبل القط وهو على أشد ما يكون إجدابًا ووعورة ، قد طمن فى أديم السماء بروْقيه[٦] ، وخوَّض فى بحيرة صافية الماء بقدميه .

---

(١) التنوب : شجر عظيم يشبه الصنوبر (٢) القسطل : أبو فروة
(٣) توشج بينها : تشبكها (٤) المشرفة : ذات الشرفات
(٥) الحوة : لون بين السواد والخضرة (٦) الروق القرن

وتلك البحيرة تطول على التقريب ستة فراسخ فى عرض يتراوح بين فرسخ وثلاثة . تراها وهى تتجه إلى فرنسا وعرة الشاطئ جرداء الساحل ، فإذا ما اتجهت إلى سَفْوَا رأيتها على النقيض من ذلك : تطمئن وتندغم فى أجوان وخلجان تُغَشِّى جانبيها الغياض والرياض ، وتكتنفها العرائش والكروم ، حتى تنمحى عند رَجْع البصر فى صخور شاتليون ، وهناك ينصب طفح مياهها فى نهر الرون . وفى الجانب الشمالى يقوم على قاعدة من الحجر الصفوان[1] دير (الهُشْكُمب) — وهو مدفن الأمراء من آل سفْوا — فيُلقى بظلال أسواره على أمواج هذه البحيرة . وذلك الدير قد احتضنه جبل القط فوقاه الشمس فأمسى فى ظلمة متصلة تذكرنا ذلك الليل الأبدى الذى غشِيَ هؤلاء الأمراء وقد هبطوا من عروشهم إلى هذه الرموس[2] ، اللهم إلا فى الطَّفَل[3] فتلقى عليه الشمس نظرة فيَمِض فى جنباته بريقٌ من النور كأنه يُظْهر للناس مرفأ الحياة آخر اليوم

وعلى وجه البحيرة وتحت صخور الجبل تنساب زوارق الصيادين من غير شرُع ، فتتشابه ألوانها بألوان الصخور لتَطاوُل

(١) الصفوان : الصلد الأملس (٢) الرموس : القبور
(٣) الطفل : قبيل غروب الشمس

عهدها وقِدَم حواشيها . وفى السماء ترى أسراب النسور الشهب لا تفتُر عن التحليق فوق الزوارق والجنادل ، كأنما تريد أن تنازع الشباك على قنائصها ، أو تنقضّ فوق الطيور الصائدة التى تقتفى أثر القوارب على طول الشاطئ

٣

على مقربة من هذه البحيرة تجد مدينة إكْس ينعقد فوقها الدخان ، ويرتفع منها الضجيج ، وتسطع فى الأنوف روائح مياهها الحارة الكبريتية . وهى طبقات صاعدة على حَدور ربوة واسعة من الكروم والمروج والبساتين ، يصل ما بينها وبين البحيرة درب طويل مظلل الجانبين بأشجار الحور العتيقة ، تحسبه مَخْرَفَة[1] من مخارف السَّرْوِ التى تَدْفع إلى المقابر فى تركيا . وعن يمين هذا الدرب وعن شماله تبصر المروج والحقول تخترقها أخاديد السيل خَصِبَةً ناضبة ، وتظللها أدواح الجوز الباسقة تتدلى على أفنانها عساليجُ[2] الكرْم وعناقيده العارشة . فإذا لقى البصر فُرجةً بين أوراق الجوز وأعناب الكرم أخذ منظرَ البحيرة الزرقاء ، وقد

(١) المخرفة . طريق بين صفين من الشجر
(٢) العسلوج ما لان واخضر من قضبان الشجر والكرم

اختلفت على وجهها ألوان السماء باختلاف ساعات النهـار : فمن صفو وطلاقة ، إلى عبوس وشحوب

ولما حللت هذه المدينة كان سواد المصطافين قد رحل . وأمست الفنادق والأندية بعد ازدحامها بالسافرة وأهل البطالة خَلاء مقفرة ، فلم يبق إلا بعض البائسين من ذوى العاهات جالسين فى ضوء الشمس على عتبات الفنادق الحقيرة ، و إلا بعضُ البائسين من المرضى ينقلون خُطاهم الواهنة الوانية فى حر الظهيرة على ما تساقط من الأوراق الجافة أثناء الليل

٤

بَكرَ الخريفُ رخيَّ النسيم رضيَّ الشمائل ، فلوَّن أوراق الكرم والكرز والقسطل هنيهة بلون الورد ، ثم أرسل عليها صقيع الصباح يَضْربُها فتَسَّاقطُ على الأرض تساقطَ الغيث الهتون . وكان الضباب يسحب رداءه الكثيف على الأفق إلى وقت الظهيرة ، فتظنه سيلا طغى فغمر الأودية والسهول حتى لم يترك فوقه إلا رءوس الحور الباسقة ، وقُنَن التلال الشاهقة ، وشِعَاف الجبال كأنها الرءوس الداخلة فى البحر ، أو الصخور الناتئة على سِيفِ(١)

---

(١) السيف بالكسر : الساحل

المحيط . فإذا متع[١] النهـار هبت رياح فاترة فتـكسح هذا الزبد وتقشع ذلك الضباب . ثم تتقحم مخارم الجبال وأفواه الشعاب فترتطم فى الصخور والأمواه والشجر ، فتسمع لها زفزفة رخيمة شجية ، تعلو ثم تنخفض فتخالها فى بضع دقائق قد مرت على جميع أوتار الطبيعة فحركتها بأنغام الفرح والقوة والـكآبة ، فيبلغ أثر ذلك إلى أعماق نفسك ، ويملك عليك مذاهب حسك . ثم تسكن هذه الريح وتفنى كما نفنى أحاديث الأملاك فى اللانهاية ، ويعقبها سكون لا عهد للآذان بمثله ، يهيمن عليك حتى تسمع دقات قلبك ونامّة نفسك ؛ ويعاود السماء منظرها الضاحك الطلق فتـكون أشبه بسماء إيطاليا ؛ وتظهر جبال الألب غرقى فى رقيع من السماء لا عدّ له ولا حد ، وتتساقط حبات الضباب رنانة على سفير[٢] الشجر ، أو تتلألأ وهاجة على أزهار المروج كالشرر

على أن ساعات الصحو كانت قصيرة . فما أسرع ما تسرق ظلال المساء الندية خطاها فتنتشر على الآفاق انتشار الـكفن وما قضت هذه الآفاق من شمسها الغاربة لُبانة ! ثم تموت الطبيعة موت الشباب والجمال على أتم ما تكون طلاقة وأناقة !

---

(١) متع النهار : بلغ غاية ارتفاعه قبل الزوال

(٢) سفير الشجر : الأوراق الجافة الساقطة

مثلُ هذا البلد ، وهذا الفصل ، وتلك الطبيعة ، وذلك الخمود الذى استولى على كل ما يحيط بى من الأشياء ، لَمِمَّا ينسجم مع نفسى الخامدة وشبابى العاطل انسجام النغمات فى اللحن الجميل .

ولقد زدت بهذه البيئة هموداً على همود ، وغرقت فى بحر لُجِّىٍّ من الحزن ؛ غير أنه حزن حى ملئه التصور والتأثر والاتصال الوثيق باللانهاية ، والضوء الشاحب فى العين ، والأمل الخائب فى النفس ، فما كنت أرغب فى السلو عنه ولا الإفلات منه . هو داء من أدواء الإنسان ، ولكن الشعور به كان لذة مغرية لا شكاة مضنية ؛ والموت الذى يفضى إليـــه كان أشبه بالغيبوبة اللذيذة فى الوجود المطلق . فقررت أن أستسلم إليه وأسترسل فيه ، وأن أصرف نفسى عن صوارف الحياة ، وأضرب حولى نطاقا من الصمت والعزلة والفتور يحجبنى عن كل شىء ما عدا الله والطبيعة

وكنت قد لقيت وأنا أجتاز شمبيرى صديقى لويس . د . فوجدته على الحال التى أنا فيها : جبين مُتَغَضِّنٌ من سخف الحياة ، وصدر منقبض من مض الحوادث ، وعبقرية مدفونة فى ضلال المجتمع ، وجثمان مُرْهَق بخواطر النفس ؛ فدلنى على بيت منعزل فى المدينة يقوم على تدبيره طبيب بالغ السن طيب القلب هو وزوجه ، وقد جعلاه للمستشفين مَصَحَّة ومثابة . يصعد الذاهب إليه من المدينة

فى طريق ضيقة بين المنابع الحارة . فإذا أخذ منظره من خلفه وجد حديقة مُسَوَّجَةً بالعرائش والأروقة ، ومن ورائها مروج حادرة ، وخمائل ناضرة ، وأدواح من شجر القسطل والحور ، يصلها بالجبال غيطان وغدران لا تبصر فيها غير قطعان المعز وسوائم الماشية

ووعدنى لويس أن يقدم إلى إكس فيقيم معى إذا ما فرغ من عمله فى شمبيرى . وسأجد ولا شك بوجوده روحاً وغبطة ، فنحن أخَوان جمعتنا أواصر الهم ، وألفت بين قلبينا وحدة الشجن . والمساهمة فيما يضر ، أجمل منها فيما يسر ، وصلة البؤس أوثق فى الصدور وأعمق فى النفوس من صلة النعيم . وليس فى الناس غير لويس من يخف خِلاطه على قلبي فى هذه الآونة . لذلك بت أترقبه بصبر فارغ وطرب نازع وشوق لجوج

٥

نزلت بدار الطبيب فلقينى أهلها لقاء جميلا ، وأفردوا لى غرفة تطل نوافذها على الحديقة وما وراءها من مروج . وكانت الغُرفات الأخرى أوشكت أن تخلو من نازليها فما يجتمع على المائدة إلا أهل الدار ومريض أو ثلاثة من فقراء شمبيرى و تورينو ، قدموا الحمامات بعد انصراف الجماهير ليجدوا العيش أخف مؤونة وأقل

كلفة . فلم أجد فى الجماعة من يستطيع أن يطارحنى الحديث ، أو يعقد بينه وبينى مودة . وأحس الطبيب وزوجه ذلك فأقبلا يعتذران إلى عن إبطاء الموسم فى المدة ، أو إسراع الزائرين فى العودة . ثم أخذا يكلمانني بلسان الإعجاب والتجلة ولهجة الحنان والرحمة ، عن فتاة أجنبية قعد بها عن الرحيل هزال مُلِحٌّ يخشيان أن يَحول إلى فناء بطىء . يقولان إنها وفدت عليهما منذ شهور واتخذت مسكنها من الدار فى طابق منعزل ، وظلت فيه هى وجاريتها لا تنزل إلى قاعة الاجتماع ، ولا تأكل على المائدة العامة ، وإنما يُحْمَلُ إليها الطعام فى غرفتها ، ولا يراها الناس إلا فى شبّاكها مطلة من خلال الأغصان على الحديقة ، أو على السلم عائدة من نزهتها بين جواسق[1] الجبل

فأدركتنى لهذه الفتاة رقة ورحمة . ذلك لأنى وجدت فى حظها مَشَابه من حظى : فكلانا طريد همّ ووحيد غربة ، وكلانا نِضْو سقام وأليف وحشة ، وهى مثلى تتجنب الضوضاء وتتقى عيون الناس . على أننى بالرغم من هتاف الناس بها[2] وإعجابهم بظرافتها وأدبها ، لم أجد من نفسى باعثاً على رؤيتها . لأنى لا أريد أن أرى أحداً ولا أن يرانى أحد . فقد خبَتْ وقْدَة القلب وعادت جذوته رماداً ،

(١) الجوسق . القصر الحلوى معرب جوسك (كشك)
(٢) هتف الناس بفلانة : ذكروها بجمال

وسئمت نفسى تلك الميول الحقيرة المبْتَسرة ، وأجَمت الموارد الآسنة الكدرة ، وغَضَّ من طرفى الخجلُ والندم على خطايا ارتكبتها ، وأسباب رثّة وصلتها ، ومواقف مخزية وقفتها ؛ وفقدت الثقة التى تدفع بعض الناس إلى لقاء الناس وعقد الصلات بهم

ما كنت أفكر كثيراً فى الحب . بل كنت على النقيض من ذلك أغتبط وأُزْهَى بقتلى تلك الأهواء الطفلية فى قلبى ، وقدرتى على تحمل بُؤْسَى الحياة بنفسى . أما السعادة فى هذه الدنيا فما كنت أحسب لها وجوداً

٦

كنت أقضى بُكَرَ أيامى فى غرفتى أطالع الكتب التى بعث بها إلى صديق من شمبيرى . وفى الأصائل أخرج فأرود وحدى ما توعر وأوحش من مواقع الجبال التى تكتنف وادى إكس من جهة إيطاليا . فإذا أمسى المساء عدت مهدود القوى مرتهك المفاصل ، فأجلس إلى المائدة ، ثم آوى إلى مخدعى فأرتفق[1] قاعدة الشباك ساعات طويلة ، أتقصّى بالنظر وجوه السماء فأشعر بانجذاب أفكارى إليها كما يشعر الواقف على شفا الهاوية بانجذاب

(١) ارتفق : اتكأ على مرفق يده

جسمه إلى قاعها . فكأنما فى السماء قوة تجذب النفوس ، كما أن فى الأرض قوة تجذب الجسوم . أرقد فى بحر لجيٍّ من هذه الأفكار لا أبحث فيه عن ساحل ولا مرفأ . وأستيقظ على شعاع الشمس وخرير الينابيع فأستحمُّ وأستأنف بعد الفطور تَجَوُّل الأمس وتأمل البارحة

ففى ذات ليلة لمحت وأنا أطل من نافذتى على الحديقة نافذة مضاءة بجانب غرفتى ، يشرق منها مُحَيًّا امرأة قد اتكأت كما اتكأت ، وأخذت تباعد بيدها عن جبينها خُصَل شعرها الفاحم المتهدل لترى هى أيضاً الحديقة ، ولتنظر إلى جلال الجبل وجمال السماء وقد ازدهر فيهما القمر ؛ فما استطعت أن أميز منها فى هذا الضوء الشاحب غير صورة نقية كاسفة ، فى إطار من الشَّعر المُغْدَوْدِن المرسل . ثم ورد صوتها على سمعى وهى تحدث وتأمر داخل الغرفة ، ففعلت لهجتها الأجنبية الصافية فى قلبى فعل السُّلاف ، وأثرت نبراتُ صوتها السقيم الرخيم فى نفسى تأثير السحر . وبقى ذلك الصوت العذب يطن فى أذنى طنين الصدى البعيد حيناً من الزمن بعد ما أغلقت النافذة

لم يقع فى مسمعى ما يشبه هذا الصوت حتى فى إيطاليا . فلقد كان يرن بين ثناياها المُفْتَرَّة رنين الأوتار المعدنية على شفاه الأطفال

في جزر الأرخبيل إذا ما حركوها وقت المساء على شاطئ البحر.

كنت أفكر في رجع هذا الصوت وفي أثره، وما كنت أحسب أن سيكون له في حياتي رنين بعيد المدى عميق الأثر. ثم كان الغد فشُغِلتْ عنه شعابُ قلبي فنسيته. حتى كان أحد الأيام؛ فبينما أنا داخل بعد العصر من باب الحديقة الصغير، بصرت بهذه الفتاة الأجنبية جالسة على أحد المقاعد تحت نظر الشمس تستدفئ بأشعتها الفاترة. لم تشعر بصوت الباب حين أغلقته فلم تُرَعْ، وظلت تحسب نفسها وحيدة؛ ولبثت أنا طويلا أرمقها خِفْية بمجامع عيني، لا يفصلنا إلا بضع خطوات وكرمة أعْرَتْها من الورق بواكر الصقيع. وكانت ظلال الأوراق الباقية على هذه الكرمة تصارع وحدها أشعة الشمس على وجهها المشرق. هي ممشوقة القد، بائنة الطول، قد أرسلت على جسمها الناحل غلالة من الجوخ مبسوطة الغضون محلولة العُرَى، فكانت فيها أشبه بدُمْية من المرمر في ثوب فضفاض، تُحجَب بقوامها وروائها، دون أن تميز جزءاً من أجزائها. ثم تدثرت بشال أبيض أنيق الوشي غيبت فيه جسمها فلم يبد منه إلا كفّان عاريتا الأشاجع، دقيقتا الأنامل، قد تلاقتا على ركبتيها وهما تعبثان بزهرة من زهر القرنفل الأحمر الوحشي الذي يزدهر على الجبال في أحضان الثلج، ويسميه الناس لسبب لا أدريه: القرنفل الشاعر.

ثم اتخذت من فضل شالها قناعاً وقَتْ به شعرها أندية المساء

فكنت تراها — وقد تطرحت من السقم على نفسها، ومال عنقها على كتفها ، وعقدت أهدابُها الوُطفُ أجفانَها الدُّعْجَ من بَهَر الشمس، وتضمّر وجهها وانكفأ لونها من طول الفكر — أشْبَهَ بتمثال الموت؛ ولكنه الموت الذي ينقل النفس من أودية الهموم وشعاب الأحزان إلى أنحاء النور والحب في حياة سعيدة خالدة .

نبهها وقع قدمي على جفيف الورق ، ففتحت جفنين فاترين عن عينين ساجيتين ، في صفاء البحر أو زرقة اللازَورد ، يحف بهما أهداب طوال سود يحتال على تقليدها حسان الشرق بالصناعة ليَزِدْن في نَجَل العيون ، وكَحَل الجفون ، وحدَّة النظر ، وقوة الجاذبية . ولم أر فيما رأيت من عيون الناس ألحاظاً تصيب مرماها على بعد مداها كألحاظ هذه الفتاة . فقد كانت أشبه بنيران الشهب الثاقبة في حَلَك الليل ، تحاول أن تمسَّك وهي صادرة من السماء عن بُعد شاسع ونوًى سحيق . ولها أنف إغريقي أشَمّ حُلْوَ القنا، يعلوه جبين مرتفع ضيق كأنما ضغطته فكرة قوية ، وشفتان رقيقتان على زاويتيهما أثر الذبول من حرقة الهمّ ، وثغر شتيت الثنايا صدفيّ اللون كثغور الغيد من سكان السواحل الرطبة على البحار أو الجزر ، ووجه كالبيضة المكنونة أخذ يناله النحول من

ناحية الصُّدغ ومن أسفل الفم ، وسحنة هى أولى أن تكون هيئة فكرة لا هيئة إنسان . وفضلاً عن هذه الملامح الساحرة والمخايل الشاعرة ، يستهويك من هذا الوجه سقام يرجع سببه إما إلى هوى محرق ، وإما إلى جوى مُبَرِّح ، فيغترق بصرَكَ حتى تنطبع فيه الصورة الخالدة . ذلك عَرَض لمرض من أمراض النفس تنم عليه قسامة بارعة ، وجهارة رائعة ، وجمال لا تعلق به قريحة مصور ، ولا تسمو إليه مُخَيِّلَةُ شاعر .

مررت بها عَجْلان فحييتها باحتشام وتجلة ، فأثار اقترابى منها طبيعة الخفر فيها ، فتوردت وجناتها المصفرة ؛ وانطلقت أنا فى المشى أمامها لا أرْبَعُ على شىء حتى بلغت غرفتى وأنا مضطرب الحواس واجف القلب لا أدرى أية رعدة أقلَّتنى من برد المساء . وبعد هنيهة بصرت بالفتاة تعود إلى المنزل فألقت على نافذتى نظرة فارغة ثم دخلت مخدعها . ومر اليوم يعقبه اليوم وأنا أراها على تلك الحال فى تلك الساعة ، إما فى الحديقة ، وإما فى الفناء ، دون أن أفكر أو أجسر على الدنو منها ، حتى كنت أقابلها أحياناً فى زورقها على البحيرة ، أو على حمارها فوق الربى والخمائل ، يصحبها لفيف من البنات الصغيرات يقُدْنَها ويقطفن لها ثمر الفريز ، فما أظهر لها مما يوجبه الجوار من دلائل العطف والاهتمام

أكثر من تحية ألقيها فى إجلال وحشمة ، فتردها هى فى ذهول وهَمّ ، ثم يأخذ كل منا سَمْتَه فوق الجبل أو على متن الماء

٧

على أنى كنت أشعر بانقباض الصدر واضطراب البال فى كل مساء لا أراها فى نهاره فأنزل إلى الحديقة دون سبب معروف ولا داع موجب ؛ وأمكث فيها على الرغم من برودة الليل أراعى نافذتها بنظرى ، وأتحامل على نفسى فلا أنصرف حتى أرى ظلها خلال الستائر ، أو أسمع نغمة من بيانها أو نبرة من صوتها

كانت الردهة التى تشغلها فى المساء ملاصقة لغرفتى لا يفصلها عنها إلا باب ضخم من شجر السنديان موصد بِرِتاجين ، فاستطعت أن أسمع وقع أقدامها ، وحفيف أثوابها ، وخشخشة كتابها حين تَصَفُّحُ ورقه . وربما خيل إلىَّ أحياناً أنى أسمع نامَّة نَفَسها ؛ فوضعت مكتبي ومصباحى فى ظهر هـذا الباب مسوقاً إلى ذلك عن غير قصد ، لأنى أجدنى مع هـذه الأصوات والحركات أكثر أنساً وأقل وحشة . وتصورت أنى أعايش هذا الطيف المجهول الذى ملأ حياتى وشغل يومى . وقصارى القول أنى أحسست فى قلبى نوازع الهوى وأعراض الصبابة قبل أن يقع فى ظنى أنى أحب

لم يلاقنى هواها فى خطرة أو نظرة أو فكرة حتى كنت أتوقاه فلا ألقاه ، وإنما كان أشبه بالغاز المنتشر فى الجو يهاجمنى من كل مكان : فى السماء والماء ؛ فى الهواء والضياء ؛ فى وحدتى القابضة ، ومشابهتى لهذه الفتاة الغامضة ؛ فى هذه الجولات البعيدة التى لا تبعدنى عنها إلا ليكون شعورى بجاذبيتها أشد وأقوى ؛ فى ثوبها الأبيض أراه على بعد من خلال تَنُوب الجبل ؛ فى شعرها الأسود تُهَدِّله نسمات البحيرة على حافة الزورق ؛ فى وقع خطواتها على السلم ، وصوت قدميها على أرض الغرفة ، وصرير قلمها على القرطاس ؛ حتى فى سكون تلك العشايا الطويلة التى كانت تقضيها فى القراءة أو الكتابة أو التفكر ، وفى سحر الجمال الفاتن الذى أراه ولا أنظر إليه ، وأتمثله واضحاً من وراء الجُدُر لا يحجبه ستار ولا ظلمة

على أن هذه العاطفة القوية لم تصحبها فى نفسى رغبة فى استطلاع سر هذه العزلة ، واختراق هذا الحجاب الواهى الذى ضربناه بيننا باختيارنا . وماذا يعنينى من امرأة ضاوية الجسم أو عليلة الفؤاد قابلتها عرضاً فى هذه البلاد الأجنبية ؟ لقد نفضت يدى كما كنت أظن من شواغل الحب ، ولم أرد أن تصلنى بالحياة ثانية علاقة من علاقات النفس والحس ، أو يستولى عَلَىَّ وهن من ضعف القلب أو مرض الشعور . لقد كنت أحتقر الحب وأنتفى

منه ، لأنى لم أر فيه إلا الدلال العابث ، والتجنّى الأشِر ، والنزق الحاد ، والدنس المُريب . اللّهم إلا حب أنطونين فلم يكن إلا نزوة فتانة من نزوات القلب وزهرة ريانة من زهرات النفس أعجلها القدر عن شهود الربيع

٨

ليت شعرى من تكون هذه المرأة ؟ أهى مخلوقة من نوع الإنسان ، أم طيف من طيوف الغيب ، أم ظاهرة من ظواهر الجو ؛ تبدو فى سماء مخيلتنا ثم تذهب وما تترك غير لألاء يزيغ القلب ويخطف البصر ؟ أهى من وطنى أم من وطن بعيد نازح فلا أستطيع اللحاق بها بعد الخضوع لحبها ، فأقضى بقية أيامى بين عبرات تُقَرِّح الجفن وحسرات تقض الجوانح ؟ ولعمرى أهى فارغة القلب فتستطيع أن تجيب عن حب بمثله ؟ وهل من المعقول أن امرأة بارعة الحسن فارهة الجمال ، يكاد شبابها يستحير [1] ، وثمرها يَيْنع ، دون أن تغترق الأبصار بجمالها ، أو تقتنص القلوب بحبالها ؟ ألها أب وأم وأخوات وإخوة ؟ أم لها زوج ضرب الدهر بينها وبينه ، فهو ماثل فى قلبها وهى ماثلة فى قلبه ، وهو يعيش على حبها كما تعيش هى على حبه ؟

---

(١) استحار الشباب : تم واكتمل

كنت أشغل نفسى بهذه الأسئلة لأفرج عنها ذلك الضيق المُلِحَّ المؤئس . ووجدت من التبذل والضعة أن أدخل فى شأنها ، أو أحاول الكشف عن دخيلة أمرها ، فربما كان أجمل بى وأندى عَلَىَّ أن أُسِفَّ (١) ولا أقع ، وأن أحوم ولا أرِد

٩

على أن أسرة الطبيب الشيخ لم تكن لتتكرم عن مهاجمة هذا السر ، فأجابت داعى الفضول واستجبت لنفسها ولأضيافها أن يخوضوا فى شأن هذه الفتاة الأجنبية ، وراحوا يستقطرون أخبارها ، ويتسقطون أسرارها ، ويتكهنون بما حجب الغيب من أمرها ، ويجعلون ذلك حديث المائدة وموضوع السمر ، فكان ذلك يقع فى أذنى دون أن أسأل عنه أو أثير البحث فيه ، بل كنت أحاول منعه أو قطعه فلا أستطيع . ولبثت أسمعه فى كل يوم وفى كل وَجْبَةٍ ، من كل سن ومن كل طبقة : من الشيب والشبان ، والجوارى والغلمان ؛ ومن خدم المنزل وأدِلاَّء الجبل وملاّحى البحيرة . لقد أثرت فى كل قلب وامتزجت بكل نفس دون أن تتصل بإنسان أو تتحدث إلى أحد ؛ فكانت هى الفكرةَ

(١) أسف الطائر : دنا من الأرض فى طيرانه .

فى كل خاطر ، والفتنةَ فى كل ناظر ، والكلمةَ فى كل فم ، والجلال فى كل قلب . إن فى هذا النوع من الناس من يشعُّون الأنوار ، ويخطفون الأبصار ، ويجذبون إلى مدارهم مَنْ حولهم ، دون أن يفكروا فى ذلك أو يقصدوا إليه أو يشعروا به . لهم ما للشموس من نظام وجاذبية ؛ فهم يجذبون من تابعيهم الأبصارَ والأفكارَ والنفوسَ فتعلق بهم ، وتجرى فى الفضاء على ضوئهم . جعل الله لهم من الجمال سلطاناً وجنوداً ، ومن السحر أغلالاً وقيوداً ، ومن الحب شرائع وحدوداً . فالناس يتبعونهم فى الأرض ، ويشيعونهم إلى السماء ، حتى إذا غابوا عن عيونهم اعتراها البهَر والجهَر فلا ينظرون ، وإذا نظروا لا يبصرون ، حتى العامة وأوزاع الناس يشعرون بهذه الكائنات العليا — ولا أدرى بأى علامة يميزونهم — فيعجبون بهم دون أن يفهموهم ، كالأكمه يدرك أشعة الشمس دون أن يراها .

١٠

علمت من أمر هذه الفتاة أنها تقطن باريس ، وأنها زوج لشيخ كريم سار ذكره فى القرن الماضى بطائفة من الأبحاث العلمية أضافت إلى حصائل العقل البشرى ثروة وافرةً . راعه ما رأى من

جمالها، وفتنه ما عرف من ذكائها، فتبناها قبل أن يبنى بها ليترك لها بعد موته اسمه وماله. وأحبته هى محبة الولد البار للوالد الحنون، ودَأَبَت تنضح ودّه فى كل نهار برسالة تُضَمِّنها أحاديث نفسها ونوازع هواها، حتى اعتراها منذ عامين نحول شف جسمها وأقلق زوجها. فاستوصف الأطباء فأمروها بالرحلة إلى الجنوب تغييراً للهواء وترويحاً للنفس. وحال بين الشيخ وبين مرافقتها علله الملازمة، فعهد بها إلى أسرة فى لوزان بينه وبينها صلة موثَّقة. فجابت معها أقطار سويسرا وإيطاليا؛ ولكن تبدل الأجواء وتغير الهواء، لم يمسحا عن جسم العليلة شحوب السقم، ولم يعيدا إليها كمال القوة. فجاء بها إلى مياه إكس طبيب من جنيف مخافة أن يكون ما بها مرضاً من أمراض القلب. وهو لا بد آت مع الشتاء ليعود بها إلى باريس.

ذلك مبلغ ما نُمى إلىّ من خبر هذه الفتاة التى أصبحت عزيزة علىّ. ومن قبل كنت أردد وأؤكد أن تفصيل أمرها ودخيلة سرها شيء لا أشغل به فكرى ولا أجعل إليه بالى. فازددت لهذه الفتاة شفقة ورأفة، وعز علىّ أن أرى هذا الجمال الساحر يصاب وهو فى ربيعه وزهرته بهذا الداء المخامر الذى يوقد الشعور ويلهب الإحساس ويرهف الذهن، كلما أذاب الجسم وأفنى الحياة

و نقَص العافية . ولشد ما كان يلوع قلبي الحزُن كلما وقعت عيناى منها على هذه الخطوط الخفية التي رسمها الألم على طرف شفتها اللمياء التي أذواها الشحوب ، وحَوْل عينيها الزرقاء التي غزاها الأرق !

كان يشغل بالى من هـذه الفتاة رشاقة ساحرة وقسامة رائعة ، فأصبح أكثر ما يشغلنى منهـا تلك الظلال التي نشرها الموت من حولها ، فتبدو من خلالها شبحاً من أشباح الخيـال لا شخصاً من أشخاص الحقيقة . وفيما عدا ذلك لبثنا فى موقفنا الأول نسير فى الحياة متدانيين بالمجاورة ، متباعدين بالمنـاكرة ، لا يصل بيننا حديث ولا تدنينا مودة .

١١

أخـذت بواكير الثلج تلفع رؤوس التَّنُّوب على قمم سقوا ، وأنشأت الرياح البليلة تهب فوق التلال العالية ، وتجمعت حرارة أكتوبر المتعة اللذيذة فى جوف الوادى ، وما برحت النسائم الفاترة على شطئان البحيرة ومياهها ، ولألأت شمس الظهيرة مخارف الحور الطويلة المؤدية إليها ، وحركت الريح أغصان الشجر وذوائب الدوح ، فكان لها اهتزاز وحفيف يسحران اللب ويسترقّان المشاعر .

لذلك عزفت عن التجوال فى الجبال ، ورحت أرتع فى ربى الوادى بين خمائله وجنانه ، ومسايله وخلجانه ؛ ودأبتُ أقضى شطراً من النهار على متون الماء حتى عرفنى الملاحون . وقد قيل لى إنهم لا يزالون يذكرون تلك السياحات الطويلة التى كنت أحملهم عليها فى الخلجان النائية والأغوار الموحشة من شواطئ فرنسا وسفوا .

كذلك كانت الفتاة تستقل زورقها الحين بعد الحين إلى جولات لا تطول مدتها ولا يبعد مداها . ونوتيتها الذين يتولاهم شىء من الزهو والفخر بحملهم إياها لا يغفلون عن النظر فى وجه السماء يرقبون ظواهرها ويستطلعون سرائرها . فإذا رأوا مخايل المطر أو أحسوا دلائل الخطر نبهوها إلى ذلك فتعود . لأنهم يؤثرونها على أنفسهم ، فيفضلون صحتها وسلامتها على زورقهم المردود وأجرهم المفقود ويومهم الضائع

على أن الجو خدعهم ذات مرة فهونوا عليها عبور البحيرة ، وزينوا لها أن تزور أطلال دير الهتكمب على العُدْوَةِ الأخرى . فأقلع بها واحد منهم ، ولكنه ما كاد يبلغ الثلثين من عرض البحيرة حتى عصفته ريح هوجاء أُرسِلَتْ عليه من مضايق وادى الرون فأثارت الأمواج وأفارت الزبد وطاحت بشراع السفينة وخلفتها فى يد الموج الصاخب أشبه بقشرة الجوزة ، يجذبها

ويدفعها ، ويخفضها ويرفعها ، ولا عدة للملاح غير مجدافين
يكافح بهما الموج الهاجم والخطر الداهم عن الفُلْك الهلوع

لم يعد الرجوع فى طوقه ولا إمكانه ؛ وبينه وبين صخور المتكب نصف ساعة من الجهد الجهيد والرهق الشديد والغرق المتوقع . وكان قَدَرُ الله أوحظ نفسى يقود فى هذا اليوم وفى هذه الساعة زورقى المتين على وجه الماء ، ومعى أربعة من شداد المجدفين أقلعت بهم إلى جزيرة من جزر البحيرة أزور فيها قريباً لصديقى لويس يدعى دُشاتيّون ، قد شيد قصره الفخم على صخرة فى رأس هذه الجزيرة . وكانت عيناى تتبعان زورق الفتاة على مدى الطرف ، فما كدنا نقترب من مرفأ شاتيّون حتى بصرت بزورقها يعبث به النوء ويصارعه الموج ويرنّق عليه الخطر . فرددنا زورقنا عن وجهه ، ورجعناه على عقبه ، واقتحمنا اللجة ، وابتدرنا العاصفة بقلب واحد ورأى جميع ، عسى أن ننقذ الزورق الهالك المكروب وقد احتجب فى أفق رجراج من الزبد المركوم . ولا تسل عن صبرى المغلوب ولُبِّيَ المسلوب وطرفيَ الحائر أثناء الساعة التى قطعنا فيها عرض البحيرة ! على أن الله كتب للهالكين السلامة ، فقيض للزورق ساعةَ لحقناه موجةً كالجبل قذفت به إلى الساحل أمام أطلال الدير . فشهقنا من السرور وصحنا من الفرح وألقينا

بأنفسنا فى الماء متسابقين إلى الزورق لنحمل المريضة الغريقة إلى الشاطئ . وكان الملاح المسكين يطلب منا المعونة والغوث بحركة المحزون وحالة المجنون وصوت المُدَلَّه ، ويشير بيده إلى جوف الزورق . فدنونا ثم نظرنا فإذا الفتاة هامدة الجسم فاقدة الرشد ، وإذا الماء قد غشى ساقيها وذراعيها بطبقة من الزبد والصقيع ، إلا صدرها وما علاه فقد كانا بنجوة من المـاء . وكان رأسها كرأس الميت مسنداً إلى صندوق صغير من الخشب يضع فيه الملاحون متاعهم وآلتهم ، وشعرها متهدلاً على سالفتيها وكتفيها كجناحى طائر أسود قد غرق إلى نصفه فى غدير ، ووجهها البـاقى على إشراقه ورُوائه تنتشر عليـه سكينة النوم الهادئ انتشار الجمال الرائع تتركه الروح على وجوه الفتيات يوم الفناء ، أو شفق الخلود على الملامح التى يريد تخليدها فى ذاكرات الأحياء . أبداً ما رأيتها ولن أراها فى مثل هذه السحنة الإلٰهية القدسية . فهل كان الموت ميلاداً لهذه الصورة السماوية ؟ أم أراد الله أن ينقش على لوحة خاطرى لأول انفعال أكملَ هيئة لأجمل صورة ، لتكون على الدوام لعينى مثالاً مشهوداً ، ولقلبى تمثالا معبوداً ؟

بادرنا إلى الزورق لننشل المحتضرة من فراشها المزبد ونحملها إلى خلف الصخور . فوضعت يدى على صدرها فكأنما وضعتها

على دمية ، وأدنيت أذنى من شفتيهـا فـكأنما أدنيتها من شفتى طفل نائم . وكان قلبها يخفق شديداً غير منتظم ، ونفَسها يتردد فاتراً غير متصل ، فأدركت أن ليس بها إلا إغماءة طويلة من أثر الذعر والبرد . وتقدم بحار فأخذ بقدميهـا ، وجعلت أنا كاهلَها ورأسها على صدرى ، ثم حملناها دون أن تحس ولا تعى إلى كوخ صياد تحت صخرة الهتكمب كان الملاحون يتخذونه فندقاً يؤوون إليه من يعبرون به البحيرة إلى زيارة آثار الدير

كان هذا الـكوخ مشتملاً على حجرة ضيقة مظلمة مغبرة من الدخان ، كل ما فيها من الأثاث مائدة موقرة بالخبز والجبن وقنانى الخمر . وبجانب المدفأة سلم خشبي يصعد بك إلى غُرفة واطئـة تنيرها كُوّة ناظرة إلى البحيرة ، قد شغل فراغها ثلاثة أسرة ذوات أبواب من الخشب أغلقت عليها . دخلنا الـكوخ فإذا أهله رُقود فوق الأسِرّة ؛ فلما شعروا بنا استيقظوا ، وأقبلت ربة البيت ومعها فتاتان فأخذن السيدة وألقينها على حَشِيَّةٍ قريبة من المدفأة ، وأوقدن لها ناراً هادئة من القش وأعواد الرَّتم(١) ، وخرجنا نحن وأخذ النسوة ينضون عنها ثيابها ليجففنها ويمسحن عن جبينهـا وشعرها ما تقطر من ماء البحيرة ، ثم رفعنها ولا تزال غائبة إلى

---

(١) الرتم : ضرب من الشجر زهره كالخيرى وبزره كالعدس (le genêt)

أحد الأسرة بعد أن مددن عليه طِهارةً بيضاء أدفأنها بحجارة ساخنة من حجارة الموقد على عادة القرويين فى هـذه الجبال ، وجَرَّعنها نُطَفاً من الخل والنبيذ عسى أن يعود حسها وترتد إليها نَفْسها فما رجعن بطائل . فلما ذهبت عنايتهن هواء ، وعناؤهن هباء ، انفجرن بالبكاء والعويل ، وطفقن يرددن قولهن : «ماتت الآنسة ! توفيت السيدة ! لم يبق إلا البكاء ودعاء القَسِّ» فانضم إليهن البحارة وهم حيارى من الخطب ، سكارى من الـكرب ، وأخذوا يولْوِلون ويُعْوِلون ، وصعدت أنا عجلان على السلم ودخلت الغرفة وأقبلت على السرير فلمست جبينها بكفى فأحسست به وهج الحمى ، ووجدتها تَنْسم بانتظام نَسَمِ الريح الضعيفة ، فأسكت النساء وأعطيت أصغر الملاحين ديناراً وكلفته الذهاب إلى طبيب قيل إنه يسكن قرية فوق تلعة من تلاع جبل القط على فرسخين من دير المتكمب . فانطلق الملاح يعدو مسرعاً . وقر الآخرون فى أماكنهم مطمئنين على حياة السيدة ، وأخذ النسوة يذهبن من الردهة إلى الغرفة ، ومن القبو إلى مجْثم الدجاج ، ساعيات لإعداد الطعام ؛ وبقيت أنا جالساً على عِدل من دقيق الذرة بجانب سرير الفتاة ، يداى معقودتان على ركبتىّ ، وعيناى شاخصتان إلى وجهها الساكن وجفنها المغمض . وأقبل الليل فقامت إحدى الفتاتين

فأغلقت النافذة وعلقت بالحائط مصباحاً صغيراً ، فسقط ضوؤه على مَجْبس[1] السرير الأبيض ووجه الفتاة الناعس كما تسقط أضواء الشموع على الميت المُسجّى . آه ! لقد سهرت ليلى بعد ذلك على وجوه أُخر ، ولكن وا أسفاه ! لم يكن لليلها صباح ولا لنومها يقظة !

١٢

ما أظن أحداً فى الناس وقع له ما وقع لى أثناء هذه الساعات الطوال من شخوص البصر وهيام الفكر فى جو من التأمل العجيب والتفكر الشديد . فقد كنت موزّع القلب مقسم الخاطر بين الحب والموت ، لا أدرى ماذا يُبَيِّته لى الغيب فى ضمير الليل : أيكون لى من هذا الوجه الملكى الماثل أمام عينى حزن وألم يبقيان بقاء الأبد ، أو حب وعبادة يتخللان منى مسالك الروح فى الجسد ؟

كان نوم الفتاة نابياً قلقاً ، ولكن اضطرابه لم يقو على إيقاظها ، وإنما عبث بالغطاء فانحسر عن إحدى كتفيها ، وتهدل عليه حِلَق غلاظ من شعرها الأثيث الناعم ، وناء جيدُها الضعيف بثقل رأسها فالتوى قليلا على الوسادة ، وتخلصت إحدى الذراعين من اللحاف

(١) المجبس : ثوب يطرح على ظهر الفراش لينام عليه (الملاءة)

ونامت تحت العنق ، فأمكنت الرائى أن يميز لون مرفقها العاجى من لون القميص الرمادى الغليظ الذى دثرها به النسوة ، وتلألأ فى أصبع من أصابع يدها الضالة فى ليل شعرها خاتم صغير من الذهب المرصع بفصوص من الياقوت قد انعكست عليها أضواء المصباح

وكانت الفتاتان قد نامتا فى ثياب النهار على أرض الغرفة والأم قد أخذها الوسن على كرسى من الخشب فألقت برأسها وذراعيها على متكئه . فلما صاح الديك فى الفناء ، وغرد العصفور فى الروض ، استيقظ النسوة وخرجن إلى عملهن يحملن قباقيبهن فى أيديهن حتى لايحدثن صوتاً ولا حركة . ثم أخذت أضواء الفجر تسيل من خصاص النافذة المغلقة ، ففتحتها رجاة أن يكون لنسيم الصباح العليل ، وهواء البحيرة البليل ، وشعاع الشمس الجميل ، أثر فى إيقاظ الحياة فى هذه الفتاة . فقد أصبح متمناى وغاية هواى أن تتنبه ولو بخمود أنفاسى وفقد حياتى

دخل النسيم نديًّا بارداً فملأ الغرفة وأطفأ المصباح الخافت ، ولكن الناعمة لم تهب ولم تتحرك . وسمعتُ النسوة المساكين يصلين جماعةً صلاة الصبح فى خفوت وقنوت ورهبة . فوقع فى نفسى أن أصلى أنا أيضاً . وذلك دأب النفوس إذا أرهقها الأمر فحلّ عراها وهد قواها فزعت إلى القوة الإلٰهية تلتمس منها القدرة فى العجز ،

والجلادة على الخطب ، والصبر عند المصيبة . فجثوت على الأرض وشبكت يديّ على حافة السرير ، وحدقت ببصرى فى وجه الفتاة ثم صليت وأطلت الصلاة بقلب خاشع وجفن دامع وشعور متقد . وسالت مذارف عينى فحجبت عنى صورة من أدعو لها الله وأرجو لها اليقظة

كنت أستطيع أن ألبث على هذه الحال ساعات طوالا دون أن أشعر بمرور الزمن ، أو أحس ما نال ركبتى من أذى البرد وصلابة الحجر ، مادامت نفسى فانية فى شعور واحد وإرادة واحدة . ولكننى شعرت فجأة بيد لمست يدى وسقطت برفق على رأسى كما لو تريد أن تنحى شعرى عن وجهى وأن تبارك علىّ . فصحت من الدهش ونظرت فإذا عين المريضة مفتوحة ، وإذا فمها ناعم باسم ، وإذا يدها مبسوطة تبحث عن يدى وهى تقول :

لك الحمد يا رب ! لقد رزقتنى أخاً !

١٣

نبهها برد الصباح بينما كنت أصلى ، فرأتنى على الحال التى وصفت : وجهى على حفاف سريرها غريق فى شَعرى وعبراتى ، وحرارة شفتى ممزوجة بحماسة دعواتى . وكان لها من الضوء

ماساعدها على معرفتى ، ومن الزمن مامكنها من التفكير فيما كانت عليه وفيما صارت إليه . رأت نفسها قد أصابها الغشيان وهى فى عزلة عن الناس ووحشة من الحياة ، فأفاقت منه وهى بين حنان وعطف يفيضان من عينى مؤمن لا تعرفه . كانت محرومة نسب القلب وصلة الروح وهى فى ربيع شبابها المتروك ، فوجدت بجانبها بغتة وجهاً وهيئة وعناية وصلاة ومدامع لا تكون إلا لأخ ولا تصدر إلا من أخ . فلم تتمالك — وقدظفرت بهذه السعادة فى الساعة التى شعرت فيها بعودة الحياة — أن حركت لسانها بهذه الجملة المؤثرة (لك الحمد يارب لقد رزقتنى أخا !) فأمسكت يدها المبسوطة إلى ونحيتها عن جبينى إكباراً لها أن تمسنى ، ثم قلت : أخ؟ أوه ! كلا ياسيدتى لست أخا ، وإنما أنا عبدٌ لهواكِ وظل لشخصك ؛ لا أبتغى الوسيلة إلى نعيم الدنيا وسعادة الآخرة إلا بأن يكون لى الحق فى تذكار هذه الليلة ، والاحتفاظ بصورة هذه الحورية التى تستطيع وحدها أن تحبب إلىّ الموت لأجلها ، أو تهوّن علىّ الحياة فى ظلها .
وبينما كنت أنطق هذه الكلمات بلسان ثقيل متردد ، وصوت خافت متهدج ، كان ورد الحياة يتفتح فى وجنتيها ، وابتسامة حزينة تنتشر على شفتيها ، وشك مريب فى هذه السعادة يبدو فى عينيها . وما أسرع ما اختلفت على وجهها ألوان القدر : فمن غمرة الموت إلى

زهرة الحياة ، ومن حلم الخيال إلى يقظة الحقيقة ! لقد ارتسمت على ملامح وجهها الوسيم النضر شتى العواطف ومختلف الصفات فى وقت واحد : فذهول ونشوة ، وسقم وراحة ، وكآبة وفرح ، وظرف وحشمة ؛ وكنت تقرأ فى مخايل وجهها ، وتدرك من دلائل صمتها ، ما تعيا عنه الصحف المنشّرة ، والكتب المحبرة ، والجمل المزورة ، من الصراحة والطمأنينة والثقة والأمل . إن وجه الإنسان لسان عينه . وإن مُحيّا الشباب لينقل أسرار المودة الصامتة من نفس إلى نفس نقلا تعجز عنه لغات العالم . ولا جرم أن ثيابى المبللة ، وخُصَل شعرى الطويلة المرسلة ، ورباط رقبتى المرخى المنحل ، وعينى المرهاء من الأرق ، ولونى الكاسف من الفرَق ، وضراعتى وذهولى أمام هذا الجمال الطاهر المعذب ، وما اعترانى من القلق والانفعال والجذل والابتهال ، وظلام هذه الغرفة الجرداء ، وقيامى وسطها دون صوت ولا حركة ، وأشعة الشمس تبهر عينى وتضىء بقايا الدموع على خدى ؛ كل أولئك كسب وجهى وملامحى قوة خارقة وإشارة ناطقة وعبارة صادقة ، نمّت لها عن فؤاد غير كذوب ، ووداد غير مشوب ، وحنان لن تجد مثله على كثرة الناس وطول الحياة

ولما أعيانى احتمال هذه الصدمة ، واستقلتنى من رهبة الصمت وجلال الموقف رعدة ، دعوت النسوة فأقبلن . وما كادت

٤٥

أنظارهن تقع على الفتاة حتى هفت قلوبهن من دهشة المفاجأة واعتقدن أن انبعاثها من غشيتها معجزة . واتفق أن جاء فى هذه الساعة الطبيب الذى بعثنا فى طلبه البارحة ، فأمرها بالراحة ، ووصف لها نقيعاً من أعشاب هـذا الجبل فهدأ به قلبها وسكن . وأقبل الطبيب علينا يسكن روعنا ويذهب خوفنا ، ويعلن أن هذا المرض لا خطر فيه ولا محذور منه ، وإنما هو داء من أدواء النساء يصيبهن فى مرح الشباب ، فإذا تنفس بهن العمر انكسرت حدته و بعدت نوبته . أما سببه فإفراط فى الحس يترك ما فاض من الشعور وطغى من الحياة أشبه بالموت وليس به ، إلا إذا مدته وقوته علل النفس الباطنة فإنه يصبح إذ ذاك انقباضاً دائماً واكتئابا لازما ، يجعل الحياة مريرة المذاق عسيرة الحمل . قال ذلك ثم انصرف ، وخرج النسوة على أثره يبحثن فى المروج عن الأعشاب التى وصفها . وأخذ الغاسلات يكوين ثياب الفتاة فى الحجرة . أما أنا فغادرت المنزل لأجول وحدى فى خرائب الدير العتيق . على أن قلبي كان مفعما بتأثره الخاص فما أظنه يتسع لهذه الطلول والدِّمن

١٤

كانت الرهبانيــة فى العصور الخوالى صناعة وحرفة ، ثم

أصبحت حياتها اليوم فى المعابد كحياة الأوابد ، لا تربط الرهبان بإخوانهم آصرة ، ولا تدنيهم من الناس منفعة ، ثم يتبخرون على جنادل الديور ويلحقون من غَبَرَ ، دون أن يكون لهم فى القلوب ذكر ولا فى الوجود أثر . فليست الرهبانية إذن محل إجلالى ولا مثار إعجابى فى هذا الدير ، وإنما أعجبت الإعجاب كله بالطبيعة وقدرتها على احتلال ما أخلى الإنسان من أماكن وغادر من مساكن ! إن هندستها الحية البادية فى اليقطين الناشبة جذوره فى مِلاط البناء ، والعوسج واللبلاب الذاهبة عساليجها فى الهواء ، والقرنفل المتعلق والنبات المتسلق على صدوع الحائط فيكسوها حلة من الخضرة ، لهى أجمل فى العين وأسمى فى القلب من هندسة الإنسان فى الحجارة الجامدة والستور الخامدة بالريشة والمِنحت . وإن ما نراه ونسمعه اليوم من لألاء الشمس ، وعبير النبت ، وخرير الماء ، وألحان الهواء ، وهدير الموج ، وتغريد الطير ، ودوىّ البحيرة ، وأصداء الغابة ، فى سَاباط هذه الكنيسة المقوّض ، وفى صحنها المهدم ، وتحت قبابها الممزقة المعلقة ، لأروع وأجمل مما كان يملأها بالأمس من أضواء الشموع ، ودخان البخور ، وترتيل الرهبان المتشابه فى مواكب الصلاة وحفلات القداس

إن الطبيعة أكبر قساوسة الله ، وأمهر مصوريه ، وأقدر

شعرائه ، وأبرع مغنيه . وإنك لتجد فى عش العصفور تتناغى فيه أفراخه تحت رفرف الهيكل الدارس ؛ وفى أنفاس الرياح تهب من البحر حاملة إلى أديرة الجبـل المقفرة خفوق الشُرُع وأنين الأمواج وغناء الصيادين ؛ وفى الزهور ينتشر أرَجها فى الفضاء وينتثر ورقها على القبور ؛ وفى صدى أقدام الزائرين تقع على مضاجع الموتى من هذا الدير ؛ تجد فى هذا كله من التقى والروعة والتأثير ما كان فى هذا الدير منه وهو فى إبان عهده ، وعنفوان مجده !

نعم لا يزال بجوار هذا المكان بقية من بنى الإنسان بنفوسهم الصغيرة وميولهم الحقيرة ؛ ولكن جلال الله فى الطبيعة أكبر وأظهر . فترى عُلاه وسناه يغشيان هذه القبور مع ضوء الشمس ونور السماء لا يحجبهما سحاب ، ولا تصدهما قِباب

١٥

لم أكن فى هذه الآونة مالكا لمشاعرى ولا ضابطاً لخواطرى ، حتى أوضح فى نفسى هذه الأفكار المبهمة . فقد كنت أشبه برجل آدَهُ عبء فادح فألقاه عن ظهره ثم انطلق عافياً من تعبه ، يبسط عضلاته المقبوضة ، ويمرُس أعضاءه المرضوضة ، ويتنفس ملء رئتيه ، ويسير حيث شاء فسيحَ الخطو كأنما يريد

أن ينهب الفضاء ، ويستنشق كل ما فى الجو من هواء . لم يكن ذلك العبء الذى ألقيته وتخلصت منه غير قلبى . فإنى منذ أعطيتها إياه شعرت لأول مرة بتمام الحرية وكمال الحياة . إنما خلق الإنسان للحب . فهو لا يشعر برجولته وإنسانيته إلا يوم يشعر حقيقة أنه يحب . أما قبل ذلك فهو يبحث ويقلق ويضطرب ويضل فى شعاع فكره ، حتى إذا وجد الحب وعرفه وقف واستراح وخلّى زمامه بيد القدر

صعدت إلى سطح هناك فسيح مهدم تكسوه الأعشاب ، ويمتد على جوانبه اللبلاب ، ثم جلست على حائطه المطل على البحيرة ، وأدليت ساقىّ نحو اللاجة ، وأرسلت عينىّ تجولان فى عُباب الماء وعَنان السماء وقد التقيا عند الأفق ، فما كنت أدرى أين تبتدئ السماء ولا أين تنتهى البحيرة ، فخيل إلى أنى أسبح فى طبقات الأثير ، وأغوص فى لجج الفضاء المطلق . ولكن السرور الذى تسبح به نفسى وتمرح كان أوسع وأروع وأضوأ وأعمق من الجو الذى يسبح فيه جسمى ألف مرة . وليس فى الإمكان أن أعرّف هذا السرور أو بالحرى هذا الصفاء الباطن ، فقد كان أشبه الأشياء بسر بعيد الغور شاع فى جوانب نفسى بالإحساس لا بالكلام ، أو بالشعور الذى تدركه العين إذا انتقلت

إلى النور بعد الظلام ، أو أشبه شيء بنفس الصوفى إذا اعتقدت حلول الله فيها بوحيه وهَدْيه. فهو نور من غير نار ، وسكر من غير خُمار ، وراحة من دون عناء ولا سكون !

لو أتى علىَّ فى هذه الحال ما أتى من القرون على هذه البحيرة لما شعرت أنى لبثت أكثر من ثوان معدودة : ذلك هو فقد الشعور بالزمن الذى يعترى الخالدين فى الجنة !

١٦

كذلك كان الشعور فى نفسى غير معيَّن ولا مبين ولا محدد. فقد كان كمالاً لا يقدَّر ولا يفصَّل ، ووحدة لا تجزَّأ ولا تحلل ، لا من طريق الفكر ، ولا من طريق العقل. لم يكن مبعثه جمال هذه المرأة الفاتن الذى أعبده ، لأن ظلال الموت لم تزل ممدودة بين جمالها وعينى ؛ ولا الصلف والزهو بأنها تحبنى ، لأنى أجهل مكانى منها ، فربما كنت فى عينها حلما بدا ثم تبدد ؛ ولا الأمل فى نيل هذه المتعة الجميلة ، لأن إجلالى لها كان فوق هذه الشهوات السافلة والملذات الباطلة فلا أخطرها ببالى ؛ ولا المباهاة بالظفر فى سبيل هذه المرأة ، لأن هذه الصفة الذميمة ليست من عادتى ولا خلقى ، وليس فى هذا المكان القفر من أباهى أمامه بحبى ،

وأستطيل عليه بإختيالي وعُجْبي ؛ ولا الرجاء في أن يجمع بيننا الزواج ، لأني أعلم أنها زوجة ؛ ولا اليقين بأني سأنعم برؤيتها ، وأسعد نفسي بصحبتها ، لأني لست مطلق الإرادة ولا حر التصرف ، وعما قليل تنبو الديار ويتصدع الشمل ؛ ولا التأكدَ من أن لي مكاناً في قلبها ، ونصيباً من حبها ، لأني أجهل دخيلة نفسها ومطمح هواها ، اللهم إلا حركة وكلمة عبرت بهما عن شكرها ليدي وجميلي . كان مبعث شعوري وسروري شيئاً آخر غير هذا كله : كان عاطفة نزيهة نقية هادئة لا يشوبها غرض من أغراض الحياة ، ولا عَرَض من أعراض المادة . كان شعور الراحة يجده من ظفر بحاجة طالما نشدها فما وجدها ، ويدركه القلب العابد القانت أعوزه معبوده وعز عليه شهوده ، فيَمُضُّه الألم ويُرْمضه العذاب ، حتى إذا اهتدى إليه علق به علوق الحديد بالمغناطيس ، وفنيَ فيه فناء النفس في الهواء الطليق . ومن أعجب الأشياء أني لم أكن عجلان إلى النظر إليها ، والوقوف بين يديها ، والاستماع إلى صوتها العذب المشتهى ، وهي التي أصبحت مناط آمالي وقبلة خاطري ومنتجع هواي ! ذلك لأني رأيتها فاحتويتها ؛ وليس في مقدور أحد أن يستردها مني ، أو يبعد صورتها عني ؛ فأنا على القرب والبعد والمشهد والمغيب أراها في نفسي ، وما عدا

ذلك لا يشغلني ولا يعنيني . إن الحب الكامل المطمئن صبور ، لأنه مطلق ولأنه خالد . فانتزاعها مني انتزاع لقلبي ، لأني أحسست منذ رأيتها أنني ملكتها ، كما تملك العين النورَ حين ترمقه ، والرئة الهواء حين تستنشقه ، والنفسُ الفكرَ حينما تعْلقه . لقد رأيتها وحسبي ذلك . والنظر والتأمل لذة وراحة . وسواء على أمنحتني حبها وشغلت بي قلبها ، أم مرت على فلا تفطن إلى . لقد غشيني ضوؤها وغمرني سناها فلم تعد تستطيع هي استرداد ما نالني من أشعتها وبهائها ، كما لا تستطيع الشمس أن تسترجع ما منحت الطبيعة من حرارتها ولألائها . وأحسب أني — وإن عُمِّرتُ القرون — لا أحس في قلبي برداً ولا ظلاماً ، لأنها ستشع فيه الحرارة والنور ، على كر الأيام ومر العصور

١٧

أفاض هذا الاعتقاد على حبي سكينة الدوام ، وهدوء اليقين ، وسعة اللانهاية ، ونشوة الفرح الذي لا تقرّ فورته ، ولا تسكن سَوْرته على طول الأبد . فتركت الساعات تمر دون حساب ولا عد ، ثقة بأن ما أمامي منها لا حصر له ولا حد . وكان في استطاعتي أن أفارق هذه الفتاة قرناً من الدهر دون أن يعبث هذا الزمن

البعيد يحيى ، فلا يقلل يوماً من خلوده ودوامه ، ولا ينقص شيئاً من كماله وتمامه . لقد كنت أذهب وأؤوب ، وأقعد وأقوم ، وأسرع وأبطئ ، وأمشي على الأرض لا تمسها قدماى كأنى شبح من أشباح الغيب ، ترفعه قوته السبّاحة عن أديم الثرى فينزلق عليه دون أن يمسه . كنت أفتح ذراعى للهواء وللماء وللفضاء كأنى أريد أن أعانق الطبيعة أشكرها على أن تجلت بأنوارها وأسرارها وحياتها وجمالها فى هذه المرأة الفاتنة . وكنت أجثو على الصخور والشوك دون أن أحس ، وأركع على شفير الهاوية دون أن أرى ، وأرفع صوتى بالكلام المبهم يطغى عليه صخب الأمواج الهادرة فيذهب ، وأغوص فى رقيع السماء اللازوردية بنظراتى الدائبة الثاقبة لأكشف فيها عن وجود الله نفسه فأشكره

أنا لم أعد قط إنسانا ، وإنما كنت تسبيحة هائمة وتحية دائمة ، أصيح وأغنى ، وأبتهل وأصلى ، وأذكر وأشكر ، بالفيض والإلهام لا بالنطق والكلام ، فشاعرى ثملة فرحة ، ونفسى هائجة مرحة ، وجسمى ينتقل من هاوية إلى لجة غير ذاكر هيولاه ، ولا معتقد بالزمان ولا بالمكان ولا بالموت . وهكذا فجر الحب فى قلبى ينابيع الغبطة ، وأيقظ فى نفسى روابط العواطف ، وجلا لعينى مسارح الخلود !

١٨

ما فطنت إلى فرار الساعات إلا حين لألأت شمس الظهيرة على أسوار الدير . فهبطت من السطح وأخذت أثب خلال الأشجار من صخرة إلى صخرة ، ومن جذع إلى جذع ، وقلبى واجف تكاد تنشق حنايا الصدر من وجيبه . فلما دنوت من المنزل الذى أوَينا إليه المريضة ، نظرت فإذا هى جالسة فى مرج وراء البيت تحت حائط مدعم بالصخور ، وثوبها الأبيض يلمع فى ضوء الشمس فشمشع خضرة الروض ، وكومةٌ من العلف تَمد عليها الظل فوَقتْها شمس الظهيرة . كانت تقرأ فى كتاب منشور على ركبتيها ، فقطعت القراءة هنيهة وأقبلت ترتع وتلعب مع الأطفال الذين جاءوها يقدمون إليها الزهور والكَسْتناء . فلما أبصرتنى همَّت بالنهوض إلى ، فشجعتنى هذه الحركة على التقدم فتقدمت ؛ وقامت هى تلقانى وعلى خديها حمرة الخفَر ، وعلى شفتيها اختلاجة الحياء ، فزاد ذلك فى خجلى وقلل من نشاطى . وربكتنا معاً غرابة الموقف ، وأخذت علينا مذاهب القول ، فلبثنا ردَحا من الزمن لا نجد حديثا نفتحه ، ولا حادثاً نشرحه ، حتى أومأت إلىَّ إيماءة مضطربة خفية بالجلوس فى ظل الكومة على مقربة منها . فظننت أنها كانت تنتظرنى وأنها أعدت لى المجلس

قبل مجيئى . فأخذت مكانى فى أدب وحشمة ، واستمر منى ومنها السكوت . وماذا كنت تريد أن تقول ؟ لقد كان كلانا يبحث دون طائل فى حنايا ذاكرته ونواحى خياله عن تلك الكلمات المبتذلة التى يتداولها الناس تداولهم للنقد المزيف . فيكتمون بها أفكارهم بدل أن يعلنوها ، ويبهمون بها آراءهم دون أن يبينوها . أما الحديث الخاص فقد كان شأنه أعجب ، لأنا خشينا أن يقصر فَيُخل ، أو يطول فيُمل ، فآثرنا أن نكظم على ما فى نفوسنا فلا يتعدى الشفاه ؛ وازداد على طول الصمت احمرار الوجه وانكسار الطرف . ولعل هذه الحال كانت تطول لولا أن ارتفعت أجفاننا وتلاقت أبصارنا ، ورأى كل منا فى عين الآخر مكنون سره ومستور أمره . رأيت فى عينيها فيضاً من الشعور والحساسة ، ورأت فى عينى ولا ريب وفراً من الطهر والحماسة ، فلم يستطع كل منا أن يرد بصره عن وجه أخيه ، وأجهشت مآقينا بالدمع فى وقت واحد ، فرفعنا أيدينا بحكم الغريزة إلى عيوننا لعلها تخفى ما فضحه الدمع ونم عليه الجزع

لا أدرى كم لبثنا على هذه الحال إلى أن قالت بصوت متهدج ولهجة بطيئة رزينة : « أبعْدَ أن ذرفت عَلَيّ عبرتك ، ومنحتنى اخوّتك ، تهاب الكلام ولا تجرؤ على الحديث ؟ إن دمعة تسكبها

عين نزيهة من قلب مجهول لهى أثمن من حياتى وأجل نعم الله علىّ . ثم أَشْرَبت صوتها نغمة العتاب الرقيق وقالت : لعلنى عدت غريبة فى عينك ، منذ أصبحت غنية عن عونك ! أما أنا فما كنت أعرف منك إلا اسمك ووجهك ، والآن عرفت نفسك معرفة ما كانت تتهيأ لى فى قرن . فقلت لها : أما أنا ياسيدتى فلا أريد أن أعرف منك ذلك الجثمان الحى الذى يشبه ما للناس ، وتصله بهذه الحياة علائق كعلائق الناس ، وإنما أريد أن أعرف ذلك السر الذى سما بك إلى أفق الوجود ، ودعانى إلى أن أراعيك بنظرى على بُعد ، وأستحضرك فى قلبى كل لحظة . فقالت : « لا تخدع نفسك هذا الخداع ولا تُضْف علىَّ من قلبك هذا الثوب السماوى والنور الإلهى ، فإنك لا تدرى مقدار ألمى إذا انكشفت الأيام عن ضلال هذا الوهم ، وفساد هذا الزعم ، وتبدُّد هذا الحلم . لا ترفىَّ أكثر من امرأة بائسة تقضى نحبها فى ظلمة اليأس ووحشة العزلة . وكل ما تزودته من الناس ، وادخرته من الحياة شىء من الرحمة قليل . ستعلم ذلك حق العلم يوم أكشف لك عن حقيقة حالى وباطن أمرى . ولكن أخبرنى قبل ذلك عن شىء فيك طالما ساورنى منه إشفاق وقلق منذ رأيتك فى الحديقة . ما بالك وأنت فى ميعة الشباب ومرح الصبى وجمال

الخلقة تسير مع الهم وتستأنس بالوحشة ؟ لماذا تتحامى الناس وتعتزل أهل المنزل وتؤثر الانفراد بنفسك فى مجاهل الجبل أو البحيرة ، أو تحتبس فى غرفتك لا تبرحها طول يومك ؟ والناس يقولون إن مصباحك يبيت هزيعاً من الليل مضيئاً . هل ينطوى ضميرك على سر لا يستريح بمكنونه إلا إلى الخلوة ؟ قالت ذلك ثم انتظرت على قلق بادٍ وإشفاق ظاهر وهى ناكسة الطرف مخافة أن ينم وجهها على ما يحدث جوابى فى قلبها . فأجبتها : إن هذا السر هو أن ليس لى سر . هو الشعور بعبء ذلك القلب الذى لم تهجه إلى الآن فى صدرى حماسة ، ولم ترفعه بين جوانحى حميّة . هو الألم مما أصاب هذا القلب الكسير الذى جدت به على الحب الناقص والعواطف المكذوبة ، ثم اضطررت إلى استرجاعه دامى الشغاف ، مضطرب الوجيب ، عزوفاً عن اللهو ، يؤوساً من الحب وهو فى غرب شبابه وحدة شعوره

ثم قصصت عليها ما يعنيها من تاريخ حياتى وجملة أمرى بلسان صادق ولهجة صريحة . أخبرتها أنى درجت من مهد صغير فقير متواضع ، وأن أبى كان عسكريا عتيق المزاج وثيق التركيب ، وأمى كانت لطيفة الشعور صافية الحس ، غذت حداثتها بلبان العلم ، وجمّلت شبيبتها بحلية الأدب . وحدثتها عن أخواتى

وما هن عليه من خلوص النية وسماحة الخلق ، وعن نشأتى فى حِجر الطبيعة بين أطفال الجبال من مواطنىَّ وجيرتى ، وولوعى بالدراسة السهلة الخالية ، وعطلتى القاهرة من الأعمال الكاسبة ؛ وقصصت عليها نبأ غرامى الأول الصادق بابنة الصياد فى نابل ، وعلاقاتى الفاسدة بباريس وما جرته إلىَّ هذه المخازى من رعونة فى خلقى ، واضطراب فى عيشى ، وخجل من نفسى : ووقفتها على شغفى بالجندية ووقوع الصلح يوم دخلتها وانتظمت بها ، وخروجى إلى الجولان فى كل بلد وتحت كل كوكب ، ورجوعى إلى أسرتى وما بين جنبىَّ إلا خيبة المسعى وإخفاق الأمل ؛ وما أصابنى بعد ذلك من انقباض الصدر ولزوم الهم ورجاء الموت ، وما نجم عن ذبول الجسم ورقة البدن من همود النفس وفتور العزم وما يختفى وراء شعرى الأسود ووجهى النضر ومعاطفى اللدْنة وأربعة وعشرين ربيعا من شيخوخة باكرة فى النفس ، وطبيعة نافرة من العيش ، وزهادة رجل أخلقته السنون وحطمته السن العالية

كان لسانى يفيض بذكر ما كابدت فى حياتى من جفاء وخشونة ، واشمئزاز ورعونة ، وخور وقنوط ؛ ولكن قلبى أصبح منذ هذه اللحظة لا يعرف معنى هذه الأسماء ، ولا يجد أثراً فيه لهذه الأشياء . فإن نظرة واحدة منها جددت كيانى ، وغيرت

وجدانى ، وبعثتنى من رقود . فأنا أتكلم الآن عن نفسى كما أتكلم عن إنسان مات أو حادث فات لا صلة بينه وبين إنسان وليد وحادث جديد

فلما فرغت من حديثى نظرت إليها نظر المتهم إلى قاضيه ، فإذا هى مرتعدة الجسم ساهمة الوجه من الجزع تقول : رباه ! لقد أفزعتنى بحديثك ورُعْتنى . فسألتها ولماذا ؟ فقالت لأنا نتشابه فى أكثر الأشياء ، وإن لم تشبهنى فى الوحدة والشقاء . إن تاريخ حياتك إذا تغيرت فيه الأسماء والظروف كان تاريخ حياتى لا يزيد ولا ينقص ، والفرق أن حياتك تبتدىء ، أما حياتى . . . فمنعتها أن تتم الجملة بأن وضعت على قدميها شفتى ، وطوقتها بذراعى كأنى أريد أن أعوقها فلا تطير . وصحت قائلا : كلا ! كلا . إنها لن تنتهى ، وإذا قضى الله لها النهاية فلتكن لحياتى أنا أيضاً . وكان من أثر هذه الصرخة العصبية ، وتلك الحركة الاضطرارية ، أن سرت فى جسدى رعدة قوية ، فلم أجرؤ على رفع وجهى من الأرض بعد أن جمعت قدميها إليها . أما هى فقالت بصوت الوقور الحليم : انهض من مكانك ، ولا تطع قلبك فى حب شىء يسير كهذا الغبار الذى يعلق بشعرك الجميل ولا يلبث أن تهب عليه أعاصير الخريف فتذروه . لا تدلس على عقلك الرأى فى هذه

الفتاة المسكينة التى تراها ، ولا تخدع نفسك عن حقيقتها ، فليست إلا ظل شباب وأثر جمال وخيال حب ، واحتفظ بقلبك للآتى كتب الله لهن الحياة . أما طرائد الموت فأعطهن ما للأموات : يداً رفيقة تسندهن فى الخطوة الأخيرة ، وعيناً مخاصة تذرف عليهن دمعة صغيرة . قالت ذلك بلهجة رزينة حازمة صابرة ، فارتعد جسمى واضطرب فؤادى . ولكنى حين رفعت بصرى إليها ، وأشعة الأصيل تنعكس عليها ، فتزيدها ضياء ورواء ، رأيت نضارة وجهها وطلاقة ملامحها تزداد ازدهارها ساعة فساعة ، كأنما أشرق فى قلبها شمس جديدة ، فلم أستطع أن أصدق بكمون الموت فى هذه الحياة ، ولا بخفاء الخطر فى علائم هذا الأمن . وبعد فما أدرى ماذا يشغلنى الآن ويهمنى ؟ إن كان الله قد قضى فى هذه الحورية بالموت ، فالموت هو الذى أقصده وأنشده . ومَن يدرى ؟ لعل الحب الشامل الكامل الذى تظمأ إليه نفسى يكون فيه ، ولعل الله لم يُرنى هذا النور الذى يوشك أن يخبو على الأرض إلا لأهتدى بسناه فأتبعه إلى القبر ثم إلى السماء . ثم قالت بلهجة لا تشبه لهجة الخليلة التى تتكلف وقار الصوت وتتعمد جد الكلام ، وإنما تشبه لهجة الأم الصغيرة ، أو الأخت الكبيرة ، التى تتحدث فى عقل وحكمة إلى ولدها أو أخيها : لا تستغرق

هكذا فى أحاديث النفس وكواذب المنى ، بل ألق بالك إلىّ : أنا لا أريد أن تتعلق بوهم باطل وحلم زائل وظاهر مموه . أريد أن تفهم حقيقة من تملكها نفسك وتحبس عليها هواك ، وتعلم أنى لا أستطيع استحقاق هذه النفس ولا استبقاء هذا الحب إلا بالخديعة والكذب ؛ والكذب كان ومازال أبعد الخلال عن نفسى وأثقل الرذائل على طبعى ، حتى لو علمت أن نعيم الجنة معلق على شىء من النفاق والكذب لاجتويته آبية ، وصدفت عنه راضية . فما السعادة المختلسة إلا جحيم القلب وشقاء النفس ووخز الضمير .

قالت ذلك وعلى وجهها نقاء الطوية ، وفى صوتها ولاء القلب ، وفى عينيها صفاء الضمير . نخيل إلىّ أن الحقيقة الخالدة تمثلت فى هذا الجثمان الطاهر ، واستقبلت ضوء الشمس الباهر ، ثم بعثت بصوتها إلى الآذان ، وبنظرها إلى العيون ، وبروحها إلى القلوب فاستلقيت على حَفافى الكومة عندقدميها ، واعتمدت رأسى بكفى اليمنى ، وشخصت ببصرى إلى شفتيها حتى لا يفوتنى منها نغمة ولا حركة ولا نسمة

١٩

ثم أخذت الفتاة تسوق إلىّ تاريخ حياتها تقول : ولدت على

مقربة من بلد ڤرچيني،وهو كما شاءت مخيلة الشاعر جزيرةافريقية من جزر المحيط الهندى . ولا شك أنك لاحظت هذا فى سواد شعرى وشحوب وجهى ، وسمته فى هيئة منطق واختلاف لهجتى . وقد حاولت أن أمحو هذه النغمة من شفتى فما استطعت . على أننى أوثر من صميم قلبي أن أحتفظ بهذا الجَرْس لأنه الأثر الوحيد الذى أبقته صروف الأيام من طفولتى . فهو يذكرنى بشئ يشبه النواح فى رفيف النسمات على موج البحر ، وبساعات القيظ تحت ظلال جوز الهند . وأظهر ما يتجلى لك من خصائص مولدى تلك الرخاوة التى استعصت على الإصلاح فى وقفتى ومشيتى ، فهى تخالف ما للفرنسيات من نشاط وخفة ، وتنم على ما فى نفوس المولودين فى المستعمرات من استرسال مع الطبع ، وجفاء فى الخلق ، وطبيعة صريحة لا تعرف التصنع ولا الرياء

اسم أسرتى التى تعرف به هو : د . . . وأما اسمى الخاص فهو چوليا . ولما حدثت مذبحة البيض فى سان دومينيك فرت أمى وأنا معها رضيعة من وجه الموت فى سفينة من السفن . ولكن قضى الله أن تغرق السفينة وتهلك أمى ، ويلقينى اليَمُّ فى الساحل فتلتقطنى زنجية أرضعتنى ثم ردتنى إلى أبى بعد بضع سنين . وطاردت أبى فى مأمنه عاديات الليالى فساءت حاله ،

واغتُصب ماله ، واعتلت صحته وحكم عليه بالنفى والتشريد . فهاجر بى وبأختى إلى فرنسا ، وكنت يومئـذ فى السادسة من عمرى وأختى تكبرنى قليلا . ثم نزل بنا فى بريتانيا على قوم فقراء من أهله . وما لبث غير قليل حتى أدركته منيته ، فكفلتنى إحدى قريباته وتبنتنى . حتى إذا بلغت اثنى عشر ربيعاً فجعنى فيها الموت فتقدمت إلىّ الحكومة بالرعاية والعون جزاء لأبى على ما قدم من خير فى سبيل الوطن ، فآوتنى فى ملجأ من الملاجىء الفاخرة التى أعدتها لبنات الشهداء الذين بذلوا دماءهم أو لفظوا ذماءهم فى حب فرنسا ، فنشأت فى أحضان النعيم والترف ، ودرجت فى رَبع العفاف والشرف ، تحوطنى الحكومة بالرعاية ، ويخصنى أهل الدار بالعناية ، فنما جسمى وذكا عقلى ، وتفتحت أكمام صباى عن شىء كانوا يسمونه الجمال . ولكنه جمالٌ رزين حزين منقبض ، جمال زهرة من نبات الأقاليم الحارة انشق عنها كِمُّها تحت جو لا تعرفه ولا تألفه فأدركها الذبول عما قليل . على أن هذا الجمال وهذا الذكاء لم يُصبيا قلباً ، ولم يَسْبيا عيناً ، فى غير الملجأ الذى أعيش فيه . فإن رفيقاتى اللاتى جمعتهن بى أواصر المحبة وعطفتهن علىّ عواطف المودة ، ونزلن من قلبى منازل الأهل ، كن يغادرن الملجأ واحدة بعد واحدة . إما إلى أمهاتهن وإما إلى

أزواجهن ، وأنا مقطوعة الصلة لا تدعونى أم ولا يزورنى زائر ، ولا يذكرنى ذاكر ، ولا يتقدم إلى خِطبتى شاب ، لأنى كنت فى البيوت والمنتديات نكرة من النكرات ، لا يتحدث عنى متحدث ولا يسمع بى سامع . فكان الأسى يُرْمض جوانحى ويُقِضُّ نومى كلما رأيت صواحبى يغادرننى تباعاً ، وأيام الأنس بهن تنقضى سراعاً ؛ ورأيتنى متروكة فى وحشة العالم ، مجهولة فى ظلمة الوجود ، يكابد قلبى عذاب الترمل الدائم قبل أن يذوق الحب ويعرف الحبيب !

ولطالما سحّت مدامعى خفية ، وانثنيت بالملام على الزنجية التى التقطتنى فلم تدعنى فريسة للأمواج فى وطنى الأول ، فما كانت أقسى علىّ من الناس فى وطنى الثانى .

وكان رجل نبيه الصوت مرتفع السن يزور المعهد الحين بعد الحين من قِبل الامبراطور ليقف على تقدم التلميذات فى العلوم والفنون التى يتلقينها عن كبار المعلمين فى العاصمة . فكان أولياء المعهد يقدموننى إليه فى كل مرة مثالا حسناً ونموذجاً صحيحاً لما يبذلون من الجهد فى تربية هؤلاء اليتامى . فقرّت صورتى فى ذهن الرجل ، ورأيت منه صَوْرة[1] إلىّ وحدباً على منذ طفولتى ، حتى قال

(١) الصورة : الميل

على مسمع منى غير مرة : إنه شديد الأسف على أن ليس له ابن .

فنى ذات يوم دعيتُ إلى غرفة الرئيسة فوجدت فيها ذلك الشيخ الجليل ينتظرنى . فلما رآنى اعتراه ما اعترانى من الهيبة والرهبة . ثم أخذ يقول : أى بنية ! إن السنين تمر على كل الناس ، فما بقى منها طويل عليك قصير علىّ . وقد سلخت اليوم من عمرك سبعة عشر ربيعاً ، وفى بضعة شهور تبلغين السن التى تخرجين فيها من هذه الدار إلى العالم . ولكن ليس فى العالم من يبسط ذراعيه للقائك ، ويفتح مصراعيه لإيوائك ؛ فأنت عديمة الوطن والأسرة والمال والأهل ؛ والبلادُ التى عرفت الحياة فيها ، ودرجت بين ربوعها ومغانيها ، استولى عليها الزنوج . فحرمانك من الحياة المستقلة الراقية ، أو الحماية المخلصة الواقية ، أزعجنى منذ سنين عليك . فإن ابتغاء الفتاة الرزق من طريق العمل أمر محفوف بالمكاره والمكائد ، والتجاؤها إلى كرم الأصدقاء نزول بالنفس الكبيرة إلى مواطن الضراعة ؛ والجمال البارع الذى حباك به الله ضياء يكشف به عن ظلام الحظ ويدل عليك الرذيلة ، كما يدل الذهب السارقَ على نفسه ببريقه . فبمن تعتصمين اليوم من هذه الأحزان التى تتوعدك ، أو تلك الأخطار التى تترصدك ؟

فأجبته : لا أدرى . وإنى لأعلم منذ طويل أن لا عاصم لى من

حظى المشئوم وقضائى المحتوم إلا الله أو الموت

فعاود الشيخ الكلام وعلى ثغره ابتسامة الحزين الهائب قال : إنى فكرت فى مأمن ثالث ، ولكنى لا أكاد أجرؤ على عرضه . فقلت له : اعرضه ياسيدى ، فإنك منذ طويل تحمل لى فى قلبك وعينك ولسانك حنان الأم ونظر الأب ولهجة الأمين الناصح . وأرى أنى أسمع أبى حين أسمعك ، وأنى أطيعه حين أطيعك وأتبعك . فقال : أتعاملينني معاملة الوالد ؟ ما أسعد من كانت له ابنة مثلك ! وما إخالك تبخلين علىّ بالعفو إذا علمت أنه وقع فى بالى هذا الخاطر ، ولمع فى خيالى هذا الحلم . ولكن اصغى لى ثم ردى على بكل ما فى طبعك من حرية ، وما فى عقلك من روية . لقد بلغت ساحل الحياة وأصبحت هامة اليوم أو غد [1] ؛ وليس فى الدنيا من عَقِبٍ من أخلف له ما حصّلت من سمعة جميلة وثروة قليلة . ولقد قطعت مراحل عمرى وحيداً لا تشغلنى شاغلة عن هذه الأبحاث التى أفنت جسمى وأحيت اسمى ، وأنا اليوم أكاد أرسى إلى شاطئ الحياة ، ويسلمنى الوجود إلى العدم ، وكأنى واحسرتاه لم أعش ، لأنى ما فكرت فى أن أحب . لقد يكون من الفوات أن أرجع أدراجى فى سبيل المجد التى اخترتها إلى

(١) أصبحت هامة اليوم أو غد : كناية عن اقتراب الموت

سبيل السعادة التى تنكبتها ، ولكنى لا أريد أن أترك حياتى دون أن أبقيها بعد مماتى فى ذاكرة بعض الناس بالعاطفة ؛ والعاطفة وحدها هى الخلود الذى أومن به وأعتقده . وما هذه العاطفة إلا قليل من شكر النعمة وعرفان الجميل لا أريده إلا منك ، ولا أغرسه إلا فيك . ولا سبيل إلى ذلك إلا إذا اصطنعت الشجاعة واستطعت أن تقبلى أمام الناس من هذا الشيخ الراحل اسمه ويده وقلبه . إنه يريد أن يكون الزواج جُمعةَ ما بينك وبينه ، حتى يتسنى له أن يقبلك فى داره ، وأن يخصك بإعزازه وإيثاره . أما الأمر فى الواقع فلن يتعدى أن يكون لك أبا وأن تكونى له ابنة . ثم أمسك عن الكلام ونهض للقيام دون أن يقبل فى هذا اليوم على ما قال جواباً . على أن هذا الجواب كان حاضرا على بديهتى ، جارياً على شفتى ، ولا يمكن أن يكون غير القبول . فإن هذا الرجل وحده هو الذى أظهر لى عاطفة تختلف عما كان يظهره سائر الزائرين من النظرات النامة على القِحة ، والسكايات المطوية على الإهانة ، فى ثوب من الإعجاب الجرىء والإطراء البذىء والمدح المبتذل الذى تندى له العذراء الخَفِرَة . أنا ما عرفت الحب ولا أحسسته ، وإنما وجدت فى قلبى فراغا ووحشة لفقد العشير وإعواز النصير وسوء المصير وعدم الأسرة . وخيل إلى أنى أجد

كل ما أفقد من والد تبناني قلبه ، ووسعني حبه ، وبوأني من شرفه وجاهه الملجأ الأمين والحماية القوية من المستقبل الغامض والوجود المريب . إن رأسه قد علاه المشيب ، ولكن سمعته الطيبة تفيض على مخالطيه ومقربيه الشباب والقوة . وإن سنه لتنيف على خمسة أضعاف سني ، ولكن ملامحه الجميلة الجليلة تبعث في النفوس جلال السن خاليا من شوائب الشيخوخة . وإن وجهه ليلوح عليه جمال النبوغ وجمال السماحة . وهما أثران من آثار الكبَر يسترعيان الأعين ويستهويان القلوب ، حتى عيون الأطفال وقلوب الصبية

... ...

في اليوم الذي خرجت فيه من ملجأ اليتامى دخلت منزل الشيخ . ومضى الناس يدعونه زوجا ويأبى هو إلا أن أدعوه أبا . وبذل لي من ذات نفسه واحترامه واهتمامه كل مايستطيع بذله ، وجعلني شمسا وضاءة لهالة من الشيوخ الأجلاء المصطفْينَ الذين ذهب سِمْعهم في الناس بالنبوغ في الآداب والتعمق في الفلسفة والدهاء في السياسة ، ونشروا على القرن الماضي سناء ومجدا ، وملأوا مسامعه ثناء وحمداً ، ونجوا من مقصلة الثورة ورقٌ الامبراطورية ؛ وعقد أسباب المودة بيني وبين نخبة من كرائم

العقيلات اللاتى اشتهرن بين أهل العصر بذكاء الطبع وصفاء القريحة ، وكان يحرضنى هو نفسه على تلك الميول القلبية والفكرية التى تسلى النفس وتُسَرّى الهم وتنوع حياتى الرتيبة[1] . وكان ينظر إلى علائقى بالناس وهو أبعد ما يكون عن سخافة الغيرة وجفاوة الطبع ، ولا يتحرج أن يُعَرّفنى إلى من تروقنى صحبته ويعتنى حديثه من ذوى الجاه والفضل . وكانت نفسه تشرق بالغبطة ، ووجهه يفترّ بالبشر ، كلما رآنى أفضل أحداً من الجماعة وأختصه بالإقبال عليه والتحدث إليه ، ولا يتردد هو أيضاً فى إيثاره وإكباره . لقد كنت روح هذا البيت ومعبوده . وكان إجماع أهله على عبادتى ، وتنافسهم على راحتى وسعادتى ، من الأسباب التى أنامت فى قلبي عواطف الحب ، وسكّنت فى نفسى عواصف الهوى ، لأن مشاعرى وحواسى كانت معمورة بالسرور مغمورة بالملق فلم يبق فيها فضلة ولا بقية لأحد . ناهيك بما كان يبديه إلىّ زوجى من الأبوة الحنون والنفس العطوف ، وإن كان حنانه لا يعدو فى جميع أمره أن يضمنى إلى صدره ، ويمس جبينى بثغره ، بعد أن يرفع عنه خصائل شعرى بيده . لقد كنت ضنينة بسعادتى على الغير فما حاولت لها كمالاً

---

(١) الرتيبة : التى تجرى على وتيرة واحدة (monotone)

ولا زيادة ، واكتفيت أن أحسها دون أن أمسها مخافة أن تفزع فتطير . على أن زوجي طالما نمى عليّ وهو يمازحني زهادتي وعزوفي . وأعلن غير مرة أنه ينعم بنعيمي ويهنأ لهناءتي

وحدث لي مرة أني ظننتني محبة محبوبة . وذلك أن رجلا نابهَ الصيت لنبوغه في العلم ، قوي النفوذ لصلته برئيس الحكومة ، خلابا بما أحرز من المجد والنصر ، جذابا بما بقي بعد شبابه من صباحة الوجه وجمال القسمات ، أظهر لي العطف والمحبة . فهز من عِطفي وحرك من هواي مجاملة وشكراً لا زهواً وكبراً ، وأحببته حيناً من الدهر ، أو بالحرى أحببت الوهم الذي خدعني فيه وغرني منه ؛ وكدت أسلم نفسي لعاطفة ظننتها روحية فاضلة ، فإذا هي بهيمية سافلة . فانقلبت محبته بغضاً ، وعادت سماؤه أرضاً ، وجرى على وجهي عرق الخزي من هذا الخطأ الفاضح والضلال المعيب . ثم استرجعت قلبي واستنقذت حبي ، وضيقت على نفسي الخناق ، وشددت على عواطفي الوثاق ، حتى لا تنصرف عن سعادتي المتشابهة الباردة . ففي الصباح دروس عالية ومطالعات ممتعة في مكتبة زوجي ، وفي الضحى نزه خلوية معه في غابات سان كلو أو مودون ، وفي المساء سمر مع الأصدقاء ، وجلهم علاه الوقار وتوجه المشيب ، يتناقشون في كل شيء بحرية

وصراحة وثقة ، وقلوبهم الباردة السمحة تتحدر إلى شبابى من علاها تحدر الماء الخصِر من قمم الجبال الثلجية

تلك هى حياتى : شباب مطمور فى ثلوج المشيب ، وجو فاتر بأنفاس الشيوخ ، أنقذ روحى من يد الموت ولكنه أنحل جسمى بالسقم ، وملأ فى طبعى بالسأم . آه ! لشد ما تفصل السنون الطويلة بين قلوبهم وقلبى ! وما كان أطيب للنفس وأثلج للصدر لو كان لى بجانب هؤلاء صديقة أو صديق يدفئ خلاطه برودة خواطرى وهى تتجلد فى نفسى كما تتجلد أنداء الصباح على الزهور القريبة من ثلاجات هذه الجبال !

وكان زوجى ينظر إلىّ نظر المحزون ، والأسى يكاد يرهقه كلما رأى صوتى يناله الخفوت ووجهى يمسه الشحوب ، ويتمنى ولو بجَدْع الأنف أن يبعث فى نفسى روحا وقوة ، وفى قلبى حياة وحركة . وكان لا يفتر عن دعوتى إلى كل ما يزيح علىّ ويذهب وحشتى ويبسط انقباضى من مُتَع الحياة وملاهى العيش ، أو يعهد بى إلى من يعرف من صديقات وصواحب . ويضطرنى فى حنان ورأفة إلى الظهور فى الحفلات والمراقص والمسارح . وكانت نضارة شبابى ووضاءة وجهى تبعثان فى قلبى السرور والزهو بما تفيضان على من حولى من النشوة والبهجة

وفى صباح كل ليلة من هذه الليالى الساهرة الزاهرة كان زوجى يدخل علىّ الغرفة ويستنبئنى عما أحدثتُ من آثار واسترعيت من أبصار وهززت من قلوب . ثم يقول لى بلسان رقيق عذب : أنت إذن لم تشعرى بأثر جمالك فى الأعين ، ولا بسحر جلالك فى القلوب ! إن قلبك الشاب وهو فى العشرين من سنه خلق شيخاً فانيًا كقلبي . أوه ! ما أسعدنى أن أراك تصطفين من هؤلاء المغرمين بك ، الحافين من حولك ، شابا سرىّ الخلق نبيل النفس يتمم يوما ما سعادتك بحبه ، ويجعل حياتك هنيئة بقربه ، ويفيض عليك بعد موتى الحنان من عينه وقلبه ! فأجبته إن صداقتك حسبى . وإنى لسعيدة لا يكدر صفو حياتى ألم ، ولا يشغل بالى هم . فقال نعم ، ولكنك تهرمين وأنت صبية ، وأنا أريد أن تعيشى لتغمضى عينىَّ ، وتذرفى دمعة غالية علىّ . فجددى شبابك وأحيى قلبك ودومى مهما كلفك الدوام حتى لا أكابد بُرَحاء فقدك ، ولا أتجرع غصص الحياة من بعدك . ثم دعا الأطباء طبيباً بعد طبيب ، فأعنتونى بتكرار الفحص وكثرة الأسئلة ، ثم اجتمعت كلمتهم على أنى معرضة لتشنج القلب ، وقد بدت أعراض الداء الأولى ، فلا بد لى من هزة عنيفة فى حياتى الهامدة ، وغيبة طويلة عن هذه المعيشة الراكدة ، وتغيير تام للهواء والسماء حتى

يعود إلى طبيعتى الحارة ما فقدته من النشاط والقوة فى ضباب باريس ، فما تردد زوجى فى إيثاره سلامتى وبقائى مع البعد عنه ، على سروره برؤيتى كل يوم بالقرب منه . فاتفقنا على الرحلة ؛ وكان يود لو يرافقنى فيها ، ولكن حال بينه وبين ودادته عوائق السن وتكاليف الوظيفة . فعهد بى إلى أسرة أجنبية كانت راحلة بفتاتين من سنى إلى إيطاليا وسويسرا فَسُحْت معها عامين ، ورأيت هذه الجبال وتلك البحار التى ذكرتنى بمناظر بلادى وأيام صباى ، واستنشيت نسائم هذه الأمواج الفاترة ، وهواء هذه الثلاجات المنعش ، فلم يستطع شىء من ذلك أن يرد علىّ شبابى الذاهب ولا عمرى المفقود . فأرسلنى أطباء جنيف إلى هذا المكان ليجربوا آخر حيلهم ، ويأتوا على كل ما بقى من أملهم . وأمرونى أن أقيم به ما دام لشمس الخريف شعاع . فإذا دنا الشتاء انصرفت عنه إلى زوجى . وقد كنت أرجو أن يرى ابنته بعد عودتها صحيحة الجسم رفافة الإهاب ريانة الشباب قوية الأمل فى المستقبل ، ولكنى وا أسفاه لا أعود إلا لأسود يومه وأطير نومه وأسمم بالحسرات ما بقى من حياته . وربما حُمَّ القضاء فينطفىء سراجى أمام عينيه ، وألفظ نفسى بين ذراعيه . ثم قالت بلهجة المطمئن المحتسب : وسواء علىّ بعد ذلك الحياة والموت ، فإنى أرِد

حياض المنية متى وردتها وعينى قريرة ونفسى راضية . ذلك لأنى حققت الأمل الذى طالما ارتقبته ، ووجدت الأخ الذى رجوته وانتظرته ، ذلك الأخ الذى ملأ أوهامى وأحلامى ، وشغل بالبحث عنه ليالىّ وأيامى ، وقبّح مثاله فى عينى وخياله فى ذهنى كُلّ مخلوق سواه . ثم حجبت عينيها بكف سَبْطة البنان طَفْلَة الأنامل ، فسالت من خلالها عبرة أو عبرتان على خدها الأسجح الجميل ، وقالت : أجل ! إن أحلام ليالىّ الطويلة قد تمثلت فى صورتك هذا الصباح لدى يقظتى . أواه من فوات الوقت وسوء البخت ودنو الأجل ! لقد أصبح متمناى الآن أن أعيش القرون لأطيل شعورى بأثر تلك المحاجر التى جادت علىّ بالبكاء ، وتينك اليدين اللتين عطفتا على بالدعاء ، وتلك النفس التى غمرتنى بالرحمة والرثاء . ثم رفعت طرفها الباكى إلى السماء وقالت : وهذا الصوت الذى دعانى أخته ! وما أحسبه يعود فيسلبنى سعادة هذا اللقب الجميل لا أثناء حياتى ولا بعد مماتى

٢٠

فهوى رأسى على قدميها من فرط السعادة ، والتصق بهما فى لا يحير جواباً ، ولا يستطيع خطاباً . وأقبل الملاحون يعلمو ننا أن

البحيرة قد هدأت ، وأن ما بقى من النهار لا يكاد يبلغ معنا شاطئ سقوا . فنهضنا من مكاننا واتبعناهم بخطى متثاقلة مختلجة كما يترنح النشوان مادت بعطفه الخمر . وأى قلم يستطيع أن يصف الشعور الذى ملكنى حين أحسست جسمها الرخص على ما به من شفوف الألم يثقل علىّ فى لطف ورقة ، كأنما يلذ لها أن تشعر وتشعرنى بأنى أصبحت منذ اليوم قوة ضعفها وثقة نفسها وسند حياتها . ولا أزال أسمع وقد مر على هذه الساعة عشرون حولا صراخ الأوراق الجافة تتكسر تحت أقدامنا ، وأرى ظلينا وقد بلغا مثلينا يصيران ظلاً واحداً رمت به الشمس الغاربة على خضرة البستان ، فكان كالكفن المتنقل مع الشباب والحب ليدرجهما فى ثنايا العدم قبل حلول الأجل . ولا أزال أشعر أيضاً بدفء منكبها على صدرى ، ونوَسان جديلة من جدائل شعرها على وجهى . وما أنس لا أنس محاولتى إمساكها بشفتى ليتسنى لى تقبيلها ! أيها الزمن ! ما أقدرك على أن تدفن فى مثل هذه اللحظة مسرات لها دوام الخلود ، وملذات لها سعة اللانهاية ! ولكن ما أعجزك عن أن تمحو من القلوب آثارها ، وتنسى النفوس تذكارها ! .

٢١

كان وجه البحيرة الليلةَ فى هدوئه ودفئه ، على قدر ما كان البارحة فى اضطرابه وبرده ؛ وكانت الجبال غرقى فى صبغ خفيف من البنفسج تعظم فيه وتبعد كلما طغى عليها فحاها . فما كنت تدرى أهى جبال أم ظلال ضخمة متنقلة لطيفة تتراءى من خلالها سماء إيطاليا الحارة ! وكان رقيع السماء اللازوردية مزدانا بقزعات أرجوانية من الغيم كأنها الريش الدامى نسل من جناح كُرْكِيٍّ مزقته النسور . ولم تعد الأمواج الصدفية المتطاولة تقذف على الصخور غير قطع صغيرة من الزبد ؛ وكان الدخان الساطع من الجواسق العالية يتمزق على جوانب جبل القط ثم يصعد إلى السماء ساحباً ذلاذله هنا وهناك على رَيْده وشعافه ، بينما تجد الشلالات تتحدر فى مدارج السيول كأنها بخار الماء . وكانت صفحة البحيرة شفافة كالزجاجة تتراءى فيها — إذا نظرت — الوجوه والمجاديف ، دافئة لا تشعر إذا أمررت أناملك على وتر الماء إلا بهزة خفيفة لطيفة . وكان يحجبنا عن عيون الملاحين ستار قصير على نحو ما ترى فى قوارب البندقية . وكانت جوليا مضطجعة على مقعد من مقاعد الزورق مرفقها على الوسادة ، وجسمها مدثر بالشيلان اتقاء البرد ،

وقدماها فى معطفى بعد أن طويته مراراً على نفسه ، ووجهها تارة فى الظل وتارة تنعكس عليه أشعة الشمس الغاربة فيتهلل ويشرق . وكنت أنا مضطجعاً على كومة من الشِّبَاك فى أقصى الزورق مفعم القلب أخرس اللسان ، عيناى شاخصتان إلى عينيها لا تكادان تطرفان . وما حاجتنا إلى الكلام ما دامت الشمس والجبال والمساء والسماء والهواء والماء والمجاديف وهزات الزورق اللذيذة وأنظارنا وأنفاسنا وأرواحنا تترجم عنا بأصدق لهجة ، وتشرح عواطفنا بأجلى بيان ؟ لقد كنا نخشى أن تكدر الأصوات صفاء هذا السكون ، وتشوه الكلمات جمال هذا الصمت . وكان يخيل إلينا أننا ننتقل من زرقة الماء إلى زرقة السماء دون أن نرى الساحل الذى تركناه ، ولا الساحل الذى قصدناه . ثم تنفست الصعداء كمن ناء به حمل فادح فرفّه عن نفسه بإلقائه ، فأدركنى شىء من القلق عليها وسألتها : أتتألمين ؟ فقالت : كلا ليس ما بى من ألم . وإنما كنت أفكر . فقلت لها : وفيم تفكرين ؟ قالت كنت أرجو أن الله يصيب الطبيعة كلها بالوقوف فلا تسير ، وبالجمود فلا تتحرك ؛ ويظل قرص الشمس غريقاً إلى نصفه وراء الصنوبر الذاهب فى الفضاء ، وكأنه الأهداب لأجفان السماء ؛ ويستمر هذا المزيج من النور والظلام ضارباً فى عرض الأفق ،

ويدوم ماء البحيرة على صفائه وزرقته ، وهذا الهواء على دفئه ورقته ، ويقف هذا الزورق بين الشاطئين ، وقوف إنسان العين بين الجفنين ، ويبقى هذا الشعاع الأثيرى مشرقاً فوق جبهتك ، وذلك النظر الحنون المشفق منبعثاً من مقلتك ، وهذا السرور الذى يعمر قلبي بعطفك ورحمتك ، إذن لكنت أفهم أكثر مما فهمت منذ سوانى الله إنساناً ، ورزقنى فكراً ووجداناً . فقلت لها بلهجة الخائف القلق : إذن ماذا كنت تفهمين ؟ فصاحت قائلة : كنت أفهم الخلود تستوعبه دقيقة ، واللانهاية تستقصيها إحساسة رقيقة . ثم استلقت على حافة الزورق وتشاغلت بالنظر إلى الماء تريد أن تكفينى ربكة الجواب . ولكنى أجبت بما جرى على شفتى من المجاملة الفارغة والتظرف المبتذل ، لا بما غمر قلبي من العفاف المحض والحب الخالص . وكان حسى الحيوانى لا يرى مثل هذه السعادة كافية ولا وافية ، إلا إذا كانت عِدَة لإنجاز ، أو مقدمة للذة . فلم تَخْفَ عليها دخيلة نفسى ؛ وشَرِق وجهها من الخجل لى أكثر مما شرق من الخجل لنفسها . ثم ارتدت إلىَّ وعلى وجهها طابع الطهارة المهانة ، وقالت بلهجة ملؤها الحنان والتأثر والجلالة لم أعهدها فيما سمعت منها من قبل : لقد أسأت إلىَّ وبالغت ! فادن منى واصغ إلىَّ . أنا لا أدرى إن كان

ما أحسه لك فى قلبى وما تحسه لى فى قلبك هو ما يطلق عليه الناس اسم الحب فى لغتهم الفقيرة المشوشة ، أم هم يطلقون اللفظ الواحد على الأشياء التى لا تتشابه إلا فى جَرْسها على شفة الإنسان ؟ لا أريد أن أعرف هذا ولا أحب أن تعرفه أنت أيضاً . ولكن الشيء الذى يجب أن تعرفه هو أن ما نشعر به من السعادة أسمى وأجل ما يستطيع إنسان أن يتذوقه من نفس إنسان آخر يشبهه وينقصه ويكمله . فهل يوجد إلى جانب هذه السعادة التى لا تقدر ولا تعبر ، وذلك الطموح المشترك والهوى المتبادل الذى جعل من أفكارنا وعواطفنا ونفوسنا وحدة لا تتعدد ، وكُلاًّ لا يتجزأ ، وجمعاً لا يتفرق ، كأشعة هذه الشمس التى تغرب وذلك القمر الذى يلوح حينما يتقابلان فى السماء ، أقول هل يوجد إلى جانب هذه السعادة سعادة أخرى هى لجة شوهاء تبعد عن روحيتها وخلودها بعد الذرة من الفلك والدقيقة من الأبد ؟؟ أنا لا أعرف هذا ولا أود أن أعرفه ولا أستطيع وا أسفاه أن أعرفه . قالت ذلك بلهجة الحزين المشمئز ، ثم أرسلت نفسها على سجيتها واطمأنت إلىّ وأقبلت بأسرها علىّ وقالت : ومالى وللألفاظ ودلالتها ؟ إنى أحبك . وإذا كتمت ذلك نم عليه الوجود وفضحته الطبيعة . وإذا شئت فدعنى أجهر بالقول وأبُحْ بالسر عن لسانى ولسانك

إن كلينا يحب الآخر . فقمت مستطارَ اللب كمن مسه طائف من الجنون ، وأخذت أذهب وأجيء على الزورق الهادئ المرجَحِنّ ، ثم صحت قائلا : قولى ذلك وأعيديه ثم قوليه وأعيديه ألف مرة ، ولنقل ذلك معاً ، لنقله لله وللناس ، لنقله للسماء والأرض ، لنقله للصامت والناطق ، لنقله على طول الأبد ، ولترده الطبيعة كلها معنا ! ثم جثوت أمامها مشبوك اليدين متهدل الشعر مضطرب الحواس شديد التأثر . فوضعت إصبعها على فمى وقالت : خفض عليك جأشك ودعنى أتم كلامى دون مقاطعة . فعدت إلى مكانى ولزمت الصمت وعادت هى تقول : نعم لقد قلت لك ، وما قلت وإنما صرحت من أعماق نفسى حين عرَّفتك أنى أحبك . وأحبك بمقدار ما عانيت من انتظار واصطبار ورجاء مدة ثمان وعشرين سنة من السنين العقم قضيتها فى الفراغ أنظر ولا أرى ، وأبحث ولا أجد ، وأجرى ولا أصل ، إلى من أدركه الوجدان ونم عليه الحلم . ولكن والهف نفسى علىّ ! لقد عرفتك وأحببتك بعد فوات الوقت وذهاب الفرصة إذا كان مذهبك فى الحب كمذهب سائر الناس ، وفهمك للعشق كفهمهم إياه ، وأظنه كذلك ، فإن جملتك الدنسة الرعناء التى ألقيتها على منذ قليل دلت على دخيلة نفسك . فألق بالك إلىّ وتفهم ما أقول لك : إنى لك بجسمى وحسى ،

وقلبي ونفسى ، لا أذودك عن أمر ولا أدافعك عن سر ولا أقصيك عن منال . أقول ذلك دون أن أسيء إلى ذلك الشيخ الكريم الذى تبنانى وأغنانى ، فإنه لم يرد قط إلا أن يكون لى أبًا ، وأن أكون له ابنة . فليس إذن ما يمنعنى أن أعطيك من نفسى ما تحب ، وأمنحك من صلتى ما ترغب ، وألا أمنع منك إلا ما تأمرنى بمنعه . ولا يدهشنك أن تسمع منى ما لم تتعود سماعه من نساء أوروبا ، فإن شعورهن بالحب سواء أكان منهن أم لهن قليل . فهن يخشين إذا أعلنّ عن حقيقته ، وكشفن عن دخيلته ، أن يفقد أثره فى النفوس ، ويخمد شرره فى القلوب . لست من هؤلاء ولا هؤلاء منى ، فلا تصلنى بهن رابطة من وطن ، ولا عاطفة من قلب ، ولا قاعدة من تربية . لقد ربيت فى أحضان زوج فيلسوف ، ونشأت بين جماعة من رجالات الفكر والعقل والعلم والحرية ، لا يعوقهم عن النظر الصحيح والفكر الطليق قيود الدين ولا حدود المجتمع ولا سدود التقليد . فليس عندى ما عندهن من ضلال العقيدة وأفَنِ الرأى وزيغ القلب الذى يطأطئ هامة المرأة العادية أمام محكمة غير محكمة الضمير . إن إلٰهى وإلٰه طفولتهن غير واحد . فأنا أعتقد بإلٰه لا تبصره العيون ، ولا تدركه الظنون ؛ قد نقش على الطبيعة شارته

ووسمه ، وأجرى فى الغرائز شرعه وحُكمه ، وبث فى العقول أدبه وعلمه ؛ فالعقل والعاطفة والضمير هى وحدها فيض إلهامى ، ومصدر شرائعى وأحكامى . وليس فى هذه الثلاثة واحدة تمنعنى من أن أكون لك . ولا أستطيع أن أصد نفسى عن تهافتها عليك ، وترامیها بين يديك ، إذا كنت لا تسعد إلا بهذا الثمن ، ولا تنعم إلا بهذه اللذة . ولكن هل تريد أن تكون الصلة بين سعادتى وسعادتك هى هذه الشهوة العاجلة والنشوة الزائلة ، وهى تُمتِع الوجدان وتسر النفس لو تركناها ، أكثر مما تلذ الجثمان وترضى الحسّ لو قضيناها ؟ ألا تعتقد أن حبنا يكون أمتع وأرفع وأبقى وأنقى ما دام مصوناً فى خدر العفاف نازلاً فى مناحى الخلود حيث لا يتقلب الحدثان ولا يعدو الموت ؟ فإذا تدلى إلى اللذة الحسية الوضيعة ، وتدنى إلى الشهوة الدنسة الحقيرة ، فقد كبرياءه ونماءه وبقاءه ؟ ثم سكتت قليلاً وعادت إلى كلامها تقول وقد شرِق وجهها كأنما دنا من النار فتورد : ومع ذلك إذا بدا لك أن تطلب منى فى ساعة من ساعات الشك ، أو فى سكرة من سكرات الحب ، هذا الدليل على إنكارى لنفسى وإيثارى لك وفنائى فيك فسأبذل لك من نفسى هذا الدليل . ولكن ثق بأنى لا أضحى بكرامتى وحدها ، وإنما أضحى بكرامتى ووجودى ،

وأنك حين تخطف طهارة قلبي ونزاهة حبي تخطف معهما نفسي وحياتي وروحي ، وأنك حين تظن أن سعادتك أصبحت في يديك ، وأن حبيبتك صارت بين ذراعيك ، لا تجد في يديك إلا خيالاً ، ولا تضم بين ذراعيك إلا تمثالاً . ثم سكتت هي وانعقد لساني طويلاً . ثم زفرت زفرة كاد صدري ينشق لها وقلت : لقد فهمتك . وإن يمين التقديس لك والتنزيه لحبك والإخلاص والوفاء لشرفك قد أقسمه قلبي قبل أن تتمي حديثك وتكشفي عن غرضك .

٢٢

كان من أثر إذعاني لإشارتها واستسلامي لإرادتها أن فاض في قلبها السرور وازداد في نفسها جمال الحنان . وكان الليل قد نشر ذوائبه على البحيرة ، ونجوم السماء قد تراءت في صفحة الماء ، وسكون الطبيعة الخاشع قد ألقى على الأرض فتور الكرى ، وخشع صوت الهواء والشجر والموج فاستطعنا أن نسمع العواطف في قلبينا تناجي العواطف ، والأفكار تخاطب الأفكار ، بصوت رخيم خافت . وكان الملاحون ينشدون تلك الأغاني المرجّعة على نغم واحد كأنها توقيع الموج على رمال الساحل ، فذكّرني ذلك

بصوتها ، وكان صداه لا يزال يرن فى أذنى ، فقلت لها : آه ! ليتك تَسمِين هذه الليلة الجميلة بنغمة من أنغامك الحلوة تلقينها فى هذا الموج، وفى هذا الظلام ، فيبقيان على الأبد مشتملين عليك مملوءين منك ! وأشرت إلى الملاحين أن يسكتوا وأن يخففوا صوت المجاديف ، فسكتوا ورفعوا المجاديف وتركوها تُساقط الماء على نغم الغناء كأنها موافقَة موسيقية ذات ألحان فضية . غنت تلك القصيدة الإيقوسية التى تصف عواطف البحارة والرِّعاء معاً . وهى عن لسان فتاة أحبها شاب فقير من البحارة ، ثم عزم الرحلة إلى الهند انتجاعاً للرزق وطلباً للثروة . فلما شط مزاره ، وطال انتظاره ، زوجها أهلها من شيخ كبير . وكادت تعيش بجانبه رافهة سعيدة لولا أن ذكرى حبيبها الأول كانت تنتابها الحين بعد الحين . وهاك مطلع هذه القصيدة :

حينما تهجع الخِرَاف فى الحظيرة ،
ويعقد الكرى الهنىء أهداب العيون ،
أبيت أرعى النجوم وأسامر الهموم ،
وزوجى الشيخ ينام بجانبى ملء الجفون !

وبين مقطوعة وأخرى سَبْحة طويلة فى الخيال تغنيها بلحن مبهم من غير كلام ، فتهدهد النفس على أمواج الحزن ، وتبعث فى

مآقى العيون مدامع الصوت . ثم ترجع إلى سياق الحكاية فى المقطوعة الثانية بنغمة مبهمة صماء نائية ، تعبر عن الذكرى الأسيفة الأليمة المستسلمة . فإذا كان فى أبيات سافو اليونانية نار الحب ، فإن فى هذه الأبيات الإيقوسية دموع الحياة ودم القلب الجريح أصماه سهم القدر . أنا لا أعرف مؤلف هذه القطعة الموسيقية ، ولكنى أدعو الله أن يجود بالرحمة ثراه ، وأن يغمر بالبركة روحه ، لأنه وُفق إلى أن يضمن هذه الأبيات القصيرة ما شاء له الفن من الحزن الإنسانى العميق ، فى أنّات هذا الصوت الرخيم الرقيق . وترانى منذ هذا اليوم لا أكاد أسمع مطلع هذا اللحن حتى أفر فرار الرجل يطارده شبح . وإذا دعتنى الحاجة إلى عبرة من عينى أفتح بها قلبي غنيت مطلع هذا اللحن الباكى فى نفسى فترقرق فى مآقىّ الدموع وأنا امرؤ جامد العين لا أعرف البكاء !

٢٣

بلغنا ميناء بِرْتُويس وهو مرفأ صغير داخل البحيرة ترسى به السفن القادمة إلى مدينة إكس على مسيرة ميلين منها . وكنا فى موهن من الليل ، فلم نجد هناك مركبة ولا مطية تبلغ الفتاة عليها المدينة ، والشُقة بعيدة لا تقوى المريضة على قطعها راجلة .

فطرقنا كوخين أو ثلاثة من أكواخ الساحل ننشد فيها ما نريد فلم نجد. فلما استيأسنا من وجود ما نركب اقترح الملاحون أن يحملوا السيدة إلى إكس، وعمدوا إلى مجاديفهم فسلّوها من حلقاتها وشدوا بعضها إلى بعض بالحبال. ثم وضعوا عليها وسادة من وسائد الزورق فتم لهم بذلك مَحَفّة وثيرة لينة ضجعوا فيها الفتاة. وتقدم منهم أربعة فحملوا المجاديف كل واحد من طرف، وساروا بها في وِناء ورفق لا يميلونها ولا يهزونها إلا ما اقتضته طبيعة المشي من اختلاج وحركة. وكنت أريد أن أقاسمهم مسرة حملها فآخذ بنصيب من هذا الحمل الخفيف على الجسم والروح، ولكنهم ضنوا به عليّ وأبَوْه في شيء من الغيرة والأثرة. فمشيت بجانب المحفة وجعلت يمناي في يديها لتعتمد عليها حين يميل بها الهودج، ولتتقي بها الانزلاق من فوق الوسادة الصغيرة التي استلقت عليها. وسرنا على هذه الحال في طريق لاحب تكتنفه أدواح الحور ويضيئه لألاء البدر لا تكلمني ولا أكلمها، ولكنني كنت أشعر بثقل جسمها على ذراعي، وبيديها الباردتين تقبضان على يدي، وبشفتها الحارة تمر حيناً فحيناً على أصابعي، وبتيار من العطف والحنان يتدفق بين أضالعي، فكان الصمت في هذا المقام أبلغ من فصيح الكلام، وأدل على ما خامر قلبينا من اطمئنان

وثقة . ولما بلغنا منزل الطبيب الشيخ وأنزلنا المريضة أمام غرفتها أحسست كأن عالما بأسره انقض بيننا ، وشعرت أن يدى قد ابتلت من دموعها ، فمسحتها بثغرى ، وجففتها فى شعرى ، وذهبت فارتميت على سريرى دون أن أخلع ثيابى ، أو أغلق علىّ بابى

٢٤

بت أتقلب على الوساد وأتململ على الفراش ، أخادع الكرى وأجاهد الأرق ، فما خَدَعَتْ فى عينى سِنَةٌ ، ولا نعمت مقلتى بغمض . ذلك لأن المشاهد والحوادث التى مرت على عينى فى هذين اليومين تمثلت فى خاطرى وترددت فى فكرى واضحة الصور قوية الأثر ، حتى شق علىّ الاعتقاد بأنها مضت وانقضت . فسرَت عَدْوى الحمى التى تلهب نفسى ، إلى أعصابى وحسى ، فقمت ونمت عشرين مرة لعلى أجد هدوءاً من القلق ودواء من الأرق فما رجعت بطائل . فتركت السرير وحاولت أن أذهب اضطراب خطراتى باضطراب خطواتى ، ثم فتحت الشباك وأخذت أتصفح بعض الكتب فما فهمت شيئاً . فقمت أنقل المنضدة والكرسى من مكان إلى مكان عسى أن أجد محلا صالحاً أقضى فيه بقية الليل قائما أو قاعداً . وكانت كل هذه

الحركات مسموعة فى الغرفة المجاورة فأزعجت المريضة المسكينة ، وما أشك فى أنها مثلى لم تذق للنوم طعماً . ولم تمض ثوان معدودة حتى سمعت وقع أقدامها على أرض الردهة ، وشعرت أنها تقترب من الباب المغلق الذى يفصل بين ردهتها وغرفتى . فألصقت أذنى بألواح الباب وأنصت فإذا بى أسمع أنفاسها المحتبسة وخشخشة ثوبها الحريرى على الحائط ، وأرى ضوء مصباحها يتحلب من خصاص الباب ومن تحته إلى أرض غرفتى . وقد كانت هى أيضاً تتسمع إلىّ ، وتريد أن تخفف من قلقها علىّ ، فسمعت منى ما سمعت منها . فسألتنى بصوت خافت : « هل أنت مريض ؟ » فأجبتها ليس مابى من مرض ولا ألم ، وإنما هو السرور زاد علىّ وفاض منى . وشدة الفرح كشدة الترح تحم الجسم وتهز العصب . على أنها حمى الحياة فلا أخشاها ، وما جفوت الرقاد إلا لأتمتع بها وأنعم . فقالت لى : اذهب أيها الطفل فنم . وعلىّ الآن أن أسهر عليك وأكلاك . نوبة بنوبة . فقلت لها : وأنت لماذا لا تنامين ؟ فقالت : لا أريد أن أنام حتى لا أفقد لحظة من الشعور بهذه السعادة التى تغمر مشاعرى وتغمُر قلبى . إن سعادتى بك أوسع من أجَلى ، وإن القليل الباقى منه لا يكفى للتمتع بنعيمها كما أشتهى . فهل تعجب إذا بخلت بهذا القليل على النسيان والنوم ؟ لقد جلست

فى هذا المكان رجاة أن أسمعك ، أو أشعر على الأقل أنى معك . فقلت لها مغمغماً : إذن فلمَ يكون ذلك من بُعد ؟ ولمَ يفصلُ بيننا هذا الحائط الغليظ ؟ فقالت : أتظن أن لا فاصل بيننا غير هـذا الباب فلا إرادة ولا عهد ؟ إذا كنت تعتقد ألا يحجزك عنى إلا هذا الحاجز المادى فإن من السهل عليك أن تجوزه . ثم سمعتها تنزع رتاج الباب وهى تقول : أجل ، تستطيع الآن اجتيازه إذا لم يكن فى نفسك ما هو أقوى من الحب فيكسر من حدته ، ويكفكف من شرته . لا أريد أن أكون مدينة إلا لك ، ولا محمية منك إلا بك ، وستجد حباً يعدل حبك ، وقلباً يجاوب قلبك ، ولكنى قلت لك من قبل إنك ستجد أيضاً فى هذا الحب موتى . فلم أحتمل شدة انفعالى من هذا القول ، ولا قوة اندفاعى إلى هذا الصوت ، ولا مقاومة هذا الاندفاع بالوازع الخلقى العنيف ، فسقطت أمام الباب المغلق منسرق القوى سقوط الرَّمِىّ أقصدَ قلبَه سهم مُرَاش . ثم سمعتها هى أيضاً فى الجهة الأخرى قد طرحت وسادة على الأرض ثم جلست عليها . وقضينا على تلك الحال هزيعاً من الليل نتساقط الحديث بصوت خافت من خلال الفُرجة المتروكة بين أرض الغرفة وأسفل الباب . حديث من أحاديث القلوب ونجوى الأنفس ، لا تعرفه الألسن ولا تترجمه

اللغات ، طائف طواف الأحلام بين السماء والأرض ، يتخلله كثير من السكتات الطويلة تتبادل فيها القلوب معانى لا تعبر عنها الألفاظ ولا الألحاظ ولا يجرى مثالها على الشفاه . ثم صارت السكتات أطول ، والأصوات أخفت ، وتحلل بى التعب فغلبنى النعاس وخَدِّى إلى الحائط ، ويداى مشبوكتان على ركبتى .

٢٥

صحوت من نومى وقد ارتفع الضحى وتلألأت الغزالة فى صدر الأفق ، وانتشر ضوؤها الوهاج فى أرض الغرفة . وأخذت عصافير الخريف الدُّورية تبحث فى عساليج الكرم وفروع الكشمش بأرجلها ومناقيرها وهى تزقزق تحت نافذتى . وكأن الطبيعة سبقتنى إلى التنبه والانتعاش فأخذت زخرفها وازَّينت احتفالاً بيوم مولدنا فى هذه الحياة الجديدة . وكأن ما فى البيت من ناطق وصامت كان مثلى تلوح عليه البهجة وتحركه نشوة الطرب . وما كنت أسمع إلا خطى القهرمانة فى الدهليز ذاهبة آيبة تحمل الفطور إلى سيدتها ، وإلا أصواتَ البنات عائدات بالزهور من رُبى الوادى وخمائل الجبل ، ودبدبةَ البغال ورنين أجراسها فى الفناء تنتظر الفتاة لتحملها إلى البحيرة أو إلى

أيكة الحور . فبدلت ثيابى وقد اتسخت من الغبار والزبَد ، وغسلت عينىَّ وقد مَرِهتا من السهاد والأرق ، وسرحت شعرى الأسود ، ولبست دُزْلكا من الجلد يلبسه صيادو الوعول فى الألْب. ثم تقلدت بندقيتى ونزلت إلى المائدة العامة أفطر مع أسرة الطبيب وضيوفه . وكان حديث المائدة يجرى عن العاصفة التى هبت بالأمس على البحيرة ، وعن الخطر الذى حاق بالفتاة المريضة ، وعن غشيتها فى الدير وغيبتها مدة يومين ، وعن السعادة التى كتبها الله لى فى إسعافها والعودة بها . فرجوت من الطبيب أن يذهب إليها يستفهمها عن صحتها ، ويسألها لى الإذن فى صحبتها . فصعد إليها ثم نزل بها وهى من غبطتها وجذَلها أبهى جمالاً وأقوى حياة وأشد روعة . فرنت إليها العيون وصغت إليها القلوب ولكن نظراتها لم تتجه إلا إلىَّ . وما كان فى القوم أحد غيرى يستطيع أن يفهم مرمى هذه النظرات ، ولا أن يدرك مغزى هذه الكلمات . وتقدم أدلّاؤها وهم يطفرون من الفرح فأركبوها بغلا على سرج وثير موطأ ، وصعدوا بها وأنا أسايرها ماشياً على قدمى إلى الجواسق القائمة على سنَد الجبل ؛ فقضينا النهار كله وما كدنا نتكلم ، لأن كلاً منا كان يفهم الآخر دون إشارة ولا عبارة . كنا تارة نرسل الطرف والفكر فى مشاهد هذا الوادى

٩١

الزاهى الجميل فنراه يغور ويتسع كلما صعّدنا فيه وترددنا فى نواحيه ، وتارة نقف على شُطئان الشلالات فيكتنفنا من دخانها الملون بضوء الشمس قوس سحاب متموج يكون لحبنا إطاراً وهالة ، وطوراً نقطف أواخر ما بقى من الورود فى المروج الزاهرة على الآكام الحادرة ، ثم نتبادلها رسائل مؤلفة من حروف عطرتها الطبيعة وصاغتها يد الله ، وطوراً نلتقط الكستناء المتروك تحت أشجاره لنشويه على نار مدفأتها فى الليل ، وطوراً نجاس معاً تحت الجواسق التى ترحّل عنها ساكنوها ثم نقول فى أنفسنا : ما أسعد عاشقين تنفيهما صروف القدر إلى هذه المساكن المقفرة المتخذة من جذوع الشجر وألواح الخشب فى مواقع الغيوم ومطالع النجوم على مسمع من رفيف الرياح فى التَّنُّوب ، وصرير البرد فى الثلاجات ! ولكنهما يعيشان فى عزلة عن الناس لا تمتلئ حياتهما إلا بهما ، ولا يشعران إلا بنفسيهما وحبهما .

٢٦

أمسى المساء فهبطنا الوادى بخطى متثاقلة ، وأعضاء متزايلة ، نتبادل النظر الحزين الآسف كأننا خلفنا وراءنا ضحكات قلوبنا ومُتَع حياتنا لغير رجعة . فصعدت هى إلى مسكنها وبقيت أنا

للعشاء مع الأضياف والأسرة . فلما فرغنا من الطعام صعدت إليها واستأذنت عليها كما اتفقنا من قبل . فاستقبلتنى استقبال الرجل لصديق طفولته لقيه بعد طول النوى وبُعد المزار . ثم جعلنا ذلك برنامجاً لحياتنا فى كل نهار وفى كل ليلة : نقطع اليوم فى الأدغال والجبال ، أو تحت الشجر أو فوق الماء ، ثم نقضى الليل فى غرفتها بالحديث والسمر . وكنت أكثر ما أراها حين أدخل عليها مضطجعة فوق كنبة مغطاة بطِهارة بيضاء من التُّل موضوعة فى ركن بين الشباك والمدفأة . وعلى متناول يدها منضدة من الخشب الأسمر فوقها مصباح من النحاس الأصفر ، وطائفة من الكتب وبعض من الرسائل تلقتها أو كتبتها أثناء النهار ، وعلبة شاى صغيرة من شجر الأكاغو أهدتها إلىّ وهى مسافرة فظلت على مدفأتى لا تفارقها منذ ذلك اليوم ، وقدَحان صينيان أحدهما أزرق والآخر وردى كنا نشرب فيهما الشاى منتصف الليل . وكان الطبيب الكريم قد تعود أن يصعد إلى غرفتها فيسمر معها . ولكن مجلسه ما كان يطول أكثر من نصف ساعة ثم يتركنا إلى مطالعتنا ومحادثتنا ، لأنه أدرك أن لوجودى معها من الأثر الحسن فى صحتها العزيزة على كل نفس ما ليس لحماماته وطبه . فإذا انتصف الليل ناولتنى يدها من فوق المنضدة فأقبلها ثم آوى إلى مخدعى وأبيت

ساهراً لا يغمض لى جفن ولا ترقد فىّ عاطفة ، حتى ينقطع من غرفتها الصوت وتخمد الحركة .

٢٧

نعمنا بهذه الحياة الخالصة الممتعة خمسة أسابيع كانت طويلة وقصيرة ؛ فهى طويلة إذا تذكرت ماعدَّ قلبانا من خفقات السعادة ونبضات النعيم ، وقصيرة إذا فكرت فى رقة أوقاتها وسرعة ساعاتها التى مرت مرور الحلم . وكأن عناية الله شاءت أن تبارك هذا الزمن وأن تطيل فيه فجعلت من صفاء الفصل واعتدال الجو مدداً لصفائنا وزيادة فى غبطتنا ، وذلك مالا يقع إلا مرة فى كل عشر سنين . فشهر أكتوبر كله ونصف نوفمبر كانا أشبه بالربيع انبعث فى الشتاء فقام من القبر ناسياً حلله من ورق وزهر . فالنسائم عليلة دافئة ، والأمواه زرقاء صافية ، والأشجار خضراء مورقة ، والغيوم رقيقة وردية ، والسماء وهاجة ساطعة . اللهم إلا الأنهار فقد كانت قصيرة . ولكن الأمساء الطويلة التى قضيناها بجانب مدفأتها كانت أعودَ علينا فى توثيق الصلة وتمكين المحبة . وقد جعلت ليالى نوفمبر الطويلة المظلمة وجود كل منا بارزاً فى نفس أخيه ، ومنعت عيوننا وقلوبنا من أن تَشِيع فى الطبيعة وتتبدد فى

سناها ، فحصرتنا فى أنفسنا ، وقوت ما فى أبصارنا وبصائرنا من ضياء وبهجة ، وألقت فى روعنا أن طلائع الزوابع التى بدأت تسفع زجاج النوافذ ، ورياح الخريف التى تئن وتبكى على خدود الروض ، تدفع فى صدورنا وتهيب بنا قائلة : « قولا لنفسيكما على عجل ما لم تقولاه ، وما يجب أن تقولاه ، قبل أن يموت الرجـل والمرأة ، فإنى نذير الأيام السود التى تدنو منكما ، ولابد أن تفرق بينكما ! »

٢٨

زرت أنا وهى على التعاقب جميع الخلجان والوديان والكروم وأسياف البحيرة وقُنَن الجبال وكثبان الرمال والمخارم الضيقة والغِيران الموحشة والشلالات الهادرة فى صدوع الصخور من سقوا ، فوجدنا أكثر ما يبتغى العاشقون من أمكنة أنيقة ، وقفار رهيبة ، ومنازل عجيبة ، تراها معلقة على رَيْد الجبل بين المهاوى وبين السحاب ، وبساتين فيحاء ناضرة ، وجداول من غير المـاء على المروج الحادرة ، وأيائك من شجر التنوب والقسطل تمتد فى خطين متوازيين ينعقد منهما رواق ظليل يضل فيـه البصر وتتجاوب تحت قبابه الأصداء .

تركنا فى كل بقعة من هذه البقاع نفَساً من أنفاسنا ، وزفرة

من حماستنا ، وصلاة من صلواتنا ، ورجونا منها فى السر والعلن أن تحتفظ بذكرى هذه الساعة التى قضيناها معاً ، وتلك الأفكار التى ألهمتنا إياها ، والنسمات التى أنشقتنا أرَجها ورياها ، والنُّطَف العِذاب التى رشفناها من راحنا ، والأوراق والأزهار التى قطفناها بأناملنا ، والآثار التى طبعناها على العشب الندىّ بأقدامنا . ثم رجونا من هذه البقاع أن تحتفظ بكل ذلك لترده إلينا فى يوم من الأيام كاملاً غير منقوص ولا مثلوم حتى لا نفقد شيئاً من الهناء الذى فاض من قلوبنا وطفح من عيوننا ، وحتى نجد ما أودعناه من اللحظات والسكرات والانفعالات فى حرز الخلود المكين ومستودعه الأمين حيث يبقى كل شىء ويسلم كل أثر ، حتى النسمة التى لفظتَها ، والدقيقة التى تظن أنك أضعتَها .

أبداً لم ترتفع من هذه البحيرة وهذه السيول وتلك الصخور منذ خلقها الله ما ارتفع منها الآن إلى الخالق المبدع من صلاة وتحميد وتسبيح وتمجيد . فقد كان فى أنفسنا فضلٌ من الحياة والحب أفضناه على ما حولنا من ماء وسماء وأرض وصخر وشجر فانتعش بعد خموده ، وتحرك بعد جموده ، فترددت الأنفاس ، وتجاوبت الأصداء ، وسطعت الأضواء ، وانتشرت العطور . وكأن الله قد خلق من أجلنا هذا الكون ، ودحا لنا هذه الأرض ،

فنحن نستطيع أن نعمرها ونمنحها الصوت والكلام والحب والسلام على مدى الآباد . والعجب أن الناس يزعمون بعد ذلك أن النفس البشرية محدودة متناهية ! فمن من الناس شعر بحدود حياته ونهاية وجوده وانحصار حبه أمام المرأة المعشوقة والطبيعة الموموقة والإله الحق؟ أيها الحب! لشد ما يرهبك الجبناء ويجحدك الأشرار ! إنك لكاهن هذا الوجود ، ومذيع سر الخلود !

٢٩

كانت هذه الأسابيع الستة طَهوراً لنفسى مما نالها من وضر الحياة ورجس الشبيبة . وكان الحب فى قلبي شعلة من نار ألهبت حسى ولذعت حشاى ، ولكنها أضاءت نفسى وأنارت فى الطبيعة والعالم والسماء ، ففهمت ضؤولة هذا الكون حين رأيته يصغر ويحقر ويفنى أمام شرارة واحدة من الحياة الحقيقية . وخجلت من نفسى حينما وازنت بين ما كنت عليه من دعارة وخفة ، وبين ما كانت عليه حبيبتى من طهارة وعفة . وسبحت فى عالم الأرواح حين غضت بعينى وقلبي فى هذا البحر المسجور من الجمال والحساسة والنقاء والحب ، تتكشف عنه الحجب أمام بصرى ساعة فساعة فأراه فى عينى هذه المخلوقة وصوتها وحديثها . . كم مرة جثوت

أمامها وسجدت سجود العابد الخاشع المبتهل ! وكم مرة رجوت منها أن تغسلنى بعبرة من عبراتها ، وتحرقنى بزفرة من زفراتها ، وتنعشنى بنفحة من نفحاتها ، حتى لا يبقى من نفسى فى نفسى غير الماء الطاهر الذى غسلنى ، واللهب المقدس الذى صهرنى ، والنفس الجديد الذى أنعشنى ، فأتحول إليها وتتحول إلى ، حتى لا يستطيع الله نفسه إذا ما وقفنا بين يديه أن يفصل ما مزج الحب وأحالته معجزة الهوى .

آه ! ليت من كان له ابن أو أخ أو صديق لم يعرف الخير ولم يفهم الفضيلة ، يدعو له الله أن يلقى عليه مثل هذا الحب ، فإنه إذا شعر به أصبح خليقاً بكل إخلاص ، حقيقاً بكل بطولة ، جديراً بأن يرتفع إلى مستوى هذا المثل الأعلى لحبه . وإذا ما انطفأت جذوة هذا الحب فى قلبه بقى فى نفسه ، ما بقيت حياته ، أثارةٌ من لذة هذا الحب القدسى تجعله يعاف مياه الرذيلة ، ويطمح ببصره إلى المنبع الذى استقى منه مرة .

أجل ! لا أستطيع أن أعبر لك عما ينالنى من الخجل فى حضرة هذه الحبيبة . على أن عتابها كان رقيقاً ، ونظرها كان رفيقاً ، وعفوها كان سامياً ، يبعث فى النفس الخشوع والرهبة ، ولكنه علاؤها علاء وعظمة .

لقد كنت لا أفتُر عن موازنتها بمن أعرف من النساء فلم أجد منهن من يدانيها فى فضل أو يقاربها فى ميزة ، اللهم إلا أنطونين ، فقد كانت تشابهها فى سذاجتها وطفولتها ؛ وإلا أمى ، فقد كانت تشاكلها فى طهارتها وكهولتها . إن نظراتها وكلماتها لتاوءنى العمق والاتساع ورقة الحاشية ونبل العاطفة وشرف الهوى ، وتنقلنى إلى بقاع مجهولة أتنسم فيها لأول مرة روائح حياتى الأولى ، ومنبت أفكارى الخاصة . ولقد شعرت بأن ما وصمتنى به الحداثة من نزق وصلف وجفاء وسخف قد زال منى أثره حتى لم أعد أعرف نفسى . ولما تركتها كنت على خير ما يكون عليه امرؤ من البر والنقاء . نهجَت لى سبيل الوقار والحمية ، وأحيت فى نفسى موات الصلاة والورع ، وعرّفتنى الدموع الحارة التى لا تذرفها العيون ولا تعرفها الجفون ، وإنما تنبجس من ينبوع مخبوء تحت اليبوسة الظاهرة ، فتغسل القلب دون أن تحله وتذيبه ؛ وعاهدت الله ألا أهبط من سماء الشرف التى صعدت إليها بفضل ملامها وكلامها والاقتراب منها .

لقد كان تأثيرها فى نفسى صادراً عن عاملين لا أدرى أيهما أقوى من الآخر : عامل الشفقة وعامل الجاذبية ؛ فكان الهوى والعبادة يمتزجان فيها بمقدار واحد ، ويتحولان فى الدقيقة الواحدة

ألف مرة من الحب إلى الدين ، ومن الدين إلى الحب . أليس ذلك منتهى ما يسمو إليه العشق ؟ : استغراق مطلق فى جمال رائع ، ولذة قوية فى عبادة سامية . كل ما كانت تقوله كان فى رأيى خالداً ، وكل ما كانت تراه كان فى نظرى مقدساً ؛ وكنت أغبط الأرض لأنها تحملها ، والنور لأنه يغمرها ، ولا أنظر ولا أشعر ولا أعبد إلا من خلال حبها المقدس . فإذا مضت الحياة على مثل هذه الحال النفسية سكنت الطبيعة عن الحركة ، ووقف الدم عن الدوران ، وذهل القلب عن الخفقان ، فلا تعرف حواسنا حركة ولا عجلة ولا نصباً ولا حياة ولا موتاً ، ولا يكون بين شخصينا إلا اتحاد دائم وامتزاج مطلق وفناء حتى كفناء النفوس فى الله وهى حية موجودة !

٣٠

ما أسعد قلبي وأثلج صدرى ! إن الشهوة الحيوانية الدنيئة انطفأت جذوتها « كما شاءت هى » فى حسى ، باستيلائى على نفسها واستيلائها على نفسى ، فعدت أتقى وأنقى مما كنت . ودأب السعادة أن تبل القلوب بالخير فيخلص جوهرها ويصفو عنصرها .

اتحد الله وهى فى نفسى اتحاداً تاما فانقلبت عبادتى لها عبادة

داعة لله الذى خلقها فى أحسن تقويم، وأدقها فى أجمل صورة وأنبل فطرة . ولم أعد غير دعاء متصل لا يذكر فيه اسمان ، لأن الله كان إياها ولأنها كانت إياه . وكنا إذا وقف بنا المسير أثناء النهار على سفح الجبل أو شاطئ البحيرة أو فوق جذوع القسطل أو عند أوشعة المروج لنرفه عن النفس أو لنجتلى بعض المشاهد ، يترامى بنا الحديث إلى مهبط الأسرار ومسرح الأفكار أعنى اللانهاية والكلمة التى تملأها وهى (الله) ، فأعجب العجب كله إذا ما رأيتها حين أذكر الله بلسان ضارع وصوت خاشع وقلب خفوق تنكس البصر ، أو تحول الحديث ، أو تخفى بين أسرار جبينها أو على مضاحك فمها ، مضًّا من الألم أو أثراً من الأفكار ، لا يلتئم مع ما نحن فيه من فوران النفس وثوران العواطف . فسألتها ذات يوم ولسانى يكاد يعقله الحياء عن سبب ذلك . فقالت : إن اسم الله يؤلمنى . فقلت لها : وكيف تؤلمك هذه الكلمة التى تضمنت سر الحياة ومعنى الحب ومغزى الخير وأنت أكمل مخلوقة صاغتها يده ؟ ! فقالت بلهجة اليائس الآسف : ذلك لأن هذه الكلمة كانت تدل فى اعتقادى على الكائن الذى وجب وجوده وإن استحال شهوده ، وثبتت حقيقته وإن خفيت ماهيته ، فأصبحت الآن فى رأيى ورأى الحكماء الذين ثقفونى بدروسهم ، وهذبونى

بنفوسهم ، من أعاجيب الأحلام وتُرَّهات الأوهام وضلالات العقول . فقلت لها : وكيف ؟ أمعلموك لا يؤمنون بالله ؟ وإذا لم يؤمنوا به فكيف لا تؤمنين وأنت تحبين ؟ ألا تجدين فى كل نبضة من نبضات قلوبنا اعترافاً بالله وإعلاناً عن وجوده ؟ فبادرت إلى الجواب قائلة : « لا تفسر بهذا الضلال حكمة أولئك الأعلام الذين أماطوا لى عن وجه الحكمة ، وأناروا لى طريق العقل والعلم بغير ذلك المصباح الوهمى الخافت الذى يضىء به المشعوذون والمخرفون ذلك الظلام الذى ضربوه عمداً حول عقائدهم ومعابدهم. إنى أكفر برب أمك ورب حاضنتى ، أما رب الطبيعة وإله الحكماء فإنى به مؤمنة وله قانتة . إنى أومن أنا وهم بموجود هو الأصل والغاية ، وهو المبدأ والنهاية لكل موجود عداه ، أو هو الأبد والطبيعة ، والصورة والشريعة ، لهذه الكائنات الظاهرة والخفية ، الذكية والغبية ، الجامدة والحية ، التى يتركب منها الاسم الحقيقى لكائن الكائنات وهو اللانهاية . أما فكرة العظمة التى لا تحد ، والقضاء الذى لا يرد ، والضرورة المطلقة النافذة ، لهذا الكائن الذى تدعونه الله وندعوه نحن القانون ، فهى تصدنا عن الفهم العميق والوصف الدقيق والإدراك الصادق والرأى المستقل والخيال الملهم والاتصال الممكن بهذا الموجود ، حتى عن الحمد

والصلاة ، فإن الغاية لا تعبد الأصل ولا تصلى له .

واحر قلباه ! لشَدَّ ماسكبت بين يديه من التحيات والدعوات والعبرات منذ أحببتك ! إنى أدهشك وأولمك ؛ ولكنْ عفوكَ ! أليست فضيلة الصدق رأس الفضائل إذا كان هناك فضائل ؟ إنا لا نستطيع أن نتفق على هذا الموضوع فلنُمسك عن الجدل فيه . لقد نشأتَ فى حِجر أم تقية ، ودرجت من أسرة مسيحية ، فرضعت التُّقى مع اللبن ، ونشقت الإيمان مع الهواء ؛ ثم جروكَ من يدكَ إلى المعابد ، وأروكَ الصور والأسرار والهياكل ، وعلموكَ الصلوات وقالوا لك إن الله يراكَ ويسمعك ويستجيب لك ، فصدقت وآمنت لأنك لم تبلغ بعدئذ سن التمييز والبحث والحكم ، فلما بلغتها نقيت اعتقادكَ من عبث الطفولة ، وتصورت إلهاً آخر غير ما صورته النساء ومثلته الكنيسة ؛ ولكن البهر الأول لا يزال ماشياً على عينك ، والنور الذى ظننت أنك تراه كان مشوباً على غير علمك بنور الحداثة الكاذب الذى بهر بصركَ وسحر بصيرتك فبقى فى نفسك ورأيك أثران من هذا العهد الغرير والعقل الصغير هما أسرار الدين والصلاة . ليس فى الدين أسرار ولا متشابهات ، وإنما فيه العقل الذى يبدد كل سر ويكشف كل غامض ويجلو كل شبهة . إن هذه الأسرار من اختراع الرجل الماكر الشديد

التلفيق ، أو الساذج السريع التصديق . أما العقل فهو من نور الله وصنعه . كذلك ليس فى الدين صلاة ، لأن الصلاة التماس تغيير ورجاء تحوير ، وليس فى القوانين الصلبة مايلين ، ولا فى الضرورية منها مايتغير . وقد عرف القدماء على جهالتهم هـذه الحقيقة فصلوا لجميع ما خلقوا من الآلهة إلا رمز القدر فلم يرفعوا إليه صلاة ، ولم يطلبوا منه دعاء ، لأنه القانون الذى لايخرق ، والقضاء الذى لا يرد ، والقول الذى لايبدّل » . ثم أمسكت عن الكلام وأمسكت أنا عن الرد فترة طويلة . ثم قلت لها :

« يظهر أن الأساتذة الذين علموك هذه العقيدة وألهموك هذا الرأى غلّبوا جانب العقل على جانب الشعور فى نظرية العلاقة بين الإنسان والله ، فنسوا القلب فى الإنسان وهو منبع الحب كما أن الذكاء منبع الفكر . إن مايتصوره الإنسان فى الله قد يكون سخفاً وخطَلا ، ولكن غرائزه وهى قانونه الموروث لايجوز أن يَعتَورها الخطأ والكذب ، وإلا كانت الطبيعة التى كونتها كاذبة وأنت لا تُجَوِّزين الكذب على الطبيعة ، فقد قلت منذ قليل إن الصدق ربما كان الفضيلة الوحيدة . فسواء إذن أكانت حكمة الله فى وضع هاتين الغريزتين — غريزة السر والخفاء ، وغريزة الصلاة والدعاء — فى قلب المرء أن يعلن إليه بذلك أنه غير معلوم

ولا مفهوم ، وأن الخفاء هو أصح أسمائه وأدل نعوته ، أم يريد أن جميع خلقه يسبحون بحمده ويلهجون بذكره ، وأن الصلاة هى ثناء الطبيعة العام ونشيدها الجامع ، فإن الإنسان إذا ما ذكر الله دفعته غريزته إلى دعائه ، واعتقاد سره وخفائه . أما الخفاء فعمل العقل أن يبسطه ويجلوه ، دون أن يبدده ويمحوه ؛ وأما الدعاء فهو أريج القلب كما أن العطر أريج الزهر ، فمن طبعه ألا يفتر عن إعلانه بين يدى الله سواء أنفع أم لم ينفع ، وسمع أم لم يسمع ؛ وسواء أوقع هـذا العطر على أقدام الله أم وقع على الأرض . ولكن من يدرى ؟ ربما كانت الصلاة وهى الصلة الخفية بيننا وبين الله القادر الذى لا تدركه العيون ولا تناله الظنون أعظم قوى الإنسان الطبيعية والروحية ؛ أو ربمـا قضت مشيئة الله عز اسمه أن يوحى بها إلى القلوب ليشرك المصلين بصلاتهم فى تصريف أمورهم وتدبير حياتهم . أم من يدرى ؟ لعل الله جعل هذه الصـلاة ماتة بينه وبين خلقه الذين برأهم على مثاله ، وخصهم بحبه وإفضاله ؛ أو لعله وهو فى عزلته المقدسة التى لا يعمرها غيره أراد أن تكون الصلة حديثاً متصلاً بينه وبين الطبيعة ، فيصعد إليه تسبيحاً وحمداً ويهبط منه رحمة وبركة . وعلى أية حال فالصلاة أجل ميزة للرجل لأنها الوسيلة إلى مناجاة الله وتكليمه . فنحن نناديه وإن لم يسمع ،

لأن عظمتنا فى أن ندعو ، وعظمته فى ألا يجيب » .

رأيت أن براهينى عطفت قلبها ولم تقنعه ، وأن نفسها وقد أيبستها جفافة العلم لا تزال ينابيعها مسدودة من جانب الله ؛ ولكن الحب لا يلبث أن يرطب اعتقادها كما رطب فؤادها ، والهوى بنعيمه وبؤسه لا بد أن يفتق قلبها عن العبادة والصلاة ، وهما عطران يفوحان من كل نفس تذوى وتحترق ، فأحدهما ملئه السكرات ، والآخر ملئه العبرات ، وكلاهما جليل مقدس .

٣١

على أن سعادة القلب ، وخلوة الحب ، وملاءمة هذا الفردوس للنفوس الرقيقة ، ووقوفها كل يوم منى على مجهول من الفكر أو مستور من الأمر يتفق مع أسرارها الخاصة ، وهواء الخريف فوق الجبال محتفظاً بدفء الشمس حتى منعقد الثلج ، والجولات البعيدة خلال الجواسق أو فوق الماء ، وما تجده فى ميدان الزورق أو فى خطران المطية من راحة المشاعر ولذة الجسم ، ولبن البقر الذى يأتيها به الرّعاء صباح مساء فى أقداح من خشب الزان ، وذلك الثوران اللذيذ والهذيان الهادئ والدوران المستمر مما تشعر به النفس الشابة مستها مواسٌّ الحب الأول فطار بها على أجنحته

فى أجواء جديدة ، ينقلها من فكر إلى فكر ، ومن حلم إلى حلم ؛ كل أولئك مسح ما بها من نهكة الداء وأوفى بها عجلان إلى العافية. فمن ضحى اليوم إلى عشيته كان ذاهبها يؤوب ، وجسمها يثوب ، ووجهها يشبو ؛ فذهب ما كان يدور بالجفون من بقع كلفاء أو زرقاء كأنها طابع الموت ووسمه ، وأصبح الوجه مشبوب الخد منضور اللون فوار الدم مكسوا بالزغب كوجه الفتاة صعّدت فى الجبل طويلا فتورد ، وقرسه نسيم الثلاجة فتضرج ؛ ثم ذهب ما بالجفون من ثقل ، وما بالعيون من ظلمة ، وما بالشفاه من ذبول . وكانت نظراتها تسبح فى ضباب شفاف تراكَم من هموم النفس ، فهو بخار القلب الملتهب انعقد فوق مقلة العين دموعاً لا تفتر عن الفيضان. ولكن تلك النار التى تَلُوع القلب وتُلهب الحشا تجفف هذه الدموع فلا تقطر . ثم عاودت هيئتَها القوة ، وحركتها المرونة ، ومشيتها الخفة ، حتى لتحسبها عادت طفلة. وكان الطبيب وأسرته كلما رأوها فى فناء البيت عائدة معى من نزهتها أخذ منهم الدهش مأخذه ، وصاحوا متعجبين من وفور حظها من العافية ، وسرعة تقدمها فى الصحة ، وما تشعه مقلتاها من نور الصبي وضوء الحياة فى بحر يوم وليلة .

كأنما للسعادة أشعة ، وكأنما تجمّع حولها من هذه الأشعة

جو يغمرها ويغمر كل من ينظرها . وما كانت هذه الأشعة إلا أشعة الجمال ، وما كان هـذا الجو إلا جو الحب ! ولا تظن ذلك اختلاق مصور أو اختراع شاعر ، وإنما فضل الفنان على غيره أنه دقيق النظر قوى الملاحظة ، فهو يبصر ما لا يبصره السادرون أو العاشون من سائر الناس . لقد طالما قالوا فى الغادة الحسناء إنها تبدد غياهب الليل ، ويصح القول فى چوليا أنها تدفئ ما أحاط بها من الهواء ، فكنت أحيا وأسير مغموراً بهذا الدفء الصادر عن جمالها المبعوث من مرقده ، وكل من مر بها وجد هذا الدفء وأحسه !

٣٢

كنت كلما أويت إلى غرفتى أثناء اللحظات القصيرة التى أضطر فيها إلى تركها أشعر وأنا فى رائعة النهار كأنى فى نفق تحت الأرض لا يمر به الهواء ولا ينفذ إليه الضياء ! وكانت الشمس نفسها على شدة تألقها وقوة توهجها لا تضىء لى الأشياء مالم تنعكس فى عينى منها ، وكنت كلما زدتها نظراً زادتنى إعجاباً بها وارتياباً فى أنها خلقت من النوع الذى خلقت منه . ولقد أصبحت ألوهية حبها فى ذهنى حقيقة ثابتة وعقيدة راسخة ، فنفسى لا تفتر

عن الخضوع والركوع أمام هذه المخلوقة التى جلّت بحنانها عن أن تكون إلٰها ، وسمت بقداستها عن أن تكون امرأة . وما أعرف فيما أعرف من اللغات اسما ينطبق عليها ويدل على حقيقتها ، فسميتها فى نفسى بالسر . ورحت أؤدى إليها تحت هذا الاسم المبهم شعائر يصلها بالأرض الحنان ، وبالسماء العبادة ، وبالخيال النشوة ، وبالحقيقة الوجود .

ثم ألجأنى ما أشاهد منها وما أعتقد فيها إلى أن أبوح لها بأنى صنعت فى بعض الحالات شعراً ، ولكنى لم أعرضه عليها ، ولم أنشده على مسمعيها ، لأنى لاحظت أنها قليلة العناية بهذا النوع الصناعى من الكلام الذى يسىء التعبير عن العواطف الساذجة والميول الصادقة ، فيفسدها وهى صالحة ، ويبهمها وهى واضحة . وهى من طبعها المبادهة والمصارحة والرزانة ، فلا ترضيها هـذه المواضعات ولا تلك المداورات ، ولا تروقها روية الشعر المكتوب ، ولا زخرفة الخيال المكذوب ؛ وإنما هى شعر بغير وزن ، وغناء من غير مِزْهر . وهى عارية كالقلب ، بسيطة كالكلمة الأولى ، حالمة كالليل ، مضيئة كالنهار ، سريعة كالبرق ، واسعة كالفضاء ! وكانت نفسها سلماً موسيقيا لا حَدَّ لدرجاته ولا قيْد لنغماته ؛ وكان صوتها غناء رخيما لا تعادله رنة الوزن ولا

إيقاع النغم . فلو عشت بجانبها ما عشت لما أحسست حاجة إلى إنشادالشعر أو إلى قرضه ؛ لأنها كانت لى القصيدة الحية التى تصور لى مشاهد الطبيعة ، وتعبر عن خطوات نفسى . فعواطفى رنانة فى قلبها ، وصوَرى مرسومة فى نظرها ، وأنغامى شادية فى صوتها . ناهيك بأن الشعر المادى الرنان الذى ظهر فى آخر القرن الثامن عشر وتمثل فى شعر دُلِيلَ و فُنْتانِسْ لا يروقنا ولا يلائمنا . إن نفسها التى هدهدتها أمواج المحيط الحنانة الرخيمة كانت مقرا للآلام والأحلام والحب ، فلا يكفى لإثارتها تصفيق الماء ولا أغانى الهواء . ولقد حاولت مراراً أن تقرأ أمامى شيئاً من دواوين هؤلاء الشعراء وأن تظهر إعجابها بما نالوا من سمعة ، ولكنها ما كانت تطيق الاستمرار فى القراءة فَتُمْسك ، وتبقى الكتب تحت يدها خرساء كأنها الأوتار المقطوعة يعالجون إخراج الصوت منها بالعزف عليها فى غير طائل . كان فى قلبى أثرها ونفحها وشعرها ، ولكنى عجزت عن توقيعها وتقطيعها وترجيعها . ولم أنشد الأشعار التى ألهمتنى إياها وأوحت إلىَّ معناها إلا على قبرها ، فلم تعرف من تحب قبل موتها . لقد كنت فى نظرها أخاً ، فما كان يعنيها كثيراً أن أكون فى نظر العالم شاعراً . ففى ذات مرة بحت لها عن غير عمد بملكتى الضعيفة فى قرض الشعر ، وما كانت تأنس ذلك فىَّ

ولا تريده لى . واتفق أن وفد علينا صديقى لويس فقضى معنا أياماً كنا نقطع أنصاف لياليها فى القراءة والحديث والمنى ومطارحة الشكوى أو مبادلة الفرح . ولقد كنا نعجب العجب كله لتصرّف القدر فى هذه الحظوظ الثلاثة كيف جمعها من شتات ، وعرّفها من نُكْر ، وعقد بينها أسباباً كانت بالأمس مفصولة ، وأبان لها أشياء كانت منذ قليل مجهولة ، ثم ضمها فوق فرش واحد تحت عرش واحد فى بلد واحد . وطفقنا نتسلف النظر ونستفتى القدر عن مصيرنا ، فلا ندرى أتعصف بنا عواصف الدهر فنتفرق إلى غير رجعة ، أم ينسدل بيننا حجاب النوى ثم نعود فنجتمع . لم نر فى سماء الغد مخايل لليُمن ولا دلائل على السعادة ، فشملنا الأسى واستولى علينا الحزن ، ولبثنا صامتين أمام منضدة الشاى الصغيرة التى جلسنا إليها ، واعتمدنا بمرافقنا عليها ، حتى أحس لويس دبيب الشعر فى نفسه ، وكان شاعراً ، فأراد أن يصور بالكتابة أشجان قلبه وبواعث بؤسه ، فقدمت إليه جوليا قلماً وقرطاساً ، فخط على رخام المدفأة هذه الرباعيات الشاكية الباكية على مثال الرباعيات المحزنة التى نظمها جلبرت . وأكبر ظنى أنها ستخلد ما خلدت أنات أيوب فى سِفره . قال منها :

إلى وليمة الحياة أجبت أنا الضيف المنكود ،

فلم أُقم على خِوانها غير يوم ثم دعتنى المنون .
فأنا أَرِدُ حياضَهـا على رُودٍ وأناة ،
دون أن أرى باكيًا يسكب عليَّ عبرة !
الخ الخ

فحركت شجونى أبيات لويس فأخذت القلم من يده وانتبذت ناحية من الغرفة ، ثم نظمت هذه الأبيات التى ستقبر معى دون أن تجمع وتنشر . نظمتها فيها مستمدا من قلبى لا من خيالى . ثم قرأتها عليها دون أن أجرؤ على النظر إليها . وهاك هى . ولـكن لا . إن عبقريتى كانت كلها فى حبى وقد فنيت بفنائه وانقضت بانقضائه . فلما فرغت من إنشاد تلك الأبيات رأيت على وجه جوليا وقد انعكس عليـه ضوء المصباح سيماء العجب الحنون والجمال الفائق . فوقفت حيران متردداً بين الملاك والمرأة ، وبين الحب والعبادة ، فتغلبت العاطفة الثانية على نفسى ونفس صديق . فجثونا أمام كبتها وقبلنا طرف شالها المرسل على قدميها . وعرفت هى أن هـذه الأبيات شعاع ضوئها فى نفسى ، ولهيب غرامها فى قلبى ، فأثنت عليهـا ثم لم تعد إلى الحديث عنها مرة أخرى . لقـد كانت تُؤْثر الحديث المسلسل المرسل بينى وبينها أو الصمت المفكر المؤثر فى قلبهـا ، على هذه الصناعات اللفظية

والنكت الفكرية التى تبخس قدر النفس بدل أن تشرحها . ثم رحل لويس عنا بعد أن أقام معنا بضعة أيام .

٣٣

على أثر هذه الأشعار التى نظمتها تصويراً لقلبي فكانت صدى خافتاً لأنغامه، وترجماناً عييا لأحلامه، وأنيناً خفيا لآلامه، طلبت إلى أن أنظم لها قطعة فى أحد خلطائها وموضع إجلالها وثنائها من رجالات باريس وهو السيد بونال . وما كنت أعرف عنه إلا اسمه النابه وذكره الطائر فى التشريع والفلسفة والدين ، فتخيلت أنى أخاطب موسى جديداً يقبس من نور سَيناء هدًى من الله يفيضه على الوجود ويبثه فى قوانين البشر . ثم أنفقت فى هذه القصيدة سواد ليلة ، وأصبحت فغدوت إليها وقرأتها عليها فى ظل شجرة من أشجار الكستناء ، فاستعادتنى قراءتها ثلاث مرات ، ثم أخذتها وفى المساء نسختها ، وفى الصباح أرسلتها إلى باريس ، فجاءها الجواب من الأستاذ بونال يقرظ القصيدة ويتنبأ لناظمها بالمستقبل الزاهر والفوز الباهر والصوت البعيد . وتلك كانت سبب المعرفة بينى وبين هذا الرجل الكريم . وقد أعجبت به وأعززته منذ عرفته وخبَرته ، اللهم إلا عقائده

التيوقراطية[1] فلم أرضها منه ولم أشاطره إياها . وهو مثل السيد دُمِستر ، نبي من أنبياء الماضي وشيخ من شيوخ الفكر ، يجاهم الناس ويوقرونهم ، ولكنهم جالسون على أبواب المستقبل يقرعون ولا يلجُون ، وإنما يتسمعون وهم على أعراف الزمن بين القديم والحديث أنينَ الأشياء والآراء وهي تعالج الروح وتكابد الموت في أذهان البشر .

٣٤

بينما كان الخريف يقوض خيامه ويستدبر أيامه ، إذا بطلائع الشتاء قد دهمته وهو على وشْك الرحيل فترك في يديها شيئاً من آثاره وقبساً من أنواره ثم ولى . فكان الجو لا يزال مشرق الجنبات رقيق النسمات تطالعه الشمس من خلال الغمائم فترة بعد فترة فتقبسه الجفاف والحرارة . فكنا نخادع أنفسنا ونزعم أننا لا نزال في الخريف ، لأن الاعتراف بقدوم الشتاء وهو نذير النوى وموعد الرحيل كان يملأ قلوبنا رعباً وفزعاً . وكان الثلج يتساقط في الصباح نتفاً بيضاء على ورد البِنْجال وفوق زهور الروض كأنه زغب البجع الأبيض نسله أثناء الليل فذهب أباديد[2]

---

(١) الاعتقاد بأن سلطان الحكومة مستمد من الله وحده (٢) متفرقاً

مع الهواء فى جو السماء فإذا مَتَع النهار ورنَّقت ذكاء[1] فى الأفق أذابت ذلك الثلج فتدفق فى البحيرة فيكون لتدفقه منظر يثلج الصدور ، ويجلو صدأ الهم ، ويلطف حرارة الجو . وكانت أشجار التين الدانية على الصخور المعرضة للأمواج لا تزال كاسية بأوراقها العريضة ، وكان انعكاس الشمس على هذه الجنادل لا يزال خالعاً عليها من جمال الصيف أضواء أيامه وحرارة لياليه . غير أن هذه الساعات كانت تفر منا عجالا فرار مجاديفنا من الصخور الناتئة على جانب البحيرة . وكانت أنوار الشمس الصالبة فوق أشجار التنوب وعلى الأُشْنة الخضراء ، وطيورُ الشتاء المرتاشةُ الوثابة الألوفة ، وفيضانُ الشلالات وزَبدها المتلوى تلوى الأفاعى فوق المروج الحادرة ، وتجمعها فى مدارج السيول ثم تدفقها من رؤوس الصخور السوداء الملساء فى البحيرة ، وما نشعر به فى هذا الجو الدافئ المنير من سعادة النفس ونعيم العيش لصفاء القرب وهدوء الخلوة فوق هذه اللجة بعيدين عن الأرض ؛ كل ذلك كان إلى تلك اللحظة يغمرنا بفيض من لذة الحياة ونشوة القلب وسكينة الحب ، لا يستطيع الدهر نفسه أن يزيد عليه ولا أن يضيف شيئاً إليه . على أن هذه السعادة كان يشوبها فى نفوسنا الخوف من انقضائها

(١) الشمس .

١١٥

فكانما كل تجديفة بالزورق خطوة فى سبيل الفراق . ومن يدرى ؟ لعل هذه الأوراق المهتزة اليوم تسقط فى الماء غداً ، وهذا النجيل الذى نستطيع الآن أن نفترشه لا يلبث أن تطمره طبقة كثيفة من الثلج ، وهذه الصخور البراقة والسماء الناصعة والأمواج اللامعة يعجل إليها ضباب الليل فتغرق منه فى بحر مسجور ؟

تنفسنا الصُّعَداء فى وقت معاً ، لأننا كنا نجيل هذه الخواطر فى أذهاننا دون أن نجرؤ على تبادلها ، مخافة أن نوقظ المصيبة إذا ذكرناها .

آه ! كل منكم ذاق ولا ريب هذه السعادة العاجلة الزائلة التى لا أمان لها ولا غد . تتجمع الحياة واللذات والمنى كلها فى ساعة فيتمنى المرء لو تطول وتخلد ! ويشعر بإفلاتها منه فى كل دقيقة وفى كل ثانية كلما سمع البندول يدق الثوانى ، أو رأى العقرب يلتهم الساعة ، أو أحس العربة تنهب المسافة فى كل دورة ، أو نظر حيزوم السفينة يشق عباب الماء فيدنيه من الشاطئ حيث يهبط من سماء آماله وأجواء خياله إلى أرض الحقيقة الباردة الوعرة ! !

٣٥

واتفق مرة أن كنا بعد الغداء يترجح بنا الزورق على ضوء

الشمس فى خليج هادئ دافئ بين ذراعين من جبل القط ، فنزل الملاحون إلى الأرض يرفعون شباكا كانوا نصبوها بالأمس ، وبقينا وحدنا فى الزورق وهو مشدود بحبل دقيق إلى فرع من شجر التين ، فانفتل الحبل من نَوَدان الزورق فكسر الغصن ، وسار بنا الزورق دون أن نشعر حتى بلغ منتصف الخليج على مسافة من الصخور العمودية التى تكتنفه . وكان لماء البحيرة فى هذا المكان لون البرنز وبريق المعدن المذاب وسُجُوّ الليل الساكن . فأخذت المجداف ، وعدت بالزورق إلى الشاطئ ؛ ولكن هذه العزلة عن الأحياء بعثت فى أجسامنا نشوة لذيذة ، فتاقت أنفسنا إلى أن نضل على تلك الحال فى جو لا يدركه البصر ولا يحده الفكر، لا على بحر يحصره شاطئان ويحده قاع . وانقطع عن آذاننا أصوات الملاحين وقد رأيناهم على مدى البصر يصعدون كثيب سفوا . ثم واراهم رأس الجبل فلم نعد نسمع لهم رِكزاً ولا نرى لهم شخصاً . وما كان يبلغ أسماعنا إلا هسهسة الشلال متقطعة على بعد ، وإلا رفيفُ الريح حاملة أنين الصنوبر ، وإلا التطامُ الأمواج على جوانب الزورق . وكان نور الشمس وظل الجبل يتقاسمان القارب ، فللشمس مقدمه وللظل مؤخره . وكنت جالساً فى جوفه بين قدمى چوليا كما كنت يوم عدت بها من دير

المتكمب . وما كان أنعم لعيوننا وأحلى فى صدورنا أن نذكر فى كل محادثة وفى كل مناسبة ذلك اليوم السعيد الذى ابتدأ فيه تعارفنا وكلامنا ، ووُلد به تآلفنا وغرامنا ، وأصبح لعلاقتنا الوثيقة الخالصة تاريخ إعجاب وإخلاص ومودة ! كانت چوليا مضطجعة على المقعد ، وإحدى يديها مرسلة على حافة الزورق ، والأخرى معتمدة على كتفى تعبث بخصلة من شعرى الطويل . ووجهها مَحْنيٌ على وجهى كأنها ترقب فى جبينى الشمس وفى عيونى النهار . وقد فاضت على قسماتها نضرة السعادة الهادئة العميقة ، نخلعت على محياها بهاء النفس الكريمة وصفاء الضمير النقى ، فكان خليقاً أن يكون لنفسها مرآة ولخلقها صورة . وبينما نحن على هذه الحال نتساقى كؤوس الهوى بالفكر ، ونتبادل أحاديث المنى بالنظر ، إذ علاها شحوب وآوت إليها ذراعيها ، وسترت عينيها بيديها ، واسترسلت فى الفكر مليا وهى صامتة . ثم رفعت كفيها وقد اخضلتا من الدمع ، وصاحت بصوت ملؤه الوضوح والسكون والعزم قائلة : « أوه ! فَلْنَمُتْ ...... » وأدركها قبل أن يتبين غرضها الوجوم ، فسكتت لحظة ثم عاودت الكلام تقول : « أوه ! أجل لنَمُتْ ! فليس فى الأرض على ما نلنا مزيد ، ولا فى السماء فوقه مطمح » ثم سرحت طرفها طويلا فى السماء والجبال والبحيرة

وخاطبتني بضمير الواحد ، وتلك هي المرة الأولى والأخيرة التي استعملت فيها هذه الصيغة الكلامية التي خصص العرف استعمالها لله أو للأليف . قالت : انظر تجد كل شيء كأنما هيئ وأعد للاحتفال بانقضاء حياتنا وتهوين مماتنا على أقدس صورة وأجمل حالة ! فهاهي ذي الشمس وهي أجمل في هذا العام منها في أعوامنا الأوَل تغرب وربما لا تشرق علينا غداً . وهاهي ذي الجبال تتراءى لآخر مرة في جوانب هذه البحيرة ، وترسل علينا ظلالها وكأنها تقول : أدرجا نفسيكما في هذا الكفن الذي أبسطه لكما ! وهاهي ذي الأمواج تتعاقب على الساحل صافية صامتة عميقة فتهيئ لنا مرقداً من الرمل لا تقع عليه عين ولا يهتدي إليه إنسان فيصدع قلبينا بخبر السفر ! ولن يعلم أحد السبب الذي قضى على هذا الزورق أن يسير غداً وحده حتى ينشب في صخور الساحل . ولن يجد الفضوليون أو الخَليُّون على صفحة الماء أثراً يدل على المكان الذي غاب فيه جسمان متعانقان تحت الموج الهادر ، وصعد منه روحان متلازمان إلى الأثير الخالد ! ولن يبقى على الأرض منا صوت ولا أثر غير صوت الموجة تنشق لجسمينا ثم تنطبق ! . . . . فلنمت الآن في هذه السكرة التي استولت على النفس وهيمنت على الطبيعة حتى لا نذوق من الموت غير لذته ؛ فربما احتجنا إليه

فى مؤتنف الزمن فلا نجده عذب المذاق ولا سهل الملتمس كهذه الموتة . إنى أ كْبُرُك ببضع سنين ، وهذا الفرق فى السن وإن ظهر يسيراً اليوم سيعظم مع الزمن ، فما يفتنك الآن فى وجهى من الوسامة والجاذبية ستذهب بَلَّته عما قليل و يذبل ، فلا يبقى فى نفسك منه إلا عهده المتوهم وأثره الدارس . وسيجد قلبك حينئذ الحاجة إلى هوى جديد وسعادة أخرى ، وأنا لا أستطيع إلا أن أ كون معك ولك . فإذا وجدت هـذا الهوى وصادفت تلك السعادة فى امرأة أخرى هلـكتُ أسى وغيرة . و إذا آثرتنى على نفسك هلـكت ألما وندما لعنائك فى سبيلى وشقائك بسببى !.. أوه ! فلنمت إذن ، ولنقض على هذا المستقبل المريب فى هذه اللحظة وقلوبنا جياشة بالسرور فياضة بالسعادة ...... »

فى هـذه اللحظة وبهذه القوة كانت نفسى تحدثنى بما ألقاه فمها فى أذنى ، وأداه وجهها إلى عينى ، وأوحته الطبيعة الصامتة الحزينة إلى قلبى . فكنت أسمع صوتين أحدهما داخلى والآخر خارجى يتعاوران على لفظ واحد ومعنى واحد . فنسيت نفسى وذهلت عن وجودى وأجبتها : فلنمت ! !

... ...

ثم جئت بحبال الشبكة من الزورق وأدرتها ثمانى مرات حول

جسمي وجسمها ونحن متعانقان متلاصقان كأننا في كفن ، ثم حملتها بين ذراعي لألقيها معي في الماء . . . ولم أكد أهم بالوثبة حتى شعرت برأسها الواهن يقع على كتفي وقوع الأشياء الجامدة ، وبجسمها يسقط على ركبتها سقوط الأجسام الهامدة . فحسبت أن قوة التأثر وشدة السرور بموتنا معاً قد عجلتا لها الموت ، ولكنها كانت في غشية من فرط ما تحس فلم أجرؤ على أن أجرها إلى قبري على تلك الحال مخافة أن يكون قد بدا لها فأجني عليها . فاستلقيت بها في قلب الزورق وأسرعت إلى الوثاق فحللته ثم ضجعتها فوق المقعد ، وأخذت أنضح جبينها وشفتيها بالماء البارد . ولا أدري كم لبثت على حالها تلك من غير وعي ولا لون ولا صوت ، ولكني أذكر أنه حين عادت نفسها وثاب إليها حسها ، كان الليل غاشياً على الكون ، والموج قد استدرج الزورق إلى عباب البحيرة . ولما ذهب ما بها من أثر الغشية قلت لها : إن الله لم يرد ما أردنا ، فأحالنا عما قصدنا ، فما زلنا نتملى بالحياة ونشعر بالوجود . ولكن ما بالنا نستسلم للوجدان ونتحلل من سلطان العقل؟ أليس ما كنا نظنه حقا من حقوق الحب كان جريمة مزدوجة ؟ أما لنا في الأرض أهل وفي السماء إله ؟ فردت على مسرعة في صوت خافت : « دعنا من هذا الحديث فلا نعد إليه . لقد أردتَ أن أعيش

فلتكن إرادتك . وما كانت جرءتى فى العزم على الموت ، وإنما كانت فى حملك عليه وجرك إليه » . قالت ذلك وكان فى لهجتها ما يشف عن الألم ، وفى نظرتها ما ينم على الملامة . فقلت لها ردا على آلامها وملامها : « وهل فى العالم الآخر ساعات تعدل هذه الساعات التى قضيناها معاً ؟ إن أمثالها لفى هذه الحياة الدنيا ، وهذا وحده يحملنى على حبها والحرص عليها »

وسرعان ما عاد إليها فى هذه المرة صفاء نفسها ونضارة وجهها ، فتناولت المجدافين وأرسلت الزورق إلى الساحل المرمل ، ونزلنا فوجدنا الملاحين قد أوقدوا ناراً تحت صخرة ، فاصطليناها هنيهة ثم عبرنا البحيرة حالمين ، ودخلنا البيت صامتين .

٣٦

ولما جاء موعد السمر دخلت عليها الغرفة فإذا بها أمام منضدتها تغالب الدمع وتبكى أحر بكاء . وكان بين يديها رسائل كثيرة مفضوضة مبعثرة بين أقداح الشاى . فلم تكد ترانى حتى أومأت بإصبعها إلى هذه الكتب الواردة من جنيف وباريس وهى تقول : ليتنا متنا تلك الموتة الوحِيَّة[1] حتى لا نكابد موت النوى الطويل !

لقد كان فيما أُلقى إليها من الكتب كتاب من زوجها وآخر

(١) السريعة

من طبيبها . فأما زوجها فيقول إن القلق أخذ يساوره عليها من جراء هذه الغيبة الطويلة فى هذا الفصل الذى يصعب ويشتد من يوم إلى يوم ، وإنه يحس قواه تضمحل من شهر إلى شهر ، ويود قبل أن يفارق الحياة أن يعانقها ويباركها . وكان إلحاحه المؤثر ممزوجاً بالحنان الأبوى والتلميح الظريف إلى ذلك الأخ الجميل الذى صرفها عن كل شيء وشغلها عن كل صديق . وأما الطبيب فيقول إنه كان مقدراً من قبلُ أن يأتى إليها فيصحبها إلى باريس ، ولكنه اضطر أن يسافر فجأة إلى ألمانيا ليطبب أميراً هناك دعاه إلى علاجه . فهو مرسل إليها مكانه رجلاً وقوراً ثقة يكون فى صحبتها وخدمتها حتى تبلغ باريس . وفعلاً قدم هذا الرجل وتحدد الرحيل ثالث هذا اليوم .

وقعت هذه الأخبار علينا وقوع الصاعقة كأنها لم تكن من قبل معلومة ولا متوقعة ! وقضيناها ليلة طويلة ثقيلة متكئين على المنضدة متقابلين صامتين لا نجرؤ على النظر ولا نقوى على الكلام مخافة أن ننفجر بالبكاء . فما كان يقطع هذا الاحتضار الطويل الصامت إلا كلمات واهية الرباط طائشة الغرض نلفظها بصوت خافت مبهم فيكون لها فى الغرفة رنين كرنين المدامع فوق ناووس فقيد .. ثم قطعت عزمى أنا أيضاً منذ الساعة على السفر .

٣٧

كان اليوم التالى بارحة يوم الفراق ، فأشرقت شمسه وضاحة الجبين وضاءة الطلعة ، وأصبح جوه دافئ النسيم نقى الأديم جميل الروعة ، كأنما أراد السخر منا والعبث بنا . فتركنا القوم يُعدون الحقائب ويجهزون العربة وذهبنا بالبغال والأدلَّاء نودع الخلجان والوديان والجبال ، وسرنا على ترتيب المراحل التى قطعناها قبل أن نصل إلى هذا الحب المقدس . فزرنا أولا الأماكن التى تقابل فيها نظرانا ، ثم التى تلاقى بها شخصانا ، ثم التى تَسايَر عليها جسمانا ، ثم التى تحادث فوقها لسانانا ، ثم التى تألف عندها قلبانا . فابتدأنا بتْريسِرْف ، وهى هضبة جميله قائمة بين البحيرات ووادى إكس ، كأنها كومة من الخضرة ، جوانبها متعامدة فى الماء مغطاة بأشجار القسطل ذوات الأغصان الفينانة المتهدلة على اللجة ، تحسبها إطاراً للسماء إذا نظرت إلى أعلى ، وللماء إذا نظرت إلى أسفل . ثم هبطنا منها على حَدُور دافِع إلى قصر صغير منعزل يدعى بُون بُور ، وهو مطمور من جهة البر تحت قسطل تريسرف ، ومن جهة البحر تحت مطاوى الخليج ، فلا تأخذه العيون لا من الهضبة ولا من البحيرة إلا بعد لَاى . ثم يفصله عن سِيف البحيرة المرمل الهادر

بالأمواج والزبد مَشْرفٌ مُغَشى بأشجار التين ، فهو للقلوب الحبيبة عش وللنفوس المكروبة جنة . ولشدَّ ماغبطنا أولئك السعداء الذين يملكون هذا العش المحجوب عن العيون ، المخبوء بين الماء والغصون ، فلا يعرفه إلا أطيار البحيرة ونسمات الشمال وأضواء الشمس ! ولطالما باركناه ، وحمدنا مراحه ومغداه ، وتمنينا على الله ألا يجعله ملاذاً إلا لقلوب كقلوبنا تستحقه وتفهمه .

٣٨

خرجنا من قصر بون بور وصعدنا تاركين طرف الهضبة متجهين شمالا نحو الجبال الشاهقة المشرفة على وادى شمبيرى ، فرأينا الربى والمراعى والأكواخ والسفوح المخضرة ومافوقها من العجول المُجْتَرَّة التى تدب فوق العشب فترن أجراسها فى رقابها رنيناً ينبه رعاتها إلى حركاتها . ثم علونا حتى بلغنا الجواسق العليا . وكان قرُّ الشتاء عندها قد أخذ يحرق أطراف العشب ، فتذكرنا ما قضيناه بها من الأوقات الهنية ، وما تبادلناه بقربها من الأحاديث الشهية ، وتمليناه فيها من الخلوة الممتعة والعزلة المحبوبة ، وما حَمَّلناه أجنحة الهواء وأشعة الضياء من النفثات الزافرة والدعوات الطاهرة إلى الله فى سمائه وعلائه .

تذكرنا فى أنفسنا هذه الأوقات الرضية الذاهبة ، وأخطرنا ببالنا تلك الكلمات والنظرات والحركات والأحلام والأوهام التى نعمنا بها فى خلواتنا وجولاتنا ، كأننا نريد أن ننقلها معنا كما ينقل الإنسان ثمين الرياش وفاخر الأثاث من منزل إذا تركه . ثم دفنا هذه الكنوز وتلك الذكريات كلها بين جدران هذه الجواسق الخشبية التى لا يفتحها إلا قدوم الربيع ، حتى إذا كان فى مقدور الله لنا أن نعود وجدناها سالمة غير منقوصة .

٣٩

هبطنا فوق ربوة ذات قرار جلله النبات وجمله الشجر ، ثم انحدرنا منها إلى مسيل مزبد يمده شلال هادر أقيم على جانبه ضريح صغير لفتاة تدعى (بروك) تردت فيه منذ سنين فحملها السيل الجارف إلى مغارة ، ثم أظهر الموج بعد طويل ثوبها الأبيض ، فدل الناس على جسمها فأخرجوه ودفنوه . جلسنا طويلا أمام هذا الضريح المبلل والقلب واجف والدمع واكف ، نفكر فى قيمة هذه السعادة الهشَّة التى تذهب بها زَلَّةٌ فوق الحجر الأملس ! ثم غادرنا هذا الشلال صامتين إلى جهة البحيرة ، وكان الواقف تحت قصر (سنت إنوسان) يأخذ بنظره عرض الماء

ولجّته . فلما بلغناه تركنا البغال ترعى فى الغابة تحت نظر الغلمان ، وسرنا راجلين وحدنا تحت أدواح من السنديان تتخللها مزارع الخلَنج ، وكانت حينئذ موحشة مقفرة ، أما الآن فقد عاد إليها أحد أبنائها من طلاب الرزق فى الهند فابتنى بها داراً جميلة ، وخطط فيها حدائق بهيجة . فتقدمنا متنقلين من سَرحة إلى سرحة ، ومن رحبة إلى رحبة ، حتى بلغنا طرف اللسان الداخل فى البحيرة ، ورأينا بريق لألائها ، وسمعنا اصطفاق مائها . وكان فى أقصى هذا اللسان الأرضى صخور من الحجر الصوان الأغبر تخضل كلما طغى الماء عليها ، وتجف وتلمع كلما انحسر عنها . فجلس كل منا على صخرة من هذه الصخور ، وقُبالتنا على العدْوة الأخرى من البحيرة دير المتكمب يبدو للعيون أسود اللون هرمى الشكل ، وعلى مقربة من مشارفه السود نكتة بيضاء هى منزل الصياد الذى ألقانا به الموج ليتحد قلبانا على طول الأبد . فرأيت چوليا تمد ذراعها وتشير بإصبعها إلى هـذه النقطة البيضاء وقد كاد يحجبها البعد وتخفيها ظلال الشاطئ وهى تقول : « لقد كان ذلك هناك ! ! » ثم عَقَّبت على هذه الجملة تقول بصوت مؤثر ولهجة حزينة : « ألا يمكن أن يأتى زمان ويوجد مكان تصبح فيهما ذكرى هذه الساعات التى قضيناها هناك مطموسة لطول العهد فى خاطرك ، طموس هذه

النكتة البيضاء لطول البعد فى ناظرك ؟ » فقطَّع هـذا السؤال المريب حشاىَ ، وزاد فى مخاوفى وجوا ىَ ، وأخذ علىَّ سبيل القول فصمت اللسان و نطق الدمع . فحاولت أن أستر مدامعى بأصابعى وأن أواجه مهب الريح لتجفف ما بدر منها ، ولـكنها رأتها ؛ فأقبلت علىَّ بلبها ، وأظهرت إلىَّ رقة قلبها ، وقالت : « كلا يارفائيل ! إنك لن تنسانى ؛ وأنا أستيقن ذلك وأحسه . ولـكن الحب قصير والحياة بطيئة . إنك ستعمَّر بعدى طويلا ؛ وستذوق حلو الحياة ومرها ، وستبلو خيرها وشرها ؛ وسيتقلب على عينيك ما يتقلب على عيون الرجال من سعودها ونحسها ونعيمها وبؤسها ؛ وستكون فى الرغيبة الواحدة من رغائبك من روح الأمل والقوة ما يكفى ألوفاً من الأحياء ؛ وستعيش ممتعاً بكل ما يشتمل عليه معنى الحياة من نشاط ونفوذ وقوة . أما أنا . . . . . » ثم توقفت قليلا ورفعت يديها وعينيها إلى السماء ، ثم نكست بصرها فِعْلَ من يحمد الله ويشكره وقالت : « أما أنا فقد عشت . . . . عشت ما يكفينى ويرضينى منذ تنسمت وتزودت أرج نفسك الحبيبة . وهى وحدها التى كنت أنتظرها على هذه الأرض . وهى التى ستقوينى حتى على الموت الذى أنقذتنى منه وغلبته علىَّ ! . . . . . سأموت فى وفرة الشباب وزهرة العمر ، ولـكنى يوم أموت

لا آسو على فائت ولا آسف على آت ، لأنى استغرقت فى نَفَس واحد من الحياة ما لا تستطيع أنت أن تستنشقه قبل أن يأخذ المشيب بوفرتك الجميلة الفاحمة فتصبح فى بياض هــذا الزبد الراغى تحت قدميك . إن هذه السماء وذلك الساحل وتلك البحيرة وأولئك الجبال كن مسرحاً لحياتى الحقيقية فى هذا العالم . فأقسم لى أنك تمزج هذه الأشياء بذكراى فى ذهنك ، وأن تدوم صورة هذا المكان مع صورتى فى نفسك ، وأن تظل هــذه الطبيعة فى عينك ما دمت أنا فى قلبك ؛ حتى إذا عدت بعد أيام طويلة إلى هذا البلد تستمتع بهذه الطبيعة الجميلة ، وتجول تحت هذه الأشجار الظليلة ، وتجلس فوق هذه الشواطئ الوعرة ، وتتسمع جَرجرة هذه الأمواج الهــادرة ، تكون قد رأيتنى وسمعتنى أنا كذلك موجودةً مشهودةً محبوبةً كما ترى هذه الأشياء وتسمعها » ثم أدركها الجزع فعيَّت عن متابعة الحديث . واستخرطت هى أيضاً فى البكاء ، فتصبب الدمع حتى أَخْضَلَ الثياب وبلل النحور وخدَّد صفحة الماء الراقد ، وحتى اختلط نحيبنا ونشيجنا باصطخاب الموج على الساحل المرمل . وأقسم ما أصف الآن هذه الحال وقد أتى عليها عشرون حولا إلا وأنا أبكيها أحر بكاء .

أيها المحبون ! لا تجزعوا على عواطفكم ، ولا تخشوا أن

يعصف بها الزمن ، أو يعدو عليها البلى ، فليس للدوى القوى الذى يملأ الذاكرة أمس ولا غد ؛ إنما له اليوم الحاضر والوجود المستمر . ولا تظنوا أن من ينقطع شعوره قد شعر حقيقة من قبل . إن لكل امرئ ذاكرتين : ذاكرةَ الحس ، وهى تبلى كما يبلى الحس ، ويذهب مافيها ذهاب الأمس ؛ وذاكرةَ النفس ، وهذه لا تعهد النسيان ولا تعرف الزمان . فنظرها إلى الماضى والحاضر سواء ، وإدراكها للقريب والبعيد كِفاء ، ولها ما للنفس من الحُلول فى كل مكان ؛ والبقاء فى كل زمان ، والعموم الذى لا يقيده ظرف ولا يحدده وصف . فسكنوا روعكم أيها المحبون ، واعلموا أن سلطان الزمن لا يكون إلا على ساعاتكم وأيامكم ، لا على نفوسكم وأحلامكم !

٤٠

حاولت الكلام نخانى المنطق ، والْتاث علىَّ القول ، فرددته عليها بزفراتى ، وأقسمت لها بعبراتى . ثم قمنا فلحقنا بالمُكارين ، وعُدنا والشمس فى الطَّفَل من طريق الحور التى سلكناها ليلة أُبْنا من منزل الصياد وهى فى المحفة وأنا بجانبها أسير على قدمى ويداى فى يديها طول الطريق . فلما بلغنا الضاحية الكبيرة التى بظاهر المدينة وأجزْنا الساحة واخترقنا الشارع الصاعد إلى إ كس

بدت وجوه كاسفة حزينة من شبابيك المنازل وعتبات الأبواب تلقى علينا السلام كما تلقيه القلوب الرقيقة على زوج من السنونو تعوّق عن الرحيل مع سربه . ووقف النساء المساكين اللائى كن يغزلن جالسات على مقاعد من الحجر قريباً من بيوتهن ، وهرع الولدان إلينا تاركين ما يسوقون أمامهم من قطعان الشاء ورعائل الحُمُر ، وكلهم جاء ليوجه إلى الفتاة وإلى من يظنونه أخاها إما نظرة وإما كلمة وإما انحناءة صامتة . وهى جميلة فى كل عين ، حبيبة إلى كل قلب ، خفيفة على كل نفس ، فكأنها كانت الشعاع الأخير من أشعة العام يرتد عن الوادى . ولما ظهرنا عالىَ المدينة ترجلنا وصرفنا الغلمان ببغالهم . ومازال من يومنا الأخير بقية تضىء الثلوج الوردية التى تُقَنِّع رأس الألب ، فكرهنا أن نضيعها على أنفسنا بالدخول إلى المدينة . ومضينا وحدنا نصعد فى طريق منحوتة تؤدى إلى حديقة فوق بيت جميل يسمى بيت الفارس . فلما وقفنا على سطح هـذا المنزل استطاعت عيوننا أن تجول حرة طليقة فى المدينـة والبحيرة ، وفوق مضايق الرون المجمّعة وبساتين الـكروم الموشّعة ومناظر الألب الجميلة ، وجلسنا فوق جذع مُجدَّل على الأرض معتمدين بمرافقنا على سور هذا السطح صامتين جامدين ننظر معاً أو متعاقبين إلى الأماكن المختلفة التى ملأناها

فى ستة أسابيع بنظراتنا وخطواتنا وأحلامنا وأنفاسنا ، حتى إذا انطفأ مصباح النهار فى هذه الأمكنة واحداً بعد واحد ولم يبق إلا بصيص من النور يلمع شمالا فى حاشية الأفق ، نهضنا واقفين دون مشاورة ولا مداولة ، وانصرفنا راجعين نلتفت عبثاً إلى الوراء كأن يداً خفية طردتنا من هذا الفردوس . ثم أخذت الطبيعة تطوى على أثرنا ما أقامته من زينة وما اتخذته من زخرف احتفالا بسعادتنا واحتفاء بحبنا .

٤١

رجعنا المنزل وقضيناها عشية كئيبة عابسة . وتم الأمر بيننا على أن أصحب جوليا حتى تبلغ ليون . فلما آذنتنا الساعة بوهن الليل قمت أنصرف لأترك لها ما بقى منه لتستريح فيه حتى الصباح . فشيعتنى إلى الباب وتقدمت ففتحته ؛ ثم قبلت يدها وقلت لها : (إلى الغد !) فلم ترد على . ولكنى سمعتها تتمتم قائلة وهى تنتحب خلف الباب : « هيهات ! لم يبق لنا من غد ! » بلى ! قد بقى لنا من صحيفة الزمن أيام ، ولكنها قصيرة مرة كأنها النُّطَفُ الأخيرة من كأس فارغة !

رحلنا قبل أن يخلع الصباح ثوب الغَلس إلى شمبيرى حتى

لا يظهر الناس منا على خدود أذواها الأرق وعيون قرّحها البكاء .
وقضينا نهار ذلك اليوم فى فندق من فنادق هذا البلد ، وكان
لهذا الفندق شاذَرْوان من الخشب يشرف على حديقة يجرى
وسطها نهر صغير ، فألقى فى روعنا بضع ساعات أخرى أننا لا نزال
على صلة بمسكننا فى إكس وما يتصل به من ظلال وسكون وعزلة .

٤٢

وددنا قبل أن نغادر شمبيرى وواديها العزيز أن نزور معاً
منزل چان چاك روسو والسيدة دفَرَنس فى شرميت . وما الرَّبع
إلا رجل أو امرأة . والدار لولا ساكنوها بناء . والأرض لولا
عامروها خلاء . فما فُسكلوُز لولا بِترَارْك ، وشوارنت لولا تاس ،
وصقلية لولا تِيوكرِيت ، وَبرَاكليه لولا هيلوويزُ ، وأنيسى لولا
دفرنس ، وشمبيرى لولا چان چاك روسو ؟ هل تكون هذه البقاع
من غير هؤلاء إلا سماء من غير أضواء ، وأصواتاً من غير أصداء ،
ومساكن من غير أحياء ؟ إن الإنسان لا يؤثر فى الإنسان وحده ،
إنما يؤثر فى الطبيعة كذلك ؛ فهو يحمل معه خلودا فى السماء ،
ويترك بعده خلوداً فى الأرض ، تحسه فيما عايش من قوم ، وزاول
من عمل ، ولابس من ربوع ؛ فإذا ما وجدتَ آثاره فقد وجدته

أو زرت دياره فكأنك زرته . ذهبنا نزور هـذا المكان ومعنا كتاب الاعترافات الذى وصف فيه شاعر (شرميت) هذه الأرباض الريفية أجمل وصف . وكان هذا المكان أول ملجأ لأولى غرَقات روسو فى خضم الحياة ، ألقت به أمواج القدر بين ذراعى امرأة فتية جميلة مخاطرة ارتطمت بها سفينة الحظ مثله فانتشلته . وكأنما صيغت هذه المرأة عن قصد من الفضيلة والرذيلة والحياء والوقاحة والرقة والقسوة لتُشبل على حداثة هذا العبقرى الشاذ الذى تجمعت فى نفسه المتناقضة صفات الحكيم والحبيب والفيلسوف والفقيه والأحمق . فلو قيض له الله امرأة أخرى لكان من الممكن أن تصوغ منه رجلا آخر . فإن أثر الحبيبة الأولى فى حياة المحب من أقوى الآثار وأبقاها .

فما أسعد من عرف السيدة دُوَرَنْس قبل رِجسها وتبذل نفسها ! فقد كانت صنما تهوى إليه الأفئدة ، فما زالت الأرجاس تتعاوره حتى تدنس ، واستحالت العبادة التى كانت تؤديها إليها تلك النفس الطاهرة الوامقة إلى حقارة وضَعة . وما حب هذا الفتى وهذه المرأة إلا صفحة من (دفنس وكلويه) انتزعت من الكتاب ثم وُجدت ملطخة مدنسة على فراش عاهرة .

وعلى أية حال لقد كان حبها الغرام الأول لهذا الشاب الجميل

وبيتها منبت هذا الغرام ومثابته ؛ كان فيه العريش الذى نشأت فيه أوائل اعترافاته ، والغرفة التى خجل فيها من أولى علاقاته ، والفناء الذى كان يتمجد بالإسفاف فيه إلى أحقر الأعمال البدنية خدمة لحبيبته ونصيرته ، وأشجار القسطل المتفرقة التى كان يجلس فى فيئها الحبيبان يتحدثان عن الله ، ويقطعان سياق هذا الحديث اللاهوتى الفرِح بالضحكات الجنونية والمداعبات الطفلية . وكانت صورتاهما مطبوعتين فى كل هذه المشاهد المونقة الريفية ، ممتزجتين بهذه الطبيعة الموحشة الخفية . وللشعراء والحكماء والأخلاء إلى كل ذلك انجذابٌ قوىّ وميل شديد . فأما الشعراء فلأنها الصفحة الأولى من نَفْسٍ هى فى مجموعها قصيد ونشيد ، وأما الحكماء فلأنها مهد ثورة ومسرح تجديد ، وأما الأخلاء فلأنها عش لأول حب ومهد لأول عاطفة .

٤٣

كنا نصعد ونحن نتحدث عن هذا الحب فى طريق مُحَصَّب يخوض فى جوف واد يؤدى إلى شرميت . وكنا نسير وحدنا لا نحس من أحد ولا نسمع من صوت ، حتى رعاة المعز غادروا السهول بعد أن تركوا المروج جديبة والأسْوِجة سليبة . وكانت

الشمس تضىء من خلال الغمائم الجهام فتتجمع أشعتها فى جوف الوادى فيشتد حره ، والعصافير المطوقة تثب فى الأدغال تحت أيدينا وهى آمنة . وكنا نقف الحين بعد الحين فنجلس على مصرف من مصارف الماء لنقرأ صفحة أو صفحتين من كتاب الاعترافات ، ولنتحد بجسومنا ونفوسنا مع هذا المكان ، فرأينا الأفَّاق الشاب فى أطماره البالية يقرع باب أنيسى ويلقى كتاب التوصية فى حياء وخجل إلى الغادة المتكفة وهى فى الطريق المقْفرة بين قصرها والكنيسة . وكان الفتى والفتاة ماثلين لعيوننا ، حاضرين فى قلوبنا ، حتى ليخيل إلىَّ أنهما يسمعاننا ، وأننا سنراهما عما قليل فى الشباك أو على مماشى الحديقة بشرميت . ثم ننهض فلا نكاد نعاود السير حتى نعاود الوقوف . كأنما فى كل مكان عاملان أحدهما يجذب والآخر يدفع ، وكأنما كانت فى المكان الواحد قداسة هذا الحب ونجاسته . ولكن حبنا ولله الحمد بنجوة من هذا الخطر ، فنستطيع أن نتخيله ونتمثله كما حملناه فى قلوبنا نقى الصفحة نزيه الغرض لا يُقْرَف بسوء ولا يحاط بشبهة .

ثم قلت فى نفسى : آه ! لو كنت أنا روسو وكانت جوليا دفرنس فماذا كان تأثيرها فىَّ وسلطانها علىَّ ، وهى أسمى من فتاة شرميت ، وأنا أدنى من روسو فى الذكاء ، وإن كنت أدانيه فى الحساسة ؟ !

وكنا إذ ذاك قد علونا وَرَاقاً[١] من الأرض شديد الانحدار والتعرج ، تتخلله أشجار من الجوز قديمة العهد كاد يبليها مرور الزمن . وهذه الشجيرات شهدت هناء الحبيبين ورأتهما يلعبان معاً فوق جذورها . ورأينا على اليمين فى الموضع الذى ضاق فيه الشِّعب حتى كاد جانباه يتماسان شَرفاً من الحجارة الوعرة المتنافرة يقوم عليه منزل السيدة دفرنس ، وهو مكعب من الحجارة الغُبر ينفذ فيه من جهة الشرف باب وشباكان ومثلهما من جهة البستان ، ومن فوق ذلك ثلاث غرفات واطئة وردهة كبيرة على سواء الأرض ، وليس فيه من الرياش إلا صورة السيدة دفرنس وهى فى وفرة شبابها ، ولا يزال محياها الوسيم الضاحك يشع الجمال والخيال والفرح من خلال الغبار الغاشى على الصورة . مسكينة هذه المرأة الفاتنة ! لو لم تصادف هذا الصبي الشرير فأمَّنت سِرْبه وفرجت كربه وفتحت له بيتها وقلبها لانطفأت فى الوحل والقذر عبقريته الحساسة المعذبة . وقد يُظن أن هذه المقابلة جاءت عرضاً عن طريق المصادفة ، ولكنها حظ هذا الرجل العظيم كتبه الله منذ الأزل على وجه خليلته الأولى فأنمته وثقفته وحمسته بالخلوة والحرية والحب . فكان أثرها فيه كأثر الحور

(١) الوراق : الأرض المخضرة من الحشيش

العين على رأى المشارقة فى نفوس المؤمنين ، إذ يسمو بهم طمعهم فى اللذة إلى مقام الصِّديقين والشهداء ، ثم جعلت منه مخيلة قوية مفكرة ، ونفساً نسائية مؤثرة ، ولهجة حنونة رقيقة ، وميلا شديداً للطبيعة ، ووصلت نفسها الشاعرة بنفسه ، فغيرت من طباعه وحسه ، وأعطته العالم فقابلها بالكفران والجحود ، ومنحته المجد فجازاها بالفضيحة والسُّبة ! ! ! ولكن الأعقاب يجب أن يكونوا أشكر للنعمة وأرعى للحرمة ، وأولى من اغتفر لها ذلك الضعف الذى خلق لنا نبي الحرية . على أن روسو حينما آثر العوراء على العيناء فكتب ما كتب عمن أشبلت عليه وأحسنت إليه لم يكن روسو ، وإنما كان ذلك المأفون الأحمق . ومن يدرى ؟ لعل التصور المريض المضطرب الذى خيل إليه أن الصنيعة إهانة والمحبة كراهة ، هو الذى أوهمه أن المرأة الحساسة الشاعرة هى المرأة الهلوك الفاجرة ، وأن الغرام والصراحة هما السفاهة والوقاحة . لقد خامرنى فى أمره الريب ، وحكَّت فى صدرى هذه التهمة ؛ وإنى أتحدى ذوى الدراية بالمنطق والبصر بالكلام أن يحللوا هذه الصورة الغريبة التى صور بها روسو حبيبته ، ويعللوا هذه العناصر المتناقضة المتعارضة التى جمعها فيها وخلقها منها .. ألا يجدونها متنافرة متناكرة يدفع آخرُها أولَها ؟

لو أنها عاشقة مخلصة لروسو لما أشركت به (كلود أنيت) فأحلته معه قلبها، وقسمت بينهما حبها: ولو أنها كانت حريصة عليهما مؤثرة لهما، لما هويت الغلام البيغائي؛ ولو أنها كانت تقية فاضلة لما تمدحت برذائلها وتبجحت بمخازيها؛ ولو أنها كانت جميلة فتانة سهلة كما وصفها روسو لما بلغ بها الأمر أن تنشد هُوَاتها وعبادها بين الصعاليك والأفاقين على قوارع الطرق وأفواه الشوارع؛ وإذا كانت حياتها تصنعاً وتخلقاً لكانت امرأة مال وصنيعة نفاق؛ ولو كانت مداجية منافقة لما كانت هي المرأة الحرة الصريحة المطبوعة التي تجدها في اعترافاته. كلا ليست هذه الصورة صحيحة، وإنما هي رأس وقلب رسمتهما يد عابثة لاعبة. ولابد أن يكون لهذا الأمر سر، وربما كان هذا السر في اليد الضالة التي صَورت. لا في طبيعة المرأة التي صُورت. فلا ينبغي أن نتهم المصور الذي خل ميزانه وضل حكمه، ولا أن نصدق الصورة التي شوهت خلقة جميلة وكرَّهت نفساً نبيلة بعد أن رسمتها وحسنتها. . أما أنا فلم يصح في اعتقادي مطلقاً أن السيدة دڤرنس تتمثل في هذه الصفحات المريبة المبهمة التي كتبها روسو في هزال الشيخوخة وضلال الكبر، وإنما كنت أتمثلها دائماً في خاطري كما بدت للشاعر الشاب في (أنيسي) جميلة حساسة رقيقة فيها شيء من النزق

والمجون على عفاف نفس وورع قلب ، مسرفة فى الطيبة ، ظمأى من الحب ، متحرقة إلى أن تجمع بين عاطفتى الأمومة والعشق فى علاقتها بهذا الطفل الذى ساقته إليها المقادير فوجدت فيه بغية قلبها وحاجة هواها ، هذه هى الصورة الصحيحة صورتُها كما سمعتها من أفواه العجائز والشيوخ فى شمبيرى وأنيسى رواية عن آبائهم .

إن روسو ليحمل فى نفسه الشهادة على ظلمه وإجرامه ؛ وإلا فمن أين له هذه الشفقة السامية الحنون ، وهذا الانقباض المؤنث المحتشم ، وهذه الحساسة الرقيقة الصافية ، إذا لم يكن استمدها من قلب امرأة ؟ كلا إن المرأة التى خلقت مثل هذا الرجل ما كانت وقحة ولا فاجرة ؛ وإنما كانت هيلويزَ ساقطة . وما كان سقوطها فى رَدغة الفحش ولا فى سفالة الخُلُق ، وإنما كان فى لجة الهوى والصبابة

٤٤

جاءت البستانية فأوقدت لنا فى غرفة السيدة دفرنس ناراً وتركتنا نصطليها ومضت لعملها فى المطبخ والفناء دون أن تحذَرنا أو تشغل بنا ، لأنها تعودت أن ترى الأجانب فى هذه الدار وأن

تسمع أحاديثهم الطويلة عن هذا المسرح الذى شهد السنين الأولى لهذا النابغة النابه . ثم قمنا نحن فتنقلنا أحراراً الردمن هة إلى الحديقة ومن الحديقة إلى الغرُف . وكانت الحديقة ، وهى مغمورة بالشمس عارية من العشب والبقل كاسية بالنبات الطفيلى ، أشبهَ بمقابر القرى يأتيها الفلاحون أيام الآحاد فيجلسون تحت جدران الكنيسة يَضْحون للشمس وأرجلهم على قبور الموتى . ترى مماشيها بعد أن كانت فى عهدها الأول مفروشة بالرمل محصوبة بالحصا قد كساها التراب النَّدى وكساها النجيل الأصفر . وما كان أشوقنا إلى أن نكشف عن آثار أقدام السيدة فى العهد التى كانت تتنقل فيه من شجرة إلى شجرة ومن كَرْمة إلى كرمة ، وفى يدها مقطف تجنى فيه الكمثرى من البستان أو العنبَ من الكرم ، وبجانبها ذلك التلميذ أو المعترف تطير معه فى الروض طائشة كما يطير الفَراش أو يطيش الظليم . على أنه لم يبق من أثرهما فى بيتهما غير نفسيهما ، فكان اسماهما ، وذكراهما ، وصورتاهما ، والشمس التى رأياها ولا تزال تَشعُ بشبابهما ، والهواء الذى نشقاه ولا يزال دافئاً بأنفاسهما رناناً بأصواتهما ، كل ذلك كان يغمرنا بما كان يغمر به ربوعهما ويبهج ربيعهما من نور ونفَس وحلم وحركة . وكنت أرى من سحنة چوليا المفكرة وصمتها الناطق أن هذا

المعبد معبد الحب والعبقرية قد فعل فى قلبها ما فعله فى قلبي من الأثر القوى والتفكير البالغ . وقد حاولتِ الفرار منى لتخلو إلى نفسها ، وتستسلم إلى فكرها وحسها ، فتركتنى فى الحديقة وعادت هى إلى البيت تريد أن تستدفئ . فلما لحقت بها هناك انقلبت إلى الحديقة فجلست على مقعد حجرى فى الجوسق فتبعتها إليه ، وكان ما تخلف من الأوراق الذاوية المصفرة على عساليج الكرم لا يستطيع حجب الشمس عن هذا الجوسق فنام فيه الضوء وتمدد . ثم قلت لها بلهجة العاتب الحانى : ما هذا الذى شغلك فأردت أن تفكرى فيه من دونى ؟ فقالت : واأسفاه ! وهل أستطيع أن أفكر وحدى ؟ إنى أقول لنفسى ليتنى كنت لك فصلا واحداً من الدهر كما كانت السيدة دڤرنس لروسو حتى ولو قضيت مثلها بقية أيامى فى القطيعة والمنقصة ، وكنت أنت مثله كافرا بالمعروف رامياً بالتهم ! ما كان أسعد قلبها وأرغد عيشها ! لقد استطاعت أن تضحى بنفسها فى سبيل من أحبت ! فقلت لها وقد عدت بها إلى البيت : ما هذا الكفران والنقصان اللذان تصمان بهما نفسك وحبك ؟ هل بدرت منى إليك لفظة أو لحظة تفهمين منها أن هنائى مَشُوب وأن سعادتى منقوصة ؟ لِمَ لا يتصور خاطرك الطاهر أن يكون لهذا الذى تشبهينه بروسو

حبيبة أخرى فتية نقية عذراء تقدم إليه نفسها لا جسمها ، وتفتح له قلبها لا بيتها ، وتبسط له انقباض الحيـاة ، وتنير أمامه ظلام الوجود ، وتطهره من رجس الهوى بنار الحب ، وتغسله من دنس الشهوة بدموع الألم ، وتعلمه أن لذة الحب فى التأمل والحرمان أبلغ منها فى التبذل والمنح ، وتدفعه إلى المجد والفضيلة والإيثار بحملها إياه على أن يعتقد أن هذه الخلال قبس من الحب ، وهى كلها مدد لـكنز الحنان الذى يمتلىء فى الأرض ليُفتح فى السماء ؟ وأدركنى الخورُ والإعياء من التأثر فتطرحت بعيدا عنهـا على كرسى واعتمدت وجهى بيدى ولبثت طويلا لا أتكلم . فقالت لى : هلم فإنى أحس البرد وهذا المكان لا يلائمنا . . فأعطينا المرأة شيئاً من النقود وخرجنا فأخذنا الطريق إلى شمبيرى .

٤٥

كانت جوليا قد اعتزمت الرحيل بكرة الغـد إلى ليون . وكان لويس قد جاء ليلة السفر يزورنا فى الفندق ، فحملته على أن يسافر معى لنقيم بضعة أسابيع فى بيت أبى . وكان موقع هذا البيت على الطريق بين ليون وباريس . وخرجنا معاً نبحث عند السرَّاجين فى شمبيرى عن مركبة صغيرة مكشوفة تقلنا ، ثم نستطيع ونحن

على مقعدها أن نتتبع بالنظر مركبة صاحبتى حتى البلد الذى يدهمنا التفرق فيه . فظفرنا بما كنا نبغى . ولم يكد الفجر يبزغ حتى كانت الخيول تعدو بالمركبتين فى المضايق المتعرجة من سفوا . وكلما بلغنا مرحلة نزلنا فسألنا عن حال المريضة . واحسرتاه عليها ! لقد كانت كل دورة من عجلة المركبة تقصيها عن منبع الحياة الذى وجدْته فى سفوا ، وتجفف ما ترقرق من ماء الشباب فى وجهها ، وترد إلى محاجرها وملامحها ذلك النحول الكاسف وتلك الحمى الباردة التى أثرت فىَّ ونالت منى يوم لقيتها لأول مرة . ولما وردنا برج الصنوبر من طريق ليون صعدنا إليها فى مركبتها نهوّن عليها ونسليها ، ورجوت منها أن تغنى لصديقى أغنية الملاح الإيقوسى ، فغنتها إطاعة لى ، ولكنها لم تكد تبدأ المقطوعة الثانية التى تذكر فراق الحبيبين حتى تمثلت فيها موقفينا ، ووجدتها تعبر عن حالينا ، فخانها الصبر ورهقها الجزع وانهلّت مدامعنا ومدامعها انهلال القَطْر . فسدلت على وجهها شالا أسود ، ورأيتها تنتحب من خلاله طويلا ، حتى بلغنا المرحلة الأخيرة فأصابتها غشية شديدة دامت إلى أن وقفنا على باب الفندق ، فساعدتنا خادمة الخان على حملها إلى سريرها ولزمته حتى المساء فاستفاقت ، وفى صباح اليوم التالى تابعنا المسير إلى (ماكون) .

٤٦

وفى هذا البلد حُم الفراق ودنت روعة البين ، فزودنا سائقها بنصائح ضرورية ووصايا لازمة . واختصرنا التوديع مخافة أن يهيج أشجانها ويزيد آلامها كما يسرع الجراح فى شق الجرح اتقاء لصيحة المجروح . ومضى صاحبي إلى ضيعة أبى وتخلفت عنه لألحق به . على أن لويس لم يكد يغادر (ماكون) حتى وجدتنى فى حالة لا أستطيع معها البر بما وعدته ، ولا الصدق فيما قلته . فقد وقع فى فكرى أنى إذا تركت چوليا تقطع هذه الشقة البعيدة فى فصل الشتاء شاكية باكية لا يُعنى بها ولا يقوم بأمرها غير خادمين ، أدركها المرض أو عاجلها الموت وهى وحدها فى خان أو فى أى مكان ، تذكرنى ولا أدرى وتدعونى ولا أجيب ، فعدلت عن السفر وقررت فى نفسى أن أسايرها على بُعد فأسهر عليها وأرعاها ، حتى تبلغ مأمنها ومأواها . ولكن يدى من المال صفر ، والشيخ الطيب الذى أقرضنى الخمسة والعشرين ديناراً زاره الموت فى غيبتى ، فخلعت ساعتى وسلستها الذهبية من صدرى ، وسيفى من عاتقى ، وطرازى من سيفى ، وشرائطى الفضية من حلتى ، وجمعت هذا كله فى معطفى وذهبت به إلى جوهرىٍّ أمّى فبعته منه بخمسة وثلاثين ديناراً ومضيت مسرعاً إلى الفندق الذى نزلت فيه چوليا

ودعوت سائق مركبتها وقلت له إنى مسايرك من بُعد حتى تبلغ أبواب باريس ، ولكن لا أريد أن تفطن سيدتك إلى ذلك مخافة أن تحول ما بينى وبينه . ثم استفهمته عن أسماء المدن والفنادق التى سيقف بها أو ينزل فيها حتى أنزل بنزولهم وأرحل برحيلهم . ثم أجزلت له المكافأة مقدماً على حصانة صدره وصيانة سره ، ومضيت فاحتجزت لى خيلا من البريد وقمت على أثرها بعد سفرها بنصف ساعة .

٤٧

لم يحل بينى وبين هذه الرعاية الخفية حائل . ومضى السائق أمامى كلما مر بمحطة يُسِرُّ إلى عمال البريد أن مركبة من ورائه توشك أن تصل وهى تحتاج إلى جوادين ، فيعدونهما وينتظروننى بهما حتى أصل فأشدهما ، ثم أتابع السير مسرعاً مرة ومبطئاً أخرى تبعاً لما أريد من البعد أو القرب من المركبة الحبيبة . فإذا ما علوت شرفاً من الأرض أبصرت بها تدرج على جَدَد السهل فى أطباق الضباب أو فى ضوء الشمس حاملة سعادة نفسى ونعيم حياتى ، فيسبق فكرى إليها عَدْو الجوادين ويغشاها فى المركبة فإذا هى راقدة تحلم بى ، أو يقظانة تبكى أيامنا الخالية وهناءنا الراحل . ولا أستطيع

أن أعلل الآن كيف تسنى لى أن أغالب شعورى ، وأكظم على ما فى نفسى من النزوع والتوثب مسافة عشرين ومائة فرسخ فلم أقتحم الطريق إلى المركبة التى أقلت هواى وتجمعت فيها مناى وتعلقت بها روحى ، تاركة جسمى يهيم وراءها غير عابئ بما يصدمه من هزات العجلات ويؤلمه من سفعات الجليد ! ولكن خوفى عليها من أثر اللقاء المفاجئ وتجديد موقف الوداع المؤلم ، ورغبتى فى أن أقوم على حراستها وأسهر على سلامتها ، بعين العاشق النزيه حبس عنانى وقطع علىَّ وجهى .

نزلَتْ للمرة الأولى فى فندق أوتين الكبير ونزلت أنا فى خان الضاحية على مقربة منه . فبتنا ، وقبل أن يتنفس الصبح كانت المركبتان تكرّان على الطريق خلال السهوب المغبرة ، أو بين غياض السنديان العتيقة من عُلْيا بُرْجونيا . ثم وقفنا بدَمَنْكرة أقَالون : هى فى قلبها وأنا فى طرفها . وفى غد ذلك اليوم أخذنا الطريق إلى سَنْس . وكان ماركَتْه ريح الشمال من الثلج حول الهضاب الوعرة الشم (من لُوسى لُبْوا) و (فرْمانتون) قد أخذ يسّاقط كبباً منحلة على الجبال والطرق ، فأخفت صوت العجلات ، وأصبح مما يشق على العيون أن تميز الأفق المُضِبَّ من زرور الثلج الذى تعصف به الريح فوق الأرض . فاستحال علىَّ حينئذ

أن أقيس المسافة بين المركبتين بالسمع والبصر . وبينما أنا كذلك إذ بصرت فجأة بمركبة چوليا واقفة أمام جوادىَّ فى وسط الطريق ، والسائق قائم على سلمها ينادى بالويل والجزع ، ويبدى حركات الحزن والهلع ، فوثبت إلى الأرض وطرت إلى المركبة ودخلتها فإذا هى مغمى عليها من أثر الكلال وتغير الجو وروعة البين ، ووصيفتها تحاول تنبيهها فلا تتنبه . فأخذت بين يدىّ رأسها الحبيب ساعة طويلة من الزمن كانت هى فى غيبوبة الحس ، وأخذت الوصيفة بقدميها ووضعتهما على ركبتها ، وطفقت تفركهما وتضمهما إلى صدرها ، وذهب السائق إلى الأكواخ البعيدة يقتبس منها ناراً ، أو يلتمس منها ماء ساخناً . وأنا فى أثناء ذلك ينتابنى من الشعور المختلف بين الرغبة فى أن تعرفنى ، والرغبة فى أن تجهلنى ، ما لا يدركه ولا يعبر عنه إلا من اقتتل الموت والحياة على قلبه .

وَكانت نتيجة هذه العناية الرءوف والعلاج المنعش أن دبت فى جسمها الحرارة وانتشرت فى وجنتيها الحمرة ، وانفرجت شفتاها عن تنفس طويل خافت . فعلمت أنها تستفيق ، فوثبت خارج المركبة حتى لا يقع بصرها علىّ إذا ما فتحت عينيها ، ووقفت إلى جانب العجلة قليلا وقد سترت وجهى بمعطفى ، وأوصيت الخادمين أن يخفيا عنها وجودى . فأشار إلىَّ أحدهما أن السيدة قد عادت

إلى نفسها ، وسمعتها تقول وكأنها تحلم : « آه لو كان رفائيل حاضراً ! لقد أحسست رفائيل بجانبي ! » فصعدت مركبتي وانطلقت الخيول تعدو حتى وقفت بنا فى « سَنْسَ » ؛ وهناك فى العشية سألت عن حالها فقيل لى : إنها الليلة أصلح . وهى الآن نائمة ملء عينيها . ثم تقصصت أثرها حتى « فوسار » وهى محطة للبريد قريبة من مدينة مونترو . وفى هذا الموضع ينشعب طريق سنس إلى باريس شعبتين إحداهما تمر بفُنْتِنبلو والأخرى بميلن ؛ وهذه الشعبة أقصر من تلك ببضعة فراسخ ، فأخذتها حتى أسبق جوليا إلى باريس فأستطيع أن أراها وهى تنزل من المركبة أمام بيتها . وضاعفت الأجر لساقة البريد فأدخلونى باريس قبل دخول الليل بوقت طويل . فنزلت بالفندق الذى اعتدت النزول به . ولما غشى الليل ذهبت فكمنت على رصَف من أرصاف السين إزاء بيتها وقد كنت عرفته من طول ما وصفته لى فكأنما قضيت به ذاهب عمرى . اطَّلعتُ فى داخل البيت فرأيت من خلال زجاجه ظلالا تذهب وتجىء استعداداً لقدوم الضيف العزيز ، ولمحت فى غرفتها سطوع نار الموقد فى سمائها ، وفى أحد الشبابيك وجه شيخ يقترب فيرى الناس ويتسمع إلى حركة الشارع . ذلك كان زوجها وأباها . وكان البوابون قد تركوا الباب مفتوحاً ، وهم بين آونة وأخرى يخرجون

فينظرون ويسمعون أيضاً، وأمام البيت مصباح قد عبث بضوئه هواء ديسمبر العاصف فهو ينشر نوره على البلاط ثم يطويه فى خمود وسرعة. ثم خرجت من أحد الشوارع مركبة من مركبات البريد وأقبلت تسرع حتى وقفت أمام ذلك المنزل . فبادرت إلى ظل عمود هناك أمام البيت المجاور لبيتها فتسترت به ، ورأيت الخدم يستبقون باب المركبة وچوليا تنزل منها فى حضن الشيخ ، والشيخ يقبلها قبلات الوالد لولده بعد غياب طويل ؛ ورأيتها تصعد السلم متثاقلة متطرحة تتحامل على ذراع الحاجب. وقفلت المركبة بعد تفريغها من المتاع راجعة ، وأغلق الباب وعدت إلى محلى الأول بالقرب من حاجز النهر .

٤٨

لبثت طويلا أرقب شبابيك بيتها وقد أضاءت المصابيح ، وحاولت أن أقف على ما يحدث داخل البيت فلم أر إلا الحركة العادية التى تعقب قدوم المسافر من حمل حقائب وفك صُرر وترتيب أثاث . فلما همدت الحركة ووقف تَنَقُّلُ المصابيح من حجرة إلى حجرة ، وانطفأ النور إلا من غرفة الشيخ فى الطابق الأول ، رأيت من خلال الزجاج قدها الممشوق يرتسم ساكنا

أسود على بياض الستور ، وبقيت ساعة على تلك الحال ، ثم فتحت الشباك على رغم البرد واطّلعت لحظة فى السين من الجهة التى تلينى ، كأنما ألهمها الحب أن تصوب نظرها إلى . ثم استرجعت بصرها وأرسلته إلى جهة الشمال فراقبت كوكباً كنا نديم النظر إليه معاً واتفقنا على أن نجعله موعداً للقاء ومجتمع النجوى متى حُمّ الفراق وشط المزار ، فيرقبه كلانا من جهته ، وتلتقى عنده روحانا فى خلوة السماء الآمنة . رأيتها ترعى هذا الكوكب فكأنما لذع كبدى جمرة متقدة ، وأقصدَ فؤادى سهم ناصل . ففهمت أن روحينا تلاقتا فى مكان واحد واجتمعتا فى فكرة واحدة . فحل ذلك عرى عزمى فقمت كأنما نشطت من عُقال ، وعدوت حتى وقفت تحت نافذتها ، وناديتها بما يدلها على أن أخاها تحت قدميها . ولكنها فى تلك اللحظة كانت تغلق الشباك ؛ وطغى دروج المركبات على صوتى فأخفاه ، وانطفأ النور من أسفل البيت فوجمت مكانى لا أتحرك ، حتى سمعت ساعة تعلن انتصاف الليل فاقتربت من الباب وقبلته وأنا واجف القلب مرتهك المفاصل ، ثم جثوت على عتبة البيت وابتهلت إلى جدرانه أن تحفظ ما استودعتها من مهجة القلب ومنية النفس وأثمن القُنَى ، ثم غادرت المكان والنفس هائجة والفؤاد زاخر .

٤٩

وفى الصباح تركت باريس دون أن أعوج على أحـد من أصحابى فيها . وكنت بذلك سعيد النفس راضى الضمير ، لأنى لم أنظر نظرة ولم أقل كلمة ولم أخط خطوة إلا فى سبيلها . غير أنى وضعت فى صندوق البريد قبل أن أغادر المدينة رسالة قصيرة إلى چوليا تصلها عند هبوبها من النوم وما فيها غير هذه الـكلمات :

« لقد تبعتك من بعيد ، وكلأتك بعينى خِفْية ؛ ولم أستطع أن أفارقك قبل أن أراكِ فى حمى الحانين عليك ورعاية الـكَلفين بك . ولقد كنت هناك ساعة فتحت الشباك عند منتصف الليل وتنهدت وأنت تنظرين إلى الـكوكب . ولو كنت تكلمتُ لسمعتِ كلامى ؛ غير أنك تقرأين هـذه السطور حينما أكون بعيداً عن باريس محمولاً على جناح النوى إلى البلد القصىّ . . . »

٥٠

سِرْت النهار وسَرَيت الليل ذاهب اللب ، مستطار القلب ، مشرد الفـكر ، لا أحس البرد ، ولا أجد الجوع ، ولا ألاحظ المسافة حتى بلغت (م) . . فـكأنى صحوت من حلم . وكأنى لم

أذهب إلى باريس ، فوجدت صديقي لويس ينتظرني في ضيعة أبي ، فكان وجوده جلاء لقلبي من الهم وعزاء لنفسي من روعة البين ، إذ استطعت أن أبادله الحديث عن تلك التي أعجب بها وهام في حبها كما أعجبت وهمت . كنا ننام معاً في حجرة واحدة ، فكنا نقطع صدور ليالينا بالحديث عن هذه الظاهرة الإلٰهية والمخلوقة الفاتنة . وكانت في رأى لويس خَلْقاً يَكْبُر في صدور النوابغ ويسمو فوق الطبيعة ، أمثال بياتريس حبيبة دانتي ، وإلينور حبيبة تاس ، ولورَا حبيبة بترارك ؛ أو مثل ڤيتوريا كولونا التي جمعت بين الشعر والحب والبطولة ، وغير هؤلاء ممن هبطن الأرض وجُزْنها دون أن يمسسنها أو يقفن بها إلا ريثما يفتِنَّ بعض العيون البصيرة ، ويسبين بعض القلوب الكبيرة ، ويوحين إلى نفوس المصطفين الأخيار حقيقة الخلود وسر الوجود وطموح العظمة . على أن لويس لم يستطع أن يرفع حبه لها إلى مستوى إعجابه بها ، لأن قلبه الرقيق المدنف قد شغلته في زمن باكر فتاة يتيمة من أهله ، حلاَّها الله بالجمال والأدب ، كما أخلاها من الأهل والنشب . وكان حديث قلبه ومَرَاد أمانيه أن يتزوج منها ويعيش معها في هدوء العزلة ودعة الخمول في بيت صغير على هضاب شمبيرى . ولكن الفاقة التي هاضت جناح الحبيبين قعدت بهما عما يبغيان ، فلم يتعديا حدود

الصداقة البائسة ضنا بأهلهما على الخصاصة والعوز ، وإشفاقاً على أولادهما من عاقبة الشقاء ووراثة البؤس . ولم يمض بضع سنين حتى لحقت الفتاة بربها مفجوعة بحبها ، فريسة للخذلان والوحدة ؛ وعهدى بها أنضر زهرة فى روض الحيـاة مسها الفقر والضر فصوّحها وأذواها ، ورأىُ عينى[١] وجهها تشرق فيه لمعة من أثر الشباب النضر ، وتلوح عليه تلك السمة التى يطبعها الشقاء على الوجوه العروفة المحتسبة[٢] . وكان قد ذهب ضوء عينيها قبل ذهاب حبيبها من فرط الاستعبار وطول الانتظار فى الأسى والشك . ولقد لقيتها مرة وأنا عائد من إيطاليا تقودها أختها الصغيرة فى شوارع شمبيرى . فلما سمعت صوتى انكفأ[٣] لونها وانسرقت قواها ، وتحسست بيدها شيئاً تتحمل عليـه مخافة السقوط ، ثم قالت لى : عفواً ومعذرة ! إن ذلك حدث لأنى تعودت كلما سمعت هذا الصوت أن أسمع بجانبه صوتاً آخر . وارحمتاه لك أيتها الفتاة ! إنك تسمعين الآن صوت حبيبك فى السماء ! .

---

(١) أى كنت أرى وجهها دائما على هذه الحال
(٢) العروفة : الصابرة
(٣) انكفأ لونها : تغير

٥١

ما كان أطول الشهرين اللذين قضيتهما بعيداً عنها على الرغم مني ومنها فى الضيعة أو فى المدينـــة انتظاراً لموعد اللقاء بها فى باريس!! لقد استنفدت أثناء الثلاثة الأشهر المنصرمة كل مارصد لى أبى من مال ، وأمدتنى به أمى من معونة ؛ واستعنت بمال أصحابى على أداء القروض التى ألجأنى إلى عقدها السرف والميسر والأسفار ، فلم يعد فى وسعى احتيال شيء من المال أتبلغ به إلى باريس ، وأعيش عليه هناك رَدحا من الزمن ولو فى ضيق وعزلة. فاضطررت إلى انتظار يناير وهو موعد القسط الرابع من مرتبى الذى أجراه علىّ أبى ، والوقت الذى تعوّد عمى الغنىّ الجامد ، وعمتى البارة الحازمة أن يرضخا [1] إلى شيئاً من مالهما ، ورجوت أن يتجمع فى يدى من هذه الموارد ستمائة فرنك أو ثمانمائة تمكننى من الإقامة بباريس بضعة شهور . ولم أعد أشعر بعض الغضاضة من عيش الكفاف لأن سعادة نفسى وراحة حياتى تجمعتا فى حبى . فلو أن لى ما فى العالم من رزق ومال لبذلته راضياً فى شراء لحظة من نهار أرجو أن أمضيها معها . ثم شغلت أيام الانتظار بالفكر

(١) رضخ له : أعطاه قليلا

فيها والكتابة إليها وفعلت هي كذلك . فكنا نجلس كل يوم بعد الهبوب من النوم كلٌ في غرفته يكتب إلى الآخر فلا يمر يوم دون أن تتقابل رسائلنا وأفكارنا في الطريق فتتساءل وتتجاوب وتمتزج دون أن ينقطع سيلها أو تجم خيلها يوماً واحداً . فلم يكن في الحقيقة بيننا غير فراق ساعات من المساء والليل . على أنني كنت أملأها هي أيضاً بالنزوع إليها والتفكر فيها ، وأضرب حولي نطاقاً من رسائلها أنشرها على مكتبي ، وأنثرها على سريري ، وأحفظها عن ظهر قلب ؛ ثم أقرأ على نفسي منها الفِقَرَ الغزلية المؤثرة مقلداً في القراءة صوتها ولهجتها وحركتها ونظرتها ، ثم أرد عليها بصوتي ولهجتي فيتسنى لي بذلك أن أخدع نفسي وأوهمها أن حضورها معي حق لاشك فيه . حتى إذا اقتحم الحجرة عليّ زائر أو خادم أحس كأنه انتزعها مني أو طردها عني . وأخرج إلى النزهة في الجبال والمروج الحافة من حول النهر ومعي رسالة الصباح الواردة منها ، ثم أجلس لقراءتها مرات فوق الصخور أو على شاطئ النهر أو فوق قطع الجليد ، وكلما قرأتها مرة تكشّف لي الكتاب عن كلمة أو لهجة ندّت عني لأول مرة . وأتذكر أني كنت أتجه دائماً في جولاتي نحو الشمال عن غير قصد . كأنما كل خطوة أخطوها نحو باريس تدنيني منها وتقلل من تلك الشقة

البعيدة التى تفصل بيننا . وكثيراً ما كنت ألجُّ فى المسير وأمعن فى طريق باريس على هذه النيـة حتى يستحيل المضى ويتحتم الرجوع ، فينشب فى نفسى عراك شديد قبل أن أقتنع بالعودة . هناك أرسل طرفى الباكى إلى الناحية التى تظلها من الأفق ، ثم أعود أدراجى ثقيل الخطى بطىء الحركة . ولشد ما كنت أغبط الغربان السابحة فى الضباب إلى جهة الشمال على أجنحتها الموقَرَة بالثلج ! وما كان آلم لنفسى وأمَضّ لفؤادى أن أرى المركبات دارجة على طريق باريس ! وما كان أرضانى أن أنزل عن شبابى الباطل إلى هذا الشيخ العاطل الذى ينظر إلىَّ من باب المركبة على أن أذهب فى طريقه ويعود فى طريقى ! آه ! ما كان أطول أيام ديسمبر وينابر على قصرها ! إن الساعة الوحيدة التى كنت أهنأ فيها من بين تلك الساعات هى التى كنت أسمع فيها وأنا فى غرفتى خطى ساعى البريد وصوته . حينئذ أفتح الشباك وأطلع فأراه فى أقصى الشارع مملوء اليدين بالرسائل يوزعها على الخادمات ثم يقف أمام كل بيت هنيهة ينتظر أن يخرجن إليه بالأجر . وكم من مرة لعنت هؤلاء النسوة الساذجات على تلكُّئهنّ وحرصهن على أن يعددن النقود فى يد الساعى قطعة قطعة . وقبل أن يقرع الساعى باب منزلنا كان يرانى واقفاً على العتبة خافق القلب فارغ الصبر

فيأخذ فى تصفح العناوين وعيناى تسبقانه إلى اكتشاف الرسالة الأنيقـة ذات الورق الهولندى والخط الإنجليزى حتى أجدها فأتناولها واليد مضطربة والمفاصل مرتبكة والعين عاشية والقلب واجف . ثم أخفيها تحت ثيابى مخافة أن تراها أمى فترتاب فى هذه المكاتبة المستمرة ، وأهرب بها فى غرفتى فأوصد بابها على ، ثم آخذ فى تلاوتها وأنا آمن . ولا تسل عما ذرفته فوق هذه الأوراق من عبرات وما طبعته عليها من قُبل ! ولقد فتحت بعد سنين هذا المجلد من الرسائل فوجدت وا أسفاه كثيراً من الكلمات قد محته شفتاى فاستبهمت معانى الجمل . وكثيراً منها خلطه الدمع أو عبثت بورقه نشوة الطرب !

٥٢

وبعد الغداء كنت أصعد إلى غرفتى العليا فأعيد قراءة رسالتها ثم آخذ فى الرد عليها . وتلك كانت أطيب ساعات النهار فى نفسى وأسماها : كنت آخذ أربعة أدراج من الورق الهولندى الرقيق الكبير ، فأبدأُ الكتابة من أول طرفها الأعلى إلى آخر طرفها الأسفل حتى لا أترك فيها فراغاً . ثم أعود فأدبج الهوامش وأطرز ما بين السطور حتى لا أدع فيها بياضاً . أملأُ هذه

الصحائف كل صباح ثم أشعر أنها أضيق من أن تسع خواطرى الفائضة المضطربة ، وأعجز من أن تصور عواطفى المتشعبة الملتهبة . لم يكن لتلك الرسائل ابتداء ولا انتهاء ولا وسط ولا قواعد ولا شىء مما تواضع الناس عليه فى الإنشاء ، وإنما كان فيها نفس عارية مجردة أمام نفس أخرى تشرح لها جهد الطاقة ما يجيش فيها من شعور ويعتلج بها من عواطف . تشرحه بهذه اللغة الناقصة القاصرة : لغةِ الناس التى لم تخلق لشرح الغامض وتفسير المبهم ، وإنما هى علامات ناقصة وكلمات فارغة وجمل جوفاء وألفاظ باردة ، تصهرها نفوسنا بقوتها وحميتها واضطرامها صهر المعدن الآبى على النار ، ثم تصوغ منها لغة أثيرية مبهمة متقدة كألسنة اللهب نفهمها نحن ولا يفهمها الناس لأنها من نفوسنا وذواتنا . أبداً لا ينقطع تدفق نفسى ولا يبرد . فلو أن السماء كانت صحيفة وأرادنى الله على أن أرقم فوقها حبى لما وسعت هذه الصحيفة كل ما أردده فى نفسى وما أريد أن أقوله ! لقد كنت أفرغ من نمنمة الصحائف الأربع وكأنى لم أقل شيئاً ! والحق أنى لم أقل شيئاً ، فإن الإحاطة باللانهاية والتعبير عنها محال وباطل .

٥٣

لا أزعم أن هـذه الـكتب من طرائف الـكلام ونوادر الفكر وروائع الفن ، وإنما أزعم أنها لذتنى وأفادتنى ومهدت لى سبيل الـكتابة حينما عرضت فيما بعد لأحوال الناس ولأخلاقهم بالوصف والتحليل فيما ألفت من كتب ونظمت من شعر . فاستطعت أن أرسم الفروق الدقيقة وأصور المنازع المختلفة وأعبر عما يعترى النفس من فتور وسقم ، أو حمية وحدَّة . لقـد كنت أجاهد على غير قصد فقر هذه اللغة وجمودها وبرودها لأنى مضطر إلى استعمالها مادمت لا أعرف لغة السماء . وكانت الجهود الخارقة التى بذلتها فى إخضاعها وتليينها وبسطها وليِّها وتصويفها وتلوينها ، وإلهاب عبارتها أو إطفائها ، ثم الحاجة إلى التعبير بالـكلمات عن أخص العواطف وأدقها ، وأسمى الخواطر وأرقها ، وعن نوازى القلب الجموح وعفة الهوى المحتشم ، وإلى تصوير النظرات والهيئات والزفرات والصمت والنحول وفناء القلب فى عبادة حبيبه النائى ؛ كل هذه الجهود وإن كسرت القلم فى أناملى كما تكسر الآلة العصية فى يد الفنان ، مكنت لهذا القلم الـكسير أن يجد أحيانًا الـكلمة أو الحيلة أو العبارة أو الصرخة التى يبحث عنها

ليظهر الخفى ويبرز العقلى ويصور المستحيل .

لذلك أتذكر أنى كنت كلما فرغت من رسالة نهضت من كرسيّ كأنى خارج من معركة شعواء ، خصومى فيها الكلمات واليراعة والطرس ، فأفتح الشباك وأعرض وجهى لنسيم الشتاء البارد ليجفف ما ارْفَضَّ عليه من العرق .

٥٤

على أن رسائلى لم تكن مقصورة على ضرخات القلب وأنات الحب ، وإنما كانت فى الغالب من الأمر صلوات وأدعية ، وتأملات وتعزية ، وأملا فى المستقبل ورجاء فى الله . لأن هـذا الحب المحروم بطبيعته من الملذات التى تميت القلب بإحياء الحواس ، كان قد فجر ثانية فى نفسى ينابيع الشفقة التى غَوَّرتها الشهوات السافلة ، أو كدرتها النزعات الباطلة . وكثيراً ما كانت هذه العاطفة الدنيا تتغلب على العواطف السامية الطاهرة ، فأجهد أن أرفع معى إلى ملكوت السموات هـذه النفس الثانية المعذبة المجدبة على أجنحة مخيلتى الوثابة الطموح . فكنت أتحدث فى هذه الرسائل عن الله ، وهو وحده القادر بكماله على أن يخلق هذا الجمال الفاتن وتلك العبقرية الرائعة وهذا الحنان المحض ؛ وهو وحده القوى

على أن يحتوى أملنا الواسع ويستوعب حبنا العظيم ؛ وأعزى جوليا عن تضحيتنا بهذه السعادة الدنيوية الكاملة على مذبح الواجب ؛ وأرفع لها من قيمة هذه التضحية عند الله الذى يثيب على الخير ويكافئ على الفضيلة ؛ وأبارك على نزاهة حبنا اليائس وطهارة قلبنا الكسير ، مادام هذا الشقاء الزائل يؤدينا إلى السعادة الخالدة والنعيم المقيم مع الأبرار فى عِلِّيين . حتى لقد بلغ بى الأمر أن عددتنى وعددتها فى زمرة السعداء ، ورحت أرتل أناشيد التفويض والتسليم كما شاء الحب العذرى وقضى به الواجب المقدس . وتوسلت إلى جوليا ألا تألم وألا تفكر فى آلامى . وأظهرت لها الجلادة على المكروه والاحتقار لتلك السعادة الدنيوية التى كانت تجرى على لسانى دون أن يتأثر بها وجدانى ؛ وأريتها أنى تجردت من منازع الناس ، وتخلصت من طبائع الحيوان ، وأصبحت فى روحية الأملاك ، وسموت إلى مسبح الأفلاك ، حتى لا يخامرها شك فى أننى آلمُ من حبها أو نادم على عبادتها ؛ ورجوت منها أن تنشد فى ظلال الكنيسة وفى إيمان المسيح إلهِ الدموع ورمز الألم ما وجدته أنا نفسى فى عهد صباى من الرجاء القريب والعزاء المفرّج والبشاشة المروّحة . ثم ألفت لها أدعية ضارعة قوية تصعد إلى السماء صعود اللهب لا يحجبه

حاجب ولا تعبث به ريح . وطلبت إليها أن تتلوها فى ساعات معينة من الليل والنهار حتى أتلوها معها ، فتجتمع خواطرنا وترتفع معاً فى ساعة واحدة وفى صلاة واحدة . . . . ثم أبلل كل هذا بالدموع ، فتترك الدموع أثرها بين السطور . فيكون هذا الأثر أنطق من السطور نفسها وأبلغ .

ثم كنت أذهب خفية إلى البريد فألقى به نخاع عظامى وسواد قلبى ثم أعود رافه النفس خفيف الجسم كأنما ألقيت حملا كان يفدح قلبى ويبهظ حشاى .

٥٥

ومهما يكن من جهودى المستمرة فى هذه المعركة الناشبة بينى وبين اللغة العاجزة العصية ، وإعناتى القريحة وهى ملتهبة فتية ، لتُلهب رسائلى بنار قلبى الكاوية ، ولتجتاز نفسى مسكوبة على القرطاس هذه المسافة النائية ، فإنى لم أبلغ مدى جوليا فى هذه السبيل ، ولم أستطع أن أجرى معها إلى هذه الغاية . فإن الجملة الواحدة من رسائلها كانت أبلغ دلالة وأقوى أثراً من صفحاتى الثمان . فلقد تدنيك من نفسها حتى تجد أنفاسها فى الكلمات ، وترى نظراتها فى السطور ، وتحس حرارة شفتيها فى الجمل . فلا

تفقد شيئاً فى نقل الشعور إلى اللفظ . ومن عادة هـذا النقل أن يخمد الشعور ويذوى العاطفة فى قلم الرجل . ولـكن المرأة ليس لها أسلوب ، فهى لذلك تحسن القول فى كل وجه ، وتبلغ به فى كل غرض . وما الأسلوب إلا ثوب ، والنفس عارية على لسان المرأة أو فى يدها ؛ فالعبارة عنها تنبعث من العاطفة عارية عرى الزُّهرة وِلدت بنفسها ثم تعجب لأنها وُلدت ، وأعجب من عجبها أنها قبل أن تعرف نفسها قد عُبدت ! .

٥٦

ولا تسلنى عن رسائلها كيف كانت . فماذا عسى أن أقول لك عن الضرَم المتقد ، والضوء الشاحب ، والألوان المتغيرة ، واللهجات المؤثرة ، والنار المختلطة بالنقاء اختلاط الومض والصفاء فى حجر المـاس ، أو الحمية والطهر على جبين الفتاة المحبة ؟ وكيف أحدثك عن السذاجة القوية ، والمناغاة الثرَّة ، واليقظة الفاجئة ، والأغانى الشادية ؟ وعاذا أصف لك الحب الحزين الذى تشعر به شعورك بالرجع الخافت فى آخر اللحن الرخيم ، وتلك الملاطفة بالـكلمات التى تحسها على جبينك كما تحس أنفاس الأم المداعبة على جبهة طفلها الباسم ، وتلك الهدهدة اللذيذة بالصوت الخافت ،

والجمل المغمغمة التى تغمرك بالنور والسرور والعطر والدعة ، وتنقلك بالمقاطع المنومة على رُودٍ ومهل حتى تصل بك إلى راحة الحب وغفوة النفس ، وتقف عند قبلة الوداع التى طبعتها شفتها على الصحيفة فتقطفها فى سكون وصمت ؟ .

لقد وجدت ثانية هـذه الرسائل وتصفحتها ورقة ورقة . وجدتها بعد موتها وقد جمعتْها ورتبتها وغلفتها يدٌ صديقة تقية ، وقرنت كل كتاب إلى جوابه ابتداء من أول رسالة إلى آخر كلمة لفظتها المحتضرة وخطتها يد أرعشها الموت وسندها الحب . فأعدت قراءتها ثم أحرقتها وأنا دامع العين دامى الفؤاد ، بعـد أن غلقَت الأبواب كأنى أهم بجريمة ، وبعد أن نازعت اللهب عشرين مرة على كل صحيفة أكل نصفها لأعيد قراءتها قبـل أن يأتى عليها . . . . ! ! تسألنى لماذا أحرقتها ؟ أحرقتها لأن رمادها نفسه ما كانت تطيق حرارته الأرض فذريته فى الهواء ، وبعثرته فى جو السماء ! ! .

٥٧

دنا اليوم المنتظر ، وأصبحت أستطيع عَدَّ الساعات التى تفصلنى عن جوليا . وكان المال الذى تجمَّع لى من كل الموارد لا يقوم

بنفقتى ثلاثة أشهر أو أربعة فى باريس . فهزت الشفقة أمى وهى تنظر إلى شجنى وهمى دون أن تعرف السبب ، فانتزعت من علبة جواهرها خاتماً ركبت فيه ماسة كبيرة ، وهى وا أسفاه آخر ماأبقاه حنانها على وإيثارها إياى من حلى شبابها ! ثم وضعتها خفية فى يدى وهى تقول باكية : « إنى ليؤلمنى كما يؤلمك يا رفائيل أن أرى شبابك يذويه الفراغ وتبليه البطالة بين خمود القرية وذهول الحقول . لقد كنت أرجو أن المواهب التى جملك الله بها وباركتها فيك منذ الصغر ترفعك فى الناس وتفتح لك طريق الثروة والسؤدد ، ما دام الفقر الذى نصارعه وندافعه لا يمكننا من أن نفتحه نحن لك . والله لم يشأ بعدُ أن يهيء لنا هذا الأمر ؛ ونحن خاضعون لأمره راضون بحكمه ، لا يخامرنا الشك فى عدله ، ولا يدركنا القنوط من فضله ، فكل أعماله لحكمة . غير أنى أَراك استسلمت بعد الجهود المخفقة إلى الهم فنال منك وغلب عليك . عالج الحظ مرة أخرى . سافر يا ولدى ما دامت هذه الأرض تحرق قدميك ، وعش فى باريس حيناً من الدهر ، واقرع أبواب السراة من أصدقائنا الأقدمين فى عزة وتحفظ ، وأظهر مواهبك التى حبتك بها الطبيعة وقواها فيك العمل . ومن المحال أن يغفل رجال الحكومة الجديدة عن تقريب الأكفاء من

الشبان ليخدموا هؤلاء الأمراء[1] الذين أعادهم الله إلينا ، فيؤيدوا ملكهم ويزينوا حكمهم . إن أباك على فقره كابد الأهوال فى تربية أطفاله الستة ، وتحمل مضض الحياة القروية ، ولكنه لم يطأطئ من إشرافه ، ولم يهبط من سامى درجته . وبقية أهلك كلهم بررة محسنون ولكنهم لا يريدون أن يفهموا أن لا بد من الهواء للتنفس ، ومن العمل للنفس الشابة النشيطة . دونك آخر حلية من حلى وقد عاهدت أمى ألا أتخلى عنها إلا فى الضرورة القاهرة ، فخذها وبعها لعلها تساعدك على أن تطيل الإقامة فى باريس بضعة أسابيع . إنها آخر شاهد من شواهد حنانى أطرحه فى سُهمة القدر ، وعسى أن يعود إليك بالسعادة والربح ، لأنى طرحت معها كل ما أملك لك من صلاة وحنان وعناية » .

فتناولت الخاتم واضعاً على يد أمى قبلة ، وساكباً على الماسة دمعة ، ثم أنفقتها وا أسفاه لا فى طلب الحظوة عند الرؤساء والأمراء الذين عموا عنى لفقرى وخمولى ، وإنما أنفقتها فى ثلاثة أشهر من حياة الوجدان والقلب ، وكل يوم منها يساوى قرونا من المجد والعظمة . لقد كانت لى هذه الماسة المقدسة كلؤلؤة كليو بطرة ذابت فى كأس حياتى فأروتنى حيناً من الدهر بالحب والسعادة .

---

(١) تريد عودة الملكية بعد سقوط نابليون .

٥٨

على أننى غيرت من طبعى وأصلحت من نفسى احتراماً لكثرة الضحايا التى بذلتها أمى المسكينة ، وتنفيذاً للفكرة التى جمعت كل أفكارى واستوعبت كل أمانىّ ، وهى أن أرى الحبيبة وأطيل الإقامة بجانبها ما استطعت . ولا يتسنى ذلك إلا بقبض الكف وتضييق النفقة . فأصبحت دقيق الحساب كز الأنامل شديد الحرص على ما أملك من ذهب قليل . وخيل إلى أن كل درهم أنفقه إنما هو ساعة من هنائى تمر ، ونقطة من حياتى تضيع . واعتزمت أن أحيا حياة روسو على الإعدام أو الإقتار ، فأقطع مما أنفق فى الأبهة واللباس والطعام ما أبذله فى إسعاد قلبى وإرضاء حبى .

ومع ذلك ما كنت خالياً من رَوْح الأمل ، فقد كان فى مرْجوّى أن أستفيد من قريحتى لهواى ، وأستخدم مواهبى فى تحقيق مناى . ففى ثلاثة الأشهر المنصرمة أخذت نفسى بقول الشعر فى ساعات الأرق ، فوقع لى منه طائفة صالحة من القصائد الغزلية والخيالية جمعتها فى ديوان ثم نقلت منه نسخة بخط جميل ، وقرأت بعضه على أبى ، وهو سديد الحكم دقيق النظر فاستحسنه ،

وعرضته على بعض صحابتى لحفظوه واستنسخوه . فغلفت هذا الـكنز الشعرى بغلاف أخضر ، وهو لون الفأل الحسن والرجاء الصالح ، وأخفيته عن أمى مخافة أن يتألم شعورها التقى النقى العفيف من بعض مراثيه التى نحوت فيها منحى الجاهليين لا منحى المسيحيين . وكان معقد رجائى أن رقة هذه الأشعار وما فيها من الحمية الوثابة والمعانى الخلابة ، تغرى بها أحد الطباعين الأذكياء فيشتريها ، أو يطبعها على نفقته ثم يتركها لذوق الجمهور ، وهو لا شك واجد فيها ما يستهويه من أسلوب طلى جديد نبت فى الغابات وتفجر من الينابيع ، فيكون لى من وراء إقباله عليها نباهة فى الاسم وسعة فى الثروة .

٥٩

لم يكن يشغل بالى أمر السكنى فى باريس ، لأن أحد صحابتى وهو الـكنت الشاب (ف) . . قد عاد من رحلته منذ قليل ، وعزم أن يقضى فيها الشتاء والربيع ، وقد عرض علىّ أن أساكنه فى طابق أرضى من قصر ريشيليو الفخم فى شارع (نوف سنت أوجستين) وهو عليم بحقيقة أمرى ، وواقف على دخيلة سرى ، لأن بينى وبينه رسائل متصلة لا تكاد تنقطع . فكتبت إليـه

كتاب تقدمة إلى چوليا ليعرف روح روحى ويعلم معنى عبادتى إن لم أقل هذيانى لهذه المرأة . وما هى إلا الزيارة الأولى حتى فهمها حق الفهم وشاطرنى الإعجاب بها والميل إليها . ومضى يصف لى فى رسائله ما يشعر به من الإجلال والإشفاق لهذه الفتاة الكاسفة المعلقة بين الحياة والموت لا يمسكها إلا ما تجدلى من الهوى العذرى والحب الدخيل . ولم يَفْتُر عن التحدث عنهـا إلىَّ كما يتحدث عن منحة من منح الله منَّ بها علىَّ نوراً للعينى وسروراً للقلب ، وسبباً من أسباب المجد يرفعنى فوق الإنسانية درجات . ولمـا اقتنع بطهارة هوانا وشرف علاقتنا اعتبر حبنا فضيلة ، فلم يجـد غضاضة فى أن يكون موضع سرنا ونقطة اتصالنا . وأخذت چوليا تصفه بصدق الوفاء إلىَّ حتى تؤكد بيننا عقدة الصداقة بدلا من توهينها بسخف الغيرة . وكان كل منهما يستعجل قدومى ، وما يعلم أحد غير صديقى (ف) .. تلك الأسباب الخفية التى حالت بينى وبين القدوم إلى الآن . ولـكنه على الرغم من إخلاصه إلىّ وحَدَبه علَىَّ وإيثاره إياى منذ عرفته إلى يوم فقدته لم يكن قادراً يومئذ على تذليل هذه العقبة وتفريج هذه الـكربة . فإن أمه قد أنفقت جل ما تملك فى تربيته تربية تلائم بيئته ودرجته ، وزودته بما بقى منه فى رحلته التى رحلها إلى أقطار أوروبا . ثم عاد مثقلا بالدين فما فى وسعه إلا أن

يقدم إليَّ ركناً من مسكنه الذى تحملت أسرته بأجرته .

سافرت من ماكون فى مركبة صغيرة حقيرة يجرها جواد واحد يغير فى كل قرية . وهى من النوع الذى يسير بين ليون وباريس لينقل البنائين والعمال من أهل بربونيه وأوفرنى ، ومن أصابهم الونَى من الراجلين ، أو أدركهم الوجى من الجند المساكين فيرفهون عن أنفسهم بركوبها مرحلة بأجر زهيد . ركبت هذه العجلة دون أن أستشعر خجلا أو أحس ألما من ابتذالها وخشونتها . ولو أنى قطعت الطريق حافياً على الثلج لما شعرت أبدا بضعة فى مكانتى ولا بنقص فى سعادتى ، لأنى أوفر بذلك ديناراً أو دينارين أشترى بهما أياماً من حياة الغبطة والنعيم . وصلت باب باريس وما شعرت بلغوب السير ولا وعثاء الطريق . وكان الليل حالك الجلباب والمطر دائم التسكاب والجو قارس البرودة . فحملت حقيبتى على كتفى ، وذهبت أطرق باب المسكن المتواضع على السكنت (ف) . فلقيته فى انتظارى ، وما وقع نظره على حتى عانقنى عناقاً طويلا ، ولقينى لقاء جميلا ، واندفع يقص على أخبارها وأنا أستفهمه وأستعيده وأستزيده لا أفتر عن ذلك ولا أمل . وفى الليلة نفسها صممت أن أراها . فاتفقنا على أن يزورها (ف) . . ويعلن إليها قدومى ويمكث عندها حتى ينصرف السامرون وتخلو

إلى نفسها ، فيأتى إلىّ فى قهوة مجاورة فيذهب بى إليها . ثم فكرت بعد ما دبرت هـذا كله أن أجفف ثيابى على المدفأة ، وأسد رمقى على المائدة ، وأرتدى حلة نظيفة لا تكون سبباً فى إخجالها أمام أصحابها .

وفى الساعة الحادية عشرة خرجت أنا وصديقى فسرنا على أقدامنا حتى وقفنا تحت شباكها فوجدنا لدى الباب ثلاث مركبات منتظرات ، وصعد (ف) . . وذهبت أنتظره فى القهوة المعهودة . ما كان أثقل الانتظار وأطول الزمن ! ويا كثرة ما لعنت هؤلاء الزائرين الخليين الذين أرادوا أن يقتلوا ساعات من الفراغ فقتلوا غير عامدين ساعات من الهناء يترقبها قلبان حبيبان ! ثم ظهر الكاتب (ف) . . فاندفعت أمشى على أثره حتى بلغ بى الباب فتركنى وصعدت .

٦٠

إن أعمّرْ ألف سنة فلن أنسى هذه اللحظة ولا هذا المنظر ! ! لقد كانت واقفة فى النور ، مرفقها على رخام المدفأة ، وقدها الممشوق وكتفاها وجانب وجهها ينعكس عليها الضوء فتتراءى فى المرآة ، ووجهها متجه إلى الباب ، وعيناها محدقتان فى الدهليز

المظلم الذى يتقدم البهو ، ورأسها قد امتد قليلا وانحنى إلى جانب : هيئةَ من يحاول أن يميز بالسمع وقع خطوات تقترب . وكانت ترتدى سِلابا[1] من الحرير الأسود مزدان الحواشى بالمخرَّم (الدنتلا) لا يشرق فى ظلام هذا الثوب إلا كتفاها وجيدُها ووجهها . وكان من أثر انعكاس الموقد فى المرآة ومناغاة المصباح لخدها من فوق المدفأة ويقظة الانتظار وقلة الاصطبار ، أن انتشر فوق محياها رونق الشباب وبهجة الحياة ، فكأنما غير الحب هيئتها وبدل صورتها .

كان أول ما انفرجت عنه شفتاى أن صحت صيحة الفرح والغبطة إذ رأيتها أوفر حياة وأوفى جمالا وأسمى كمالا منها أيام كانت تتقلب فى شمس سفوا وتمرح تحت سمائها الضاحية الجميلة . وحاولت هى أن تغمغم ببعض الكلمات حين رأتنى فاضطربت شفتاها وما استطاعت . فخررت على قدميها وألصقت فمى بالبساط ثم رفعت جبينى لأنظر إليها وأطمئن عليها مخافة أن أكون فى حلم . فوضعتْ إحدى يديها على شعرى المرتعد واستندت بالأخرى على زاوية الرخامة ، وجثت هى أيضاً أمامى على ركبتها ، نتخاطب بالنظرات فلا تكفى ، ونتلمس الكلمات فلا نجد . لقد انعقدت

(١) السلاب بالكسر ثوب الحداد والحزن .

ألسنتنا من فرط السرور ، واضطربت أعصابنا من شدة التأثر ، فبقينا صامتين لا لغة إلا هذا الصمت ، ولا حركة إلا هذا السكوت. فأما سجودى فلله العبادة ، وأما سجودها فلله السعادة . وكأنما تنطق هذه الهيئة قائلة : «إنهما يتساهمان الحب بالقلب ، ويتساقيان الهوى بالنظر ، ولكن بينهما شبح الموت وحِجاز الواجب ، فهيهات أن يتعانقا ! »

٦١

لا أدرى كم دقيقة لبثنا على هذه الحال ، ولا كم سؤال وجواب وعبرة وفرحة تطارحناها بالشفاه وتجاذبناها بالعيون وتبادلناها بالوجوه ! لقد أصابتنا السعادة بالصمم والبكم والسكون ، وانمحى من حولنا الزمن بأسره ، حتى سمعنا طرقاً على الباب ، وأقداماً تصعد على السلم فنهضنا ، وأخذت هى مكانها من الكنبة ، وجلست أنا فى الجهة المقابلة ، متستراً بالظلام لأخفى احمرار وجنتىّ واخضلال جفونى . ودخل الغرفة رجل متقدم السن شديد الهيبة وقور الهيئة نبيل الطلعة مشرق الديباجة يخطو خطوات ثقيلة حتى دنا من الكنبة فقبل يد جوليا قبلة أبوية . كان ذلك الزائر الأستاذ بونال . ولا أذم مجيئه لأنه أفاقنى من نشوتى وأعادنى

من ذهولى ، بل أحمده لأنه صد النظرة الأولى فى الساعة التى يثمل فيها القلب من رحيق الحب ، ويذهب رشاد العقل فى ضلال الهوى . لقد كانت ساعة دخوله من الساعات التى تحتاج فيها النفس إلى ذلك الثلج الذى يلقيه أمثال هذا الحكيم على لهيب الحواس فتستعيد صادق عزمها ، وتسترد ما ذهب من حزمها .

٦٢

عرّفتنى چوليا إلى السيد بونال ، وعرفته أنى صاحب الأشعار التى قرأها . فدهش لحداثة سنى ، وقابلنى بشىء من الإغضاء والتسامح ، وأقبل على الفتاة يناقلها الحديث بذلك التبسط الأبوى الذى يكون فى شيخ استفاضت شهرته بالنبوغ ، وأشرقت نفسه بتقدم السن . جاء يلتمس من جانب هذه الفتاة شعاعاً من الجمال يضىء به عينه ، وساعات من السمر العذب يختم بها يومه . كان صوته هادئاً عميقاً ، لأنه يصدر عن قلبه وينقل عن شعوره : وكان حديثه مرسلاً طليقاً ، لأنه يترجم عن فكر استرخى ليستجم ؛ وكانت نبرات الشرف الصميم تتمثل فى لهجته ، ودلائل الخلق العظيم ترتسم على جبهته . وامتد بينهما نفَس الحديث ، وأوشكت الساعة أن تؤذن بانتصاف الليل ، فرأيت من الواجب أن أخرج

أولاً حتى لا أدع لهذا الصديق سبيلاً إلى الريبة فى هـذه الألفة القوية ، وهو فى هذا البيت أوثق منى صلة وأسمى منزلة . خرجت وما نلت جزاء على هذا الانتظار المحرق والسفر المرهق إلا نظرة وصمتا . على أننى نلت رؤيتها وحملت صورتها ، وتأكدت أنى سأراها كل يوم ، وليس هذا بالشىء اليسير . خرجت على وجهى فهمت طويلا على أطورَة باريس ، وبى من حمى السعادة ورعدتها ما بالمرجل الفائر ، فكشفت صدرى وفتحت فى لنفحات النسيم الندىّ عسى أن يطفئ حرارة قلبى ويهدئ ثائر أعصابى . ثم عدت إلى مسكنى فوجدت صديقى (ف) . . يغط فى النوم منذ ساعات طويلة . وبت أنا أعالج النوم وأتعلقه فما اطمأن لى نافره إلى حين تبلج الصبح وملأت أصوات الباعة شوارع المدينة .

٦٣

كانت هذه الأيام أملأ أيام حياتى . لأنها لم تَعدُ غير فكرة طويت عليها أحناء الصدر كما تُطوى على المسك نافجته مخافة أن يتعرض للريح فتتبخر منه قطرة . كنت أستيقظ من نومى عند تباشير الصباح فأفتتح نهارى بكتابة رسالة ضافية إلى جوليا أستعيد فيها حديث البارحة والرأس مستريح والأعصاب هادئة ، فأعقب

عليه ، وأتناول ما سنح لى من الأفكار بعد تركها فأضيفه إليه . فكانت تتلقى هذه الرسالة لدى يقظتها كأنها تكملة لحديث الليل باتت تسمعها بصوت خافض وهى نائمة . ثم تكتب الجواب فيصل إلى قبل بلوغ الشمس حد الظهيرة . وبذلك كانت تبرد جوانحى ويهدأ قلبي من ثائرة الليل . ولكن الشوق إلى لقاء المساء وحديثه لا يلبث أن تتحرك عوامله ، فأحاول تسكينها بالشواغل وتعليلها بالمنى . وأرغمت نفسى على المطالعة والعمل والدرس ساعات طوالاً ، أريد بذلك أن أقتل الوقت الذى يكربنى ما بين فراق چوليا إلى ساعة لقائها ، وأهذب نفسى وأكملها من أجلها لا من أجل غيرها ، فإنى أحب ألا تخجل يوماً ما من تفضيلها إياى على سواى ، وأن أولئك الأعلام الذين يغشون نديَّها ، ويبصروننى أحياناً فى بهوها ، واقفاً بجانب المدفأة ساكتاً ساكناً كأنى أبو الهول أو تمثال التأمل ، يجدون إذا ماوجهوا إلىَّ الكلام عرضاً تحت سكونى الرهيب وحيائى المريب نفساً وذكاوة وأملاً ومستقبلاً . ثم ثارت فى نفسى أحاديث المنى ووساوس الأحلام فتخيلت أنى بنيت خطط المجد ، وأدركت خطير المساعى ، وغالبت الدهر فى الميادين الظاهرة . فبت وأصبحت كأنى ورقة من أوراق الشجر انتزعتها عاصفة من حديقة أبى ثم سمت بها فوق متون الهواء ، ورأيت

١٧٧

جوليا قريرة العين إذ ترانى على البعد أصارع الدهر وأناضل الناس وأسمو فى القوة والعظمة والفضيلة ، فتفتخر بأنها أول من رأى مخايل ذلك فىّ ودلائله علىّ .

٦٤

كل ذلك فضلا عن العطلة القاهرة والفكرة الواحدة التى شغلتنى عن كل فكرة ، والفقر المدقع الذى غل يدى عن كل مشغلة ، والمحبس الذى اعتقلت فيه عن رضا وطواعية ، قضى علىّ أن أحيا حياة درس وتنقيب ومطالعة . فكنت أقضى عامة اليوم جالساً إلى منضدة صغيرة تنيرها كوة مطلة على الفناء ، ويدفئها موقد من الفخار المدهون ؛ ويستر تلك المنضدة وذلك الكرسى عن عيون السراة من زوار صديقى حجاب ساتر . وكانت تتجاوب فى أفق ذلك الفناء الواسع أصداء العربات ، وتنعكس فيه أضواء الشمس وهى تصارع الضباب الزاحف فى شوارع باريس . وكنت أرى فيه الحين بعد الحين صبيًّا جميلاً فى الثامنة أو العاشرة من عمره يلعب فيه ، وهو ابن البواب ، فذكَّرنى رأسُه الشبيه برأس المَلَك الموجع ، وشعره ذو الطرة الجعدة السابلة على الجبهة ، وسحنته الدالة على النجابة والحساسة ، بمحيا الأطفال البررة من

أهل بلدى . فلا ريب أن أسرته من قرية مجاورة لقرية أبى عدا عليها الفقر فلاذت منه بباريس . وكان من أمر هـذا الغلام أن اتصل الود بينى وبينه من طول ما يرانى من النافذة التى فوق مسكن أمه . فجعل نفسه فى خدمتى وكفانى كل ما احتاج جلبه من الخارج من غير أجر . فكان يأتى إلىّ كل صباح بطعام اليوم من جبن وخبز وفاكهة ، فأنال منه عند الحاجة فوق المكتب بين الكتب المبعثرة والصحف المنشَّرة . وكان للغلام كلب أسود نسيه أحد النازلين فى الفندق ، فكانا متلازمين لا يفترقان حتى أنس الكلب بى واطمأن إلىّ وألفنى إلْفَهُ لصاحبه . فكنت تراهما أكثر اليوم نائمين أو لاعبين بين قدمى على الحصير تحت المنضدة . فلما تركت باريس فى مؤتنف الزمن أخذت الكلب معى واحتفظت به أعواماً طوالاً تذكاراً مخلصاً وفيا لهذا العهد ، عهد الاعتكاف والخلوة . ثم فقدته وبكيته عام ١٨٢٠ وأنا أجتاز غابات (بونتين) بين روما وتراسين . أما الغلام فقد كبر واحترف صناعة الحفر وتعاطاها فى ليون موفقاً فيها . ولما رنَّ صيتى فى مسمعه ، ووصل اسمى إلى مصنعه ، جاء يزورنى . وما كان أشد سروره برؤية صديقه وأمضّ حزنه على فقد كلبه ! مسكين قلب ابن آدم ! كل ما يحبه مرة يصبح ضرورة له ، سواء فى ذلك ما قل

وما جل ! والدموع التى يذرفها على ضياع مملكة ، هى من نوع الدموع التى يذرفها على فقد حيوان ! !

٦٥

فى ألوف الساعات التى قضيتها معتقلا بين الموقد والحجاب والنافذة والصبي والكاب ، أعدت قراءة ما كتب الأقدمون من علم وأدب ، ما عدا أولئك الشعراء الذين أتخمونا بشعرهم فى المدرسة فلم تستطع عيوننا الكليلة أن ترى منه إلا الوزن والطول والقصر . ويكون من أثر ذلك أن يقوم بنفس الطفل اشمئزاز با كريذوى فيها أنضر ما أنبتته القرائح البشرية من زهر وعطر . قرأت كل الفلاسفة والخطباء والمؤرخين فى لغاتهم ، واختصصت بإعجابى وإيثارى من اجتمعت فيه هذه الملكات الثلاث : الحكاية والأداء والبحث ، أو الحدَث والحديث والمغزى . وكان السبق والقدم فى ذلك لتوسيديد وتاسيت ، ثم لمكيافلى الخبير البصير بأدواء الشعوب والممالك ، ثم لشيشرون ذلك الوعاء الرنان الذى يحتوى كل شيء : من العبرات السافحة من جفون الرجل والزوج والأب والصديق ، إلى النكبات الجائحة التى ضعضعت روما وزعزعت بناء العالم ، إلى ما أصابه هو من عنت

الدهر وصروف القدر . فشيشرون أشبه بمرشّح استقرت فيه هذه الحياة ثم راقت وانجلت عن فلسفة عالية وحكمة صافيـة ، تتراءى فى جوانبها نفسه الكبيرة فياضة بالبلاغة والحكمة والرحمة والانسجام . وكنت أظنه قبل الآن ثرثاراً أجوف يضع المعانى الضئيلة فى الجمل الطويلة ، فأدركت الآن خطأى وضلال حكمى . إنه الرجل الإلهى فى القدماء بعد أفلاطون . أسلوبه أبرع الأساليب فى كل اللغات . تحسبه هزيلًا لأنه ملفف بإحكام ودقة ، فإذا نضوت عنه هذه اللفائف بدت لك النفس الكبيرة التى أدقّت الحس وأحسـنت الفهم وأجادت القول فى كل ما يحس ويفهم ويقال فى روما على عهده .

٦٦

أما تاسيت فلم أنازع هواى فى الميل إليه والتعصب له . لقد فضلته حتى على توسيديد . وهو ديمستين التاريخ ، لأن توسيديد أقوى على عرض الصور منه على إحيائها وتمثيلها . وتاسيت أولى أن يسمى مختصر الجنس البشرى لامؤرخه : حكايته رِدَّةُ الحادثة وصداها فى قلب رجل حر فاضل حساس ، والقشعريرة التى يختلج لها جبين قارئه لا تهز الجلد وحده ، وإنما تهز الجسم والنفس معاً .

١٨١

حساسته أقوى من تأثره وتلك هى الشفقة ، وحكمه أقوى من انتقامه وذلك هو العدل ، وسخطه أقوى من غضبه وتلك هى الفضيلة . تمتزج روح القارئ بروح تاسيت وتتحد ، فيتيه بهذه الصلة ويفخر بتلك القرابة . فإذا أردتم أن تطهروا قلوب أبنائكم من رجس الجريمة ، وتحركوا فى نفوسهم عوامل الفضيلة ، فأقرئوهم تاسيت وغذوهم بأدبه . فإذا لم يصيروا بعد ذلك أبطالا فاعلموا أنهم خلقوا بطبيعتهم فجاراً ، لأن الشعب الذى اتخذ من تاسيت إنجيلا لساسته سما فوق الشعوب وشأى كل الممالك . أما أنا فمدين لهذا الكاتب لا بألياف لحمى ، ولكن بأسباب كيانى ونوازع نفسى . فإذا أصبح عصرنا الصعلوك المفلوك فى عظمة عصره وفجيعته ، وأصبحت أنا أكرم ضحية فى أكرم قضية ، فسأقول وأنا أريق بنفسى : ردوا شرف حياتى وشرف موتى للأستاذ لا للتلميذ ، فإن تاسيت هو الذى عاش باسمى ومات فى جسمى .

٦٧

وأنا بالخطباء كذلك مولع . درستهم دراسة من يعد نفسه لخطابة الجماهير الصم : فهو يدرس أولا معازف الإنسانية ومطربيها

١٨٢

أمثال دعستين وشيشرون وميرابو ، ولا سيا اللورد شاتام[1] أقربهم فى رأيى لذوق العصر ، وأملكهم لأعنة القلب ، لأن خطابته الإلهامية الوجدانية أولى أن تسمى صرخة لا صوتاً . إنها تتعدى حدود الحفل وتتجاوز أغراض الزمن طائرة على أجنحة الشعر إلى عالم الحقيقة السامية والعواطف الباقية . إن شاتام يتلقى الحقيقة من يد الله فيجعل منها نوراً للهدى ، وصواعق للجدل . ولكن وا أسفاه ، لم يبق منه إلا ما بقى من فِدْياس فى بريتون : أنقاض وأشلاء ! على أن هذه البقايا المحطمة إذا أعاد بناءها الفكر أخرج منها للناس صوراً ساحرة من البلاغة .

لقد صورت لنفسى مثال ما بعث هـذه الروح فى هؤلاء النوابغ من زمن وظروف وأهواء ومطامع و (فورَم) ، ثم أخذت أكلم الجموع الحاشدة فى نفسى ، والأشباح الماثلة فى خيالى ، كما كان دعستين يكلم أمواج البحر .

٦٨

قرأت لأول مرة فى هذا العهد خطب (فكس) و (بِتْ) ،

---

(١) اللورد شاتام (١٧٠٨ — ١٧٧٨) أحد رجالات إنجلترا ونوابغها فى السياسة والخطابة والحكم . وقد اكتسب ملكة البلاغة وقوة اللسن من كثرة ما قرأ من نماذج القدماء .

أما فكس فوجدته خطيباً سوقيا جدليا خلق للمعارضة لا للقول ، ومحامياً ألدَّ الحجاج وضع ضميره فى صوته ، ودافع للشهرة قبل أن يدافع للحق . وأما بِت فقد وجدته رجل الحكومة ، فكلماته عقود ، وإشاراته عهود . وقد استطاع وحده أن يمسك بلاده ، حين تدهورت أوربا ، على دعائم من رصانة عقله ، وعماد من متانة خلقه . فبت كاد يكون ميرابو لو لم يتميز الأول بالإنصاف والثانى بالتوثب . وقد أصبح هذان الرجلان منذ يومئذ أكبر ساسة العصر فى عينى وأجلهم موقعاً من قلبى ، وإذا قست غيرهم عليهم وجدت (منتسكيو) علامة بحاثة وقياسيا حاذقا ، و (فنلون) إلهيا خياليا يتعلق بخيوط الوهم ويستمسك بحبال الهباء ، وروسو طبيعيا ينقل عن أحلامه أكثر مما ينقل عن إلهامه ، فهو فى معاناة السليقة أقوى منه فى معالجة الحقيقة . ووجدت لبوسويه لساناً من ذهب ونفساً من رياء وملق ، فاجتمع له من لسانه وفؤاده وصفان متضادان فى حضرة لويس الرابع عشر : استبداد أهل الدين ، ومصانعة رجال البلاط .

انتقلت بطبيعة الحال من التاريخ والخطابة إلى السياسة ، فكان شعورى بذل القيد وفداحة النير الذى رفع عنا منذ قليل بزوال الإمبراطورية وفظائع النظام العسكرى الذى كنا نعانيها

منذ طويل كان يدفعنى إلى الحرية . ولكن ذكريات الأسرة وتأثيرات الصداقة ، والحال الأليمة التى كانت عليها الأسرة الملكية من الانتقال من العرش إلى المشنقة ، ومن المنفى إلى العرش ، وأولئك الشيوخ الذين توجتهم الأرزاء كما توجتهم الآباء ، وأولئك الأمراء الذين يبعث فيهم حمية الشباب وحرارة المصاب روح الأمل فى كل شىء ، كل ذلك حملنى على الرغبة فى التوفيق بين الحرية والملكية ، فوددت أن العرش التالد والحرية الطارفة يتصالحان فى هذه المملكة ، فيتم للحكومة بذلك التوفيق نفوذُ القدم ونفوذ الحدوث ، أو قوة الذكرى وقوة الأمل .

تلك كانت أمنية نفسى وأحاديث أحلامى فى ذلك العهد . ولكن الأيام ما فتئت تبدد جزءاً من هذا الحلم فى كل صباح حتى انجلى عن هذه الحقيقة المؤلمة ، وهى أن النظم القديمة لا تحمل الآراء الحديثة ، وأن الملكية والحرية لا يمكن أن يجمعهما ظل إلا بالمشادّة ، وأن هذه المشادة تستنفد قوة الدولة ، وأن الملك سيظل دائماً متَّهَماً ، والحرية ستكون أبداً مَخُونة .

٦٩

ثم عدوت هذه الدراسة العامة إلى دراسة أخرى شغلت

فراغى وغلبت على فكرى ، مع أنها بطبيعتها أجدب وأجف وأبرد وأبعد من قلب فتى سكر بخمر الخيال والحب ، أعنى دراسة الاقتصاد السياسى أو علم ثراء الأمم . وكان (ف) قد وجه إليه باله وأخلى له ذرعه ، فترى كل ما كتب عن هذا العالم فى الإيطالية والإنجليزية والفرنسية مبعثراً على مناضده ورفوفه .

فعكفنا على هذه الكتب نقرأها ونناقشها ونعلق عليها بما عنّ لنا فيها ، فصغَت قلوبنا إلى هذا العلم الذى كان بالأمس ولا يزال إلى اليوم يقرر من المبادئ أكثر مما يقرر من الحقائق ، ويضع من المسائل أكثر مما يضع من الحلول . ووجدنا فيه فضلا عن ذلك موضوعا للحوار الدائم والحديث المسلسل الذى تمضغه الألسنة ولا تشعر به الأفئدة ، وتشتغل به القريحة دون أن تعبأ به النفس ، ويسمح لك وأنت تسرده أن تشعر بما وراء قلبك من فكر مضمر وخاطر مستتر . فالحديث عن هذا العالم كالحديث عن الألغاز والمعميات ، يروقك أن تبحث عن حلها ولا يهمك أن تجد . ثم حسبتنى بعد المطالعة والمناقشة والتعليق أستطيع أن أميز بعض أصول هذا العلم النظرية ، فإذا بى لا أستطيع الإجابة عن شىء ، وإذا بغريزة الوضوح فى نفسى غير قانعة ولا راضية . فرميت بالكتب عند قدمى وانتظرت النور . إن هذا العلم لم يزل فى طوره

الأول ، وهو من العلوم التجريبية لا بد له من عصور تمر ودهور تتعاقب . فالأعوام القليلة التى عاشها لم تبلغ به حد النضج ولم تضمن له قوة التأكيد . إنه يُمَنِّى ولاة الأمور ببعض القواعد التى تقيم أود النظام ، وتشد أواخىَّ الصلات بين الأنام ، وتضمن للأمم الرخاء والإخاء والسلام .

٧٠

تلك كانت شواغل أيامى ، وموضع فكرى واهتمامى ، لا أرغب معها فى شىء ، ولا أطمع بعدها فى حاجة . وما كانت رغبتى فى تولى منصب من مناصب الدولة صادرة عن نفسى ولا مترجمة عن هواى ، وإنما نشأت فىَّ إطاعة لإرادة أمى المسكينة ، ومخافة أن أنفق ماستها دون أن ترتجع منها رجعة صالحة فى تحسين حالى وإصلاح أمرى .

وقد كان من الممكن حينئذ أن يجدوا لى سفارة فأترك باريس ، ويبوّئونى قصراً فأنجو من هذه الغرفة الحقيرة ، لولا أنى تعاميت حتى لا أرى أبهة الجاه ، وتصاممت حتى لا أسمع وسوسة الثروة ، ووجدت السعادة الكاملة فى أن أعيش فى ظلامى على ذلك الشعاع الذى لا يدركه الناس بينما هو يضىء ليلى ويشعله .

كانت سعادتى تشرق حينما تغرب الشمس ، فأتعشى عادة وحدى فى غرفتى على قطعة من الخبز وقُدَّة من اللحم المسلوق متبَّلة بالبقدونس وشىء من سلطة البقول . ثم لا أشرب إلا الماء القراح توفيراً لثمن النبيذ ، فكنت أتكلف لهذا العشاء الذى كان يكفينى ويكفى الكلب الذى ألفنى عشرين صلديا . حتى إذا طعمت استلقيت على سريرى استجماماً من الإعياء واختصاراً لساعات الليل التى لابد أن تمر قبل أن تحين ساعتى وتبتدئ زيارتى ، وهى الساعات التى ينفقها الشباب فى المسارح والمواخير كدأبى أيام كنت خليع العذار ، من الصبابة والعمل . ثم أستيقظ فى الساعة الحادية عشرة فألبس لباس فتى محتشم يرى فى رشاقة قده و نضارة وجهه وتموج شعره غُنية عن الزينة : حذاء نظيف ، ووشاح أبيض ، وحلة سوداء نقية من الغبار مشدودة الأزرار إلى موضع البنيقة كحلل التلاميذ فى العصور الوسطى ، ثم معطف عسكرى مرسل الثنايا على الكتف الأيسر يصون الثوب من دنس الطريق . ذلك كان لباسى ، وهو كما رأيت ساذج قاتم لا ينم على دخيلتى ، ولا يكشف عن حقيقتى ، ولا يشف عن سعة ولا ضيق ، وإنما يسمح لى أن أنتقل من خلوتى إلى جنتى دون أن أجذب الأبصار إلى ما تستملحه أو تستقبحه . ثم أقطع المسافة على قدمى ، لأن

١٨٨

أجرة المركبة تحرمني يوماً من حياتي . كنت أسير الهوينى فوق الأفاريز وتحت ظلال الجُدُر اتقاء لمطر السماء ووحل الطريق ، وحذراً من أن ينم قذر ردائي ووحل حذائي عن مجيئي ماشياً . على أنني ما كنت عجلان ، لأني أعلم أن چوليا كانت تستقبل كل مساء أصحاب زوجها في البهو أو في الحجرة ، فكنت أفضل الانتظار ريثما تنصرف آخر مركبة من أمام البيت ، حتى لا ترتاب العيون في هذه الزيارة الليلية من فتى مجهول لفتاة جميلة ، وحتى لا يشاطرني الخليّون كلماتها ونظراتها وهي مضطرة أن تعدل بين السامرين وأن تعمم السمر . لقد كان يخيل إليّ إذا ما جالستها في جماعة أن كل امرئ منهم يسلبني جزءاً من حضورها ، وشعاعاً من نورها ، ويكون أهون عليّ أحياناً ألا أراها من أن أراها وأسمعها وهي غير خالصة لي من دون الناس .

٧١

كنت أنفد هذه الساعات وأنفقها في الذهاب والإياب على جسر من جسور السين قبالة بيت چوليا . ولا تسألني كم مرة عددت ألواح هـذا الجسر في كل ليلة ! ولا كم قطعة من النقود النحاسية ألقيتها في طبق السائل الـكفيف الذي ألجأه الثلج أو

المطر إلى سور هذا الجسر ! لقد كنت أرجو بفضل هذه النقود التى ترن فى قلب هذا البائس أن يستجيب الله دعائى ويحقق رجائى فيعجل بانصراف زائر ثقيل يؤخر أوان سعادتى ويكدر صفاء ليلتى .

وكانت چوليا قد عرفت منى النفور والامتعاض من رؤية الأباعد عندها ، فاتفقنا على إشارة تدلنى من بعيد على وجود الزائرين أو عدمهم . فإذا ما أغلقت مصراعى النافذة معاً علمت أن البهو غاص بالسامرين ؛ وإذا أغلقت مصراعاً وفتحت الآخر دلتنى على وجود زائر أو اثنين لا يلبثان أن ينصرفا ؛ فإذا روَّح السُّمار وخلا السامر فتحت المصراعين وهصرت الستور ورأيتها من الشاطئ الآخر تجلس إلى منضدتها تقرأ أو تكتب منتظرة قدومى . فكان هذا النور المنبعث من النافذة قيد عيانى لا أحول بصرى عنه ولا أرده .

وكان على ضآلته وخفوته أسطع فى عينى من الأنوار المنبعثة من الشبابيك والمصابيح والحوانيت والمركبات والقهوات . بل كانت هذه الأضواء تفنى وتَمحّى من عينى فلا أرى مصباحا فوق الأرض ولا كوكباً تحت السماء ، غير هذا الشباك الصغير المستدير يرسل نوره إلىَّ كعين تحدق فىَّ وتبحث عنى فى هذا الظلام ، فتجذب إليها أنظارى وأفكارى ونفسى .

إيه أيها الإنسان ! ما أغرب أمرك وأعجب حالك ! أحياناً

يتسع أملك وينتشر هواك حتى يضيق عنهما البر والبحر والسهل والوعر، وأحياناً ينحصران ويتجمعان فى نقطة صغيرة منيرة تلمع فى ضباب النهر ، وتسطع فى خلال الأضواء الوهاجة فى المدينة الصخابة العظيمة ! ! ولطالما ردّدت ذلك فى نفسى وأنا أسير الهوينى فوق جسرى المظلم ! وكم طلبت إلى الله وأنا أراقب هذا النور البعيد أن يطفئ مصابيح الأرض ويكوّر نجوم السماء فلا يدع غير هذا النور الضئيل ، وهو نجم حياتين وروح نفسين مرتبطتين . ولو أنه فعل لكنى هو فى رأيى أن يضىء هذا الوجود وينير هذا العالم . ولكن واأسفاه ! لقد رأيت هذا النور منذ يومئذ تخبو أضواؤه ، وذلك الكوكب الذى أشرق فى حياتى يخفت لألاؤه ، فخمد لذلك شبابى ، وغشيت عينى ، وأظلم قلبى ! رأيت المصراعين يغلقان أعواماً طوالا على ظلام الغرفة الحزينة ، ثم رأيتهما يعودان فينفتحان يوماً من الأيام فاطّلعت لأرى من ذا الذى استطاع أن يعيش حيث كانت تعيش . فرأيت فى يوم من أيام الصيف على حافة هذا الشباك الذى يغمره النور ، وتزينه الزهور ، فتاة لا أعرفها قد حملت بين ذراعيها مولوداً تضاحكه وتناغيه وهى لا تدرى أنها ترتع وتلعب فوق ضريح ، وأن بسماتها تتحول فى عين بعض المارين إلى دموع ، وأن هذه الحياة التى تحياها سخرية

من الموت وهزؤ بالقدر ! ثم تعودت أن أغشى هذا المكان بالليل ، ولازلت إلى الآن أغشاه فأدنو من الحائط بخطى الخائف ، وألمس ذلك الباب ، وأجلس فوق المقعد الحجرى ، وأنظر الأنوار ، وأتسمع الأصوات ، ثم أتصور أنى أرى مصباحها ، وأسمع نبرات أصواتها ، وأنى ذهبت فقرعت الباب ، وأنها كانت تنتظرنى ، وأنى صعدت إليها ودخلت عليها ! أوه !! واهاً لك أيتها الذاكرة ! أنعمة أنت من نعم الجنة أم نقمة من نقم السعير ؟

... ...

ولكن عفواً يا صديق ! سأعود بك إلى مساق حكايتى ما دمت تريد.

٧٢

كانت جوليا قد عرّفت بى شيخها ثانى يوم قدومى إلى باريس فلقينى لقاء الوالد لولده الغائب ، لأنه عرف من قبل ما كان من تلاقينا فى سفوا ، وما تبع ذلك من عهد الأخوة وتوثيق عرى المحبة بائتلاف الهوى و السن والعاطفة ؛ ووقف على ما تبادلناه كل يوم من الرسائل ، وتناقلناه كل ليلة من الأحاديث ؛ وعلم نقاء حبنا الخارق للطبيعة على رغم الصلة الوثيقة والشباب اللجوج . ولقد كان

شغله الشاغل وقلقه الشديد على سعادة ربيبته وسمعتها وسلامتها، وكان يخشى أن تخدعها النظرة الأولى فتهب قلبها لمن لا يحسن فهمه ولا يستحق عطفه . فلما قرأتْ عليه نبذاً من رسائلى إليها قرَّ باله قليلا وسكن . ولـكنه عند ما رآنى قرأ ولا بد سطور الإخلاص على محياى، وتوسم مخايل العفة فى أسرار وجهى، لأن اللسان ربما وصف الـكذبَ ، وأما الوجه فلا يقدح فى صدقه . نقدنى الشيخ وخصنى بالعـــين القلقة والنظر المختلس ، فكلما أدام النظر وأكثر السؤال تطلّق وجهه وتفتحت عينه واطمأنت نفسه، ومال إلىَّ يلاطفنى بالنظرات وهى أفضل وأجمل من الـكلمات فى المقابلة الأولى . وكانت رغبتى الشديدة فى نيل رضا الشيخ ، والحياء الطبيعى الذى ينال الشاب فى مثل هذا الموقف ، وحضور چوليا بجانبى، كل ذلك كان له أثر ظاهر فى هيئتى الوديعة ووجنتى المحمرة ونظرتى الحيية ، فكان لسان حالى أفصح دلالة عنى من لسانى ، وأبين عن دخيلة نفسى من بيانى . فأخذ الشيخ يدى وأقبل علىَّ يقول بلهجة الوالد الحنون : « خفض عليك جأشك يا سيدى فقد ظفرت فى هذا المنزل بصداقتين بدلا من واحدة ؛ وما كان فى الإمكان أن يوجد خير منـك أخاً لچوليا وولداً لى . ثم قبلنى وأخذ يتحدث إلىَّ كأنه يعرفنى منذ الطفولة

حتى دقت الساعة العاشرة فأقبل خادم كهل فأخذ بيد الشيخ وانطلق به على عادته كل ليلة إلى مخدعه .

٧٣

كانت شيخوخة هذا الرجل جميلة نبيلة ليس وراءها مطمع ولا مطمح غير ضمان الدهر وأمان الغد . كانت شيخوخة نزيهة أبوية ، لا يُقذى العينَ ولا يؤذى النفس أن تُرى بجانب هذا الشباب النضر . نعم إنها أشبه بظلام الليل على وضح الصباح ولكنها ظلال حامية واقية لا تُذوى هذا الشباب ولا تزرى بهذا الجمال .

كانت لهذا الشيخ الجميل ملامح مطردة منظمة كخطوط القطاعات الجانبية فى الأبنية الأثرية يدُقُّها الزمن قليلاً دون أن يفسدها ؛ ونظر وديع ثاقب لعينين زرقاوين عبث بهما الكلال والجهد فهما تنظران من وراء ضباب لطيف ؛ وفم رقيق كأنه نصف كلمة ، ضاحك كبسمة الأب لأطفاله ؛ وشعر كزغب البجع فى رخوصته وتكسره ، قد أشعل فيه الشيبَ طولُ الدرس وتقدم السن ؛ ويدان معروقتان بيضاوان كيدى تمثال سنيكا المرمرى وهو يجود بنفسه مودعاً پولين ؛ ووجه ظمآن شاحب اللون

من طول ما كد عقله ، لا تجد فيه تغضناً ولا تضمراً ، لأن السنين عرقت عظمه وأذابت شحمه ، اللهم إلا أوردة زرقاء نازحة تتلوى على صدغه الأسجح ؛ وجبين زاهر نحته الفكر وصقله الرأى فانعكست عليه من الموقد أضواء اللهب ، وهو آخر ما بقى من جمال الرجل ؛ وخد رفّاف البشرة شفاف اللون لأنه شاخ فى ظلال البيت فلم تلفحه ريح ولم تسفعه شمس ؛ وكلام نضيج مختمر يرسله فى جمل مختصرة مشرقة دقيقة مرن عليها لطول ما عانى من اختيار الصور الكلامية لما يقول ويكتب . يقطّع كلامه بالصمت إلى فقر منتظمة كأنما يعملها حتى تعرق من أذن السامع إلى ذهنه ، ثم يمزجه بالدعابة الحلوة والهزل الرقيق تخفيفاً من ثقل الجد ودفعاً لسآمة السامع .

٧٤

لم تمض بضعة أيام حتى أشربتُ محبة هذا الشيخ الظريف الكيِّس . ولو تنفس بى العمر إلى عهد الشيخوخة لما تمنيت إلا أن أكونه . غير أن شيئاً واحداً فيه يؤلم نفسى ويفت كبدى كلما رأيته . ذلك أنه يسير إلى الموت بخطى هادئة وهو لا يعتقد بالخلود ولا يؤمن بالبعث ، لأن طول عهده بدراسة العلوم الطبيعية عود

١٩٥

فكره ألا يحكم إلا بالحس وألا يصدق غير الواقع . فما لا يُحَس لا يعترف بوجوده ، وما لا يُحْصر ولا يعد لا يقوم عنده الدليل على ثبوته . فالمادة والرقم هما فى رأيه العالَم . . فإلٰه الأعداد ، ووحيه الظواهر ، وإنجيله الطبيعة ، وفضيلته الغريزة . وما علم أن الأعداد والظواهر والطبيعة والفضيلة ليست إلا رموزاً هيرغليفية على ستار الهيكل معناها المتفق عليه هو الألوهية . ذهن متوقد ذكى ولكنه عنود شرود . يصعد فى سلم العلوم بمهارة وحذق ، حتى إذا بلغ الدرجة العليا التى تؤدى إلى الله وقف وحرن !

٧٥

وكذلك الشيخ لم يلبث أن صغا إلىّ بوده وأقبل علىّ بوجهه ، وتطوع أن يعطينى من صبح إلى صبح دروساً فى العلوم العالية التى طيرت فى الناس شهرته ، وأوجبت الآن راحته . فكنت آتيه الحين بعد الحين فى مكتبته صباحاً فأجد جوليا قد سبقتنى إليها ، فيكون لثلاثتنا منظر نادر مؤثر : شيخ جالس بين أكداس من الكتب العلمية والفلسفية التى استوعبت نتاج العقول وثمار القرائح ، واستنزفت أيامه فى حل رموزها وفتح كنوزها ؛ وشاب واقف وراءه يقبس منه أنوارها ، ويأخذ عنه أسرارها ؛ وفتاة

نضرة الشباب رائعة الجمال تمثل الفلسفة المثَلية والحكمة العاشقة ، وتؤدى واجب التلمذة للشيخ وواجب الزمالة للفتى . فهى تحضر الكتب ، وتقلب الصفحات ، وتشير ببنانها الوردى الجميل إلى الفصول ، فعلمت وفهمت فى قليل من الأيام ما لم أعلمه وأفهمه فى كثير من السنين . ولكن عاهات الهرم الملازمة كانت كثيراً ما تقطع هذه المحادثة ، وتحرمنا هذه المدارسة .

٧٦

ولكننى واظبت على المجىء فى كل عشية أقضى هزيعاً من الليل مع تلك التى أصبحت فى نظرى هى الليل والنهار والدهر والخلود . كنت أغشى بيتها كما قدمت لك حين يخلو منتداها من السامرين . وكان يتفق أحياناً أن أمضى الساعات الطوال على الجسر أو فوق الرصيف واقفاً مرة وماشياً أخرى أنتظر انفراج المصراعين أحدهما أو كليهما عن ساعة اللقاء . وكأين من موجة من أمواج (السين) البطيئة المتخاذلة شيعتها بنظرى حتى توارت فى عيون الجسر حاملة معها أضواء القمر الخفاقة ، أو أنوار الشبابيك البراقة ! ! وكم ساعة أو نصف ساعة دقتها الكنائس القريبة والبعيدة فعددتها ثم لعنتها إما على بطئها وإما على سرعتها ! لقد

كانت لى أيام سعد وأيام نحس . فمرة كنت أدخل لا أتجشم الانتظار لحظة ، ولا أجد بجانبها إلا زوجها يقطع بالحديث الحلو ساعات الاستعداد للنوم ؛ ومرة لا أجد عندها إلا صديقاً أو صديقين من أولئك الذين يقضون صدر الليل فى سمر الصداقة ويمضون عجزه فى جدَل السياسة . وكانوا عادة من بين رجال البرلمان ومصاقيع خطبائه مثل سوار ونال ومُنّييه ولينييه . وهذا الرجل من بين المعاصرين قد استأثر بإجلالى وحبى ، لأنه صورة ناطقة لفضائل القدماء وبلاغتهم . فهو رومانى القلب واللسان والمظهر لا ينقصه إلا شعار الرومان ليكون شيشرون أو كنتون عصره . ولقد رأيت له صَوْرة إلىّ ، فهو يختصنى أثناء السمر بنظرات حبيبة وكلمات عطوفة ؛ ثم أصبح منذ اليوم أستاذى . فإذا كان لى فيما بعد وطن خدمته أو منبر صعدته ، فإنما الفضل كل الفضل لما رسخ فى نفسى من وطنيته وبلاغته .

كان هؤلاء العظماء يتعاقبون حول المنضدة الصغيرة وجوليا مضطجعة على كنبتها وأنا جالس فى زاوية الغرفة بعيداً عنها لا أنطق بحرف ولا أومئ بطرف ، وإنما أفكر وأقدّر وأؤيد وأفند فى نفسى . فإذا وُجه إلىّ الخطاب انفرجت شفتاى عن كلمات قليلة ألقيها بصوت خافت فى حياء وحذر . حتى كانت

تعرض لى آراء أعتقدها تمام الاعتقاد فأجد حرجا شديدا فى بسطها أمام القوم ، لأنهم كانوا أعلى منى سنا وأسمى منزلة . واحترام السن والنبوغ والشهرة جزء من طبيعتى ، فشعاع المجد يخطف بصرى ، وبياض المشيب يملك قيادى ، ونباهة الاسم تستعبد نفسى . وكثيراً ما صغرت من قدرى وقللت من قيمتى بهذا الحياء ، ولكنى لم آسف على ذلك يوماً ما . إن شعورك بسمو غيرك وتفوقه خير لك فى شبيبتك وهرمك ، لأنه يرفع فى نظرك المثل الأعلى الذى تطلبه ، والمطمح الأسمى الذى ترغبه . أما الشعور بالكمال والاعتداد بالنفس فوقاحة على الطبيعة وإهانة للدهر . وإن يكن الشعور بسمو الغير ضلالة ووهما ، فإن أقل ما فيه أنه يعظم الإنسانيه ويكبرها ، بدل أن يحقرها ويصغرها .

لم يكترث لى أولئك الرجال فى بادئ الأمر . وكنت أراهم يميلون أحياناً على جوليا فيسألونها بصوت خافت عنى ، وكأنما أعجبهم منى وأدهشهم تلك السحنة المفكرة ، والهيئة المتواضعة المؤثرة ، فاقتربوا منى وحولوا إلىَّ بعض الخطاب فى رقة ولطف تشجيعاً لى من طرف خفى على الخوض معهم فى غمار الحديث . فكنت أجاذبهم طرفا منه بالكلمات القليلة أعبر بها عن شكرى ثم أرتد سريعاً إلى ظلامى وصمتى مخافة أن تنشط المحادثة بالأخذ

والرد فتطول . وما كان هؤلاء فى نظرى إلا إطاراً للصورة .
والصورة وحدها هى التى كانت مرمى بصرى ومسترَق سمعى
ومتجه هواى .

٧٧

ولشد ما تبتهج نفسى ويخفق فؤادى حين أراهم يخرجون
وأسمع دروج المركبة الأخيرة تجاوز وصيد الفناء ! حينئذ أخلو
إليها ، وأنشر نفسى بين يديها ، وقد سجا الليل وسكنت الحركات
وخشعت الأصوات فلا تسمع أحياناً إلا كر العجلات على الرصيف ،
أو غطيط البواب تحت السلم . تبدأ المناجاة بيننا باللحظ لا باللفظ
كأنما يتولانا الدهش من السعادة . ثم أدنو من المنضدة التى جلست
إليها لتخيط عليها فيسقط المخيط من بين أناملها الذاهلة ، وتنفتح
عينانا وتنفرج شفتانا وينبض قلبانا ويزدحم الكلام على اللسان
ازدحام الأمواج على الفرجة الضيقة ، فيتلكأ بادئ ذى بدء فى
الجريان فلا تسيل أفكارنا إلا قطرة قطرة . لا نستطيع أن نعجل
فى اختيار ما نفصل الحديث عنه من الأشياء المتراكمة المختلطة ،
والآراء المتشابكة المرتبطة ، فيتفق أحياناً أن نظل صامتين من
حرج الموقف وفيضان القلب بالقول دون أن يجد متنفساً ولا

مغيضاً . ثم يأخذ الكلام فى التتابع والانثيال رويداً رويداً كظل الغمامة يسبق الوابل الهتون . ثم يتشقق الحديث بعضه من بعض حتى يعب عبابه فنرسل الكلام فى وقت واحد ، فيخرج مختلطاً مضطرباً لا تعرف له نظاماً ولا جواباً ولا نتيجة . لقد كان كل منا يسابق الآخر إلى التعبير عن عاطفة مشتركة ، ويظن أنه هو الذى سبق إلى إحساس هذه العاطفة منذ حديث الليل أو رسالة الصباح ؛ ولكن هذا الفيضان الصاخب الذى كان ينتهى بنا إلى الخجل أو الضحك كانت فورته تسكن آخر الأمر ، ثم يعقبه سِقاط الحديث الهادئ نعطر به الفضاء ونكشف به عن أغوار القلب . ذلك كان انسكاب نفس فى نفس ، وتبادل طبيعة وطبيعة ، واستحالتها فىّ واستحالتى فيها ، بما بيننا من اتصال متبادل فى الحياة والحس والفكر . أبداً لا تجد مثلينا مخلوقين عفيفى الطرف نزيهى الفكر يتصوَّن كل منهما عن الإصحار بقلبه والإعلان عن حبه أمام الآخر . على أن نفسينا كانتا عاريتين لا يسترهما حجاب ولا يحجبهما نقاب . ومع ذلك ظلتا طاهرتين كالنور يطهر كل شىء ولا يدنس شيئاً . وما كان موضوع الحديث غير هذا الحب العفيف الذى يطهر نفوسنا كلما صهر جسومنا ، ذلك الحب الذى يستمر تجدده بفضل طهارته ونقائه دون أن يتغير نوره فى النفس ، ولا سروره

فى القلب ، ولا بهاؤه فى العين ؛ فهو لا ينفك زهرة نضرة وريحانة عطرة ونشوة خالصة لأننا أبداً لا نقطف ثمرته .

٧٨

ظهر هذا الحب وعلن فى كل صورة من الصور التى مكن الله بها النفوس من أن تتعارف وتتآلف . فمن نظرة تنعكس فيها نفوسنا وتتردد ، إلى غمضة تنطبق على صورنا فلا تتبدد ، ومن سقم باد إلى هذيان متصل ، ومن زفرة محرقة إلى آهة صارخة ، ومن صمت طويل شامل إلى كلام دافق لا ينقطع مدده ، ولا ينتهى أمده ، يقطع النفَس ويجفف الريق ويتحرك به اللسان دون أن تسمعه الآذان ، ثم هو بعد ذلك لا شىء غير العجز عن تصوير ما يستحيل تصويره . . .

كنا كثيراً ما نتحدث الساعات الطوال بصوت منخفض والمرفق على المنضدة إزاء المرفق ، والوجه بجانب الوجه ، والبصر غائب فى البصر ، ونحن نظن أن المحادثة لم تدم أكثر من رجع النفَس أو لمح البصر ، ونعجب العجب كله أن يسرع زماننا بمقدار ما يسرع كلامنا وأن تفاجئنا الساعة بدقات الوداع ! كانت تلك الأحاديث تدور تارة على الفروق الطفيفة بين طبيعتنا وآرائنا ،

والمشابه القوية بين رغباتنا وأهوائنا ؛ وتارة على اعترافاتنا الخجولة نعبر عنها بأنات القلب الكسيرة ، ولوعات الكبد القريحة ؛ وطوراً على اكتشافنا لتلك العواطف المتحدة التى تتجاوب فى قلبينا تجاوب الأصداء ، وتنعكس فيهما انعكاس الأضواء ، ثم ينتهى بنا الأمر إلى وهن الجلَد وخور العزيمة متأثرين من ذلك الاتحاد العجيب ، باكيين من ذلك الشعور الجميل بأننا نفس فى صورتين ، وروح فى جسمين !

٧٩

وما كان أطيب للنفس أن نعود بالحديث فى أكثر الليالى إلى ذكرى الأماكن والظروف والساعات التى درج فيها غرامنا وشب ، كما تنتثر لآلئ العقد من جِيد الفتاة فترجع أدراجها تلتقطها واحدة فواحدة والرأس خافض والعين محدِّقة ! ! . وما كنا نريد أن تمحى من ذاكراتنا تلك الأمكنة ولا تلك الأزمنة مخافة أن يمحى معها شعورنا بتلك السعادة الخالصة والهناء المحض .

ذكرنا جبال سڤوا ووادى شمبيرى وبحيرة بورچيه وما بين أولئك من شلالات وثلاجات وسيول ومروج وشجر ، وما نعمنا به فيها من لقاء وتعارف وتآلف وحب وسمر . ذكرنا ذلك

وأعدناه وفصلناه دون أن نجد ثقلا فى إعادته ولا مللاً من تفصيله، كأنما كنا نحكى حديثاً لا يتعلق بنا ولا يتصل بحبنا .

واهاً لك أيها القلب ! ما أكثر عجائبك وأبعد رغائبك ! إنك لجوج طموح لا يفوتك ممن تحب لحظة ولا لفظة، ولا يخفى عليك منه معرفة ولا نكرة ، مع أن إيغالك فى تقصيه تأجيج لنارك وتسعير لجواك !

٨٠

وفى بعض الأحايين كان الأسى يدهم جوليا على غرة فتتحرق ضلوعها وتنهمر دموعها ، حزناً على ما أكابد جرَّاها من عناء ووجد . فهى ترانى وقد قضى علىَّ هذا الموت الماثل بينى وبينها ألا أجد فيها غير شبح للسعادة وظل للهناء إذا ضممت ذراعى عليه امحى وتبدد . لقد كانت تتوجد وتتأوه وتتهم نفسها بأنها شغلت فؤادى بحب لا يدنيه من غبطة ولا يعدُّه لمسرة ، وتقول : « واشوقاه إلى الموت ! إنى أريد أن يعجل إلىَّ وأنا شابة محبوبة ما دمت لا أستطيع أن أكون لك إلا حقيقة من مرارة الحب ، وخيالا من حلاوة الغبطة . فأنا سراب فى يدك وغليل فى كبدك . ومن العجب أن يسوق القدر المنحة والمحنة والسَّكرة والحسرة

فى سلك واحد . ليقتلنى الحب ولتعش أنت لتنعم بحب يلائم طبعك ويناسب قلبك . إنى إذا مت أكون أقل شقاء منى إذا عشت شاعرة بأنى أحيا بموت سعادتك وشبابك ، وأنعم بالحياة بفضل ألمك وعذابك » فأجبتها وأناملى المرتجفة تموّه عبراتها المسفوحة :
ما أقبح ما تحدثين عن هـذا النعيم المقيم ! وما أسوأ ما تظنين بذلك الذى شرفه الله بأن يعرفك ويفهمك ويحبك ! ! ألا تعلمين أن لى من هذه المدامع الحارة التى يسكبها قلبك الآن على يدى بحراً من الحنان والغبطة أجد فى رِيه من اللذة والبهجة أضعاف ما أجد فى تلك اللذائذ البهيمية السوقية من المسرات الأثيمة والمتَع العقيمة ؟ هل عَلِمْتِنِى أو سَمِعْتِنِى يوماً ما ولو فى ساعات هذيانى أعتب على القدر فى أن رفعنى بك ولأجلك فوق مستوى البشر ؟ إنما جعلنى القدر أعبد فيك الجمال الروحى الخفى المجسد ، لا تلك المرأة التى تُضم وتُشم ثم تتصوح وتذوى بين الأحضان الفانية . ألم تستطع تلك النار القدسية التى تتقد فى قلبى وجسمى أن تأتى على هذه الشهوات الباطلة والنزعات السافلة ؟ ألم تحولنى تلك النار إلى لهب صاف كقلبك نقى كحبك ؟ أولى لك ياچوليا ! ! اتخذى من نفسك عن نفسك فكرة تكون أوفق لك وأليق بك .
ولا يبكينَّك الألم الذى تظنين أنك أصبتنى به وجررته علىّ ، فإنى

لا أحس ألما ولا أستشعر ندما ، ولا أجد فى قلبي غير السعادة الفياضة والسرور الدائم والهدوء الشامل والنوم الذى لا يخالطه إلا طيفك . أنا أتألم ؟ ليتنى وفقت إلى هذا الألم ! فإنى كثيراً ما تمنيت أن أذوقه وأكابده لأجعل منه لله قرباناً على ما أولانى منك ولو لم يكن غير البكاء والحرمان . لأن الألم فى سبيلك هو وحده الذى يستطيع أن يزيد فى كأس هنائى المترعة قطرة . فكيف تسمين مثل هذا الألم ألمًا وهو لذة ! لا لا ياچوليا ! الحق أن الحياة على مثل هذا موت ، ولكنه موت سنين معدودة فى هذه الدار الفانية ، ليتسنى لنا الحياة السعيدة فى تلك الدار الباقية .

٨١

فصدقتْ ما قلت ونقعتْ به نفسها لأنه صدر منى عن اقتناع وصدق . ثم افترقنا وقد تزود كل منا من الألحاظ والألفاظ ما يغذى به عواطفه ويقوى به عزائمه ، على احتمال البعد طول اليوم . فلما بلغت الباب تطلعت فإذا هى محنية على حاجز الطُنُف بين الأزهار تشيعنى ببصرها . وظلت واقفة ما أمكنها من رؤيتى ضبابُ السين . ومضيت أنا كلما خطوت ثمانى خطوات تلفت فأرسل إليها نفسى الطائرة ونظرتى الحائرة وزفرتى المتقدة .

وكان يخيل إلىَّ أنى مقسم موزَّع : ففكرى معها لا يبرح ، وجثمانى يسير فاقد الإرادة بطىء الخطى ، يتلمس فى ظلام الشوارع المقفرة باب الفندق .

٨٢

على هذه الحال قضيت أشهر الشتاء السعيدة لا يكاد يختلف يوم عن يوم إلا بعطالعاتى المتنوعة وانفعالاتى المتجددة ، حتى التمعت تباشير الربيع على أعالى البيوت ، وانصاح بياض السماء فى أرض باريس المظلمة الرطبة . فسافر صديقى (ف) إجابة لدعاء أهله ، وخلفنى فى الغرفة وحدى بعد أن وعد بالرجوع مع الخريف . ونقد المالك أجرة السكن العامَ كله حتى لا يحرمنى كرمَ عنايته وحسن ضيافته أثناء غيابه . فأورثنى بعده كرباً وغمة ، وأعوزنى من أستريح إليه بمكنون صدرى وأناقله عن چوليا أطيب الحديث . ثم ورد على من أمى أن أبى رزئ فى ماله وأصيب فى رزقه فأعسر بعد يسر وأبأس بعد نعيم ، وأصبح المنزل الخصيب المضياف مهبط الإملاق والعُدم ، فاضطر إلى إنقاص مرتبى إلى النصف حتى يستطيع ولو بشق النفس أن يعول ستة أطفال اخَر . وأخبرتنى أن لا مناص من إحدى اثنتين : إما أن أعجل فأكسب لنفسى من

طريق شريف ، وإما أن أعود إلى بيت الأسرة فأقاسمها قوتها وأعيش معها عيش الكفاف والرضا . ثم كانت تهون علىّ وقع هذا النبأ الفاجع بما تظهره لى من شدة العطف علىّ ، وازدياد الشوق إلىّ ، وما تصوره لى من جمال الريف وبهجة الحقول ونضرة الزروع وهدوء المعيشة القروية .

ومما زاد الطين بلة والقلب علة أن نفراً من الأخدان الذين لبستهم فى عهدى الخالى على موائد القمر ، وسابقتهم فى ميادين اللهو والخمر ، مسهم الضر وعضتهم الفاقة فلقونى فى باريس فذكرونى مالهم علىّ من يد سابقة ، ورجوا أن أساعدهم من فضل أو أواسيهم من كفاف ، فبسطت لهم يدى بالعرف حتى سلبونى أكثر ما ادخرت . فلما أوشكت الراحة أن تصفر والكيس أن يفرغ ، فكرت فى ابتغاء الثروة من وراء الشهرة ، فنشب فى نفسى عراك شديد بين الحياء والحب : فهذا يدفع وذاك يمنع حتى تغلب الحب . فعمدت ذات صباح إلى المخطوط ذى الغلاف الأخضر ، وهو ديوان شعرى ومناط أملى ، فوضعته تحت ثيابى وذهبت به أقدم رجلا وأؤخر أخرى إلى ناشر كتب شهير وقع اختيارى عليه دون غيره ، لأنه فضلا عن شهرته فى عالم النشر أديب مذكور فى عالم الأدب . فلما بلغت بابه وقف بى الحياء وصدنى الخجل

فكدت أرجع أدراجى لولا أن تمثل لى وجه چوليا الجميل فشجعنى على التقدم ودفعنى إلى الدخول . فدخلت على السيد (د) . . . وهو رجل ناضج السن مجتمع الاشُدّ ، له دقة التاجر وسحنته ، وإيجاز الحريص على الوقت ولهجته ، فلقينى لقاء جميلا وسألنى عما أريد . فعمغمت بالكلام طويلا ودرت به حول الغرض حتى يفرخ روعى فأتبين وجوه القول . فلما ملكت نفسى أخرجت من بين ثيابى نسخة الديوان ووضعتها بين يديه بيد مرتجفة ونفس خاشعة وقلت له : إنى نظمت هذه القصائد وأود أن أنشرها رجاة أن يكون لى من ورائها قليل من المجد ، وإلا مهدتْ لى على الأقل السبيل إلى رجالات الأدب فأخطب ودهم وأكسب عطفهم . وسألته أن ينشرها على نفقته إذا رأى أن سيعود عليه منها عائدة ، ويستفيد الناس من قراءتها فائدة . فابتسم الرجل ابتسامة تنبئ عن التهكم والطيبة ، وتناول الديوان بإصبعين مرنتا على تصفح الكتب وتقليب الورق ، ثم وضعه على المنضدة وسألنى المهلة ثمانية أيام قبل أن يقطع الرأى فيه . فشكرته وانصرفت .

كان اليوم من هذه الأيام الثمانية يمر علىّ وكأنه فى طوله قرن . وكانت ثروتى وسمعتى وأمل أمى وحبى وحياتى ومماتى قد تجمعت كلها فى يد هذا الرجل . فتارة كنت أتمثله يقرأ هذه

الأشعار وبه من النشوة والصبوة ما كان بى ساعة ألهمتها وأنا فى بلادى فوق قنن الجبال أو على ضفاف السيول ، فيجد فيها ما سكبت من عبرات عينى وحسرات نفسى وقطرات دمى ، ثم تجمع من حوله صحابته من صفوة الأدباء فينشدهم هذه الأشعار فيطربون منها ويصفقون لها ؛ وتارة يدركنى الخجل ويصيبنى الندم من عرضى هذه البضاعة المُزْجاة على مثل هذا الرجل ، وكشفى عن عجزى وعوزى سعياً وراء أمل كاذب من الفوز قد يتحول من المسرة والسعة إلى المذلة والضعة . ولكن الأمل كان يتغلب على اليأس ، وينبلج صبح الرجاء فى ظلام النفس ، فتحدونى الأحلام وتقودنى المنى من ساعة إلى ساعة حتى انقضى الأجل .

٨٣

وفى اليوم الثامن صعدت السلم إلى الناشر وأنا مشرد الفكر مبلبل الخاطر . فلما بلغت الدرجة التى أمام الباب لبثت طويلاً لا أجرؤ على قرعه ، حتى خرج أحد الناس فتركه مفتوحاً فلم أجد بداً من الدخول . دخلت على الرجل فحيانى وأجلسنى وأخذ يبحث عن كتابى بين أكداس من الورق ثم قال : « لقد قرأت كتابك يا سيدى فوجدت له حظاً من القريحة والذكاء ، ولكنه خال من

البحث والدرس . إنه لا يشبه شيئاً مما ينشر ويؤثر عن شعرائنا .
ولا أدرى من أين أخذت هذا الأسلوب واقتبست هذه الآراء
ونقلت تلك الصور التى لا تجرى على سَنَن القواعد المعروفة ،
ولا تدخل فى باب من الأبواب المألوفة . على أنها واأسفاه سلسة
عذبة . فأعرِضْ عن هذا التجديد الذى ينكره الذوق الفرنسى ،
واقرأ لفحول أدبنا أمثال دُليل وبارنى وميشور ورنوار وفنتان
ممن يجلهم الشعب ويفخر بهم الأدب . تشبه بأحدهم إذا أحببت
أن يعرفك إنسان أو يقرأ لك أحد . إنى إذا أشرت عليك بطبع
هذا الديوان أكون قد دلَّست عليك الرأى ، ولم أتحرَّ لك وجوه
النصح ؛ وإذا قمت أنا بطبعه خدمتك شر خدمة ، واتخذت عندك
أسوأ صنيعة » ثم نهض من مقعده ورد إلى النسخة ، فأخذتها
وغيبتها فى ثيابى دون أن أحاول معارضة القدر أو مجادلة القضاء ،
فإنهما كانا يكلمانى بلسان هذا الرجل . ثم شكرته وحييته ونزلت
السلم وجفونى مخضلة بالدموع ، وأعضائى تكاد تتزايل من الهم .
وأقسم لو كان يدرى ذلك الرجل الطيب القلب الرقيق الشعور
أن ذلك الشاب لم يأته مستجديا مالا ولا شهرة ، وإنما جاء وكتابه
فى يده ينشد الحب والحياة ، لما تردد فى نشر هذا الكتاب ،
ولما ارتجى من غير الله جزاء ولا صلة .

٨٤

ثم عدت إلى غرفتي وأنا أتعثر فى أذيال اليأس . فأنكر الصبي والكلب ما بى ، وعجبا إذ رأيانى لأول مرة مكفهر الوجه طويل الصمت . ومضيت إلى الكانون فأوقدته ثم ألقيت فيه الديوان كله ورقة ورقة لا أستثنى منه شيئاً . ولِمَ أستثنى ؟ وهذا كله لم يستطع أن ينيلنى يوماً واحداً من أيام صفوى وحبى !! وما يضرنى أن تأكل النار فيما تأكل خلود اسمى ، فإنى أرى الخلود فى الحب لا فى المجد . وفى ذلك اليوم خرجت عند إقبال الليل فبعت ماسة أمى المسكينة ، وكنت لا أزال محتفظاً بها رجاة أن أجد فى شعرى فداء لها وغُنية عنها فأردها إليها صحيحة سالمة . فلما كذب الرجاء وأخطأنى رائد التوفيق دفعتها إلى الجوهرى ، وقد أشبعتها بالقبل وبللتها بالدموع ، حتى رق قلب التاجر وتحقق من حزنى البادى وعبرتى المسكوبة أن الماسة غير مسروقة . ولما نقدنى الثلاثين ديناراً ثمنها تخازلت أناملى عن قبضها ، فتبددت على الأرض كأنها مكسب حرام . ولطالما وددت بعد ذلك بجدع الأنف لو أسترد هذه الماسة العزيزة ببذل أضعاف أضعافها مما أملك من نفائس المال والحلى ثم أردها إلى أمى ، فإنها ضوء حبها ،

وقطعة من قلبها ، وآخر دمعة من عينها . آه ! ليت شعرى أيّة إصبع تختمت بهذه الحلية ؟ ؟

٨٥

ورد الربيع مفضَّض السماء مذهَّب الأرض منضور الجنبات مِسْكِى النسيم ، فامتلأت حدائق التويلرى بالمتبطلين ذوى الدعة ، وكثر خروجنا للاستراضة فى مراتع الجمال ، والاستراحة فى منازه الطبيعة ، فكنت إذا أرسلت الطرف من فوق الجسور إلى ما وراء الأفق رأيت هضاب (فلورى) و (ماندون) و (سن كلو) تكسوها الخضرة المتموجة ، وتشقها الخطوط المتعرجة ، فتستشعر نفسى الندم على أن فرطت فى جانب الطبيعة ستة شهور . فإذا ما سجا الليل بزغ القمر وتكسرت أضواؤه الزُّهْر على أمواج النهر الفاترة ، وكشف فى طرف السين عن دروب زاهرة ومناظر ساحرة يضل البصر فى أبخرتها الكثيفة وظلالها الوريفة ، وتسير النفس وراء العين كرهاً مأخوذة بفاتن جمالها . وكانت وجوه الحوانيت وخوارج الطنوف والشبابيك مغطاة بأُصص الأزهار يفغم السابلةَ عبيرُها الطيب وأريجها الشذِى ، والزهَّارات فى زوايا الطرق وأفواه الجسور جالسات خلف أستار من النبت

المزهر يحركن بأيديهن أضغاث الريحان كأنما يردن أن يعطرن المدينة ، وموقد النار فى غرفة چوليا قد تحول إلى غيضة صغيرة من نبات الاشنة، والمناضد والموائد قد ازدانت بزهريات البنفسج والسوسن والورد وغير ذلك من أزاهير الربيع المسكينة التى خرجت من روضها ونزحت عن أرضها فكانت أشبه بعصافير السنونو أقحمها النزق داراً من الدور ثم أعياها الخروج ، فأخذت تدور من جانب إلى جانب ، وتتخبط من حائط إلى حائط ، وبنو الدار لا يدركون من دورانها وثورانها غير البشارة بقدوم أبريل الجميل !

تضوع الطيب من هذه الرياحين والأزاهير فملأ الخياشيم والقلوب ، فذكرنا بهذه العطور والصور تلك الطبيعة البهيجة والأودية الأريجة ، التى تساقينا فيها كؤوس الهوى مترعة صافية ، ونعمنا فيها بطيب الحياة الخلوية الراضية ؛ وقد كنا نسيناها والأيام عابسة والسماء طامسة والجو قارس والأفق مغلق ، وأنا وهى جالسان فى تلك الغرفة الضيقة لا نشعر بالوجود ، ولا نفكر فى الناس ، ولا نذكر أن هناك سماء وشمساً وطبيعة غير ما يتصور كل منا فى الآخر . فلما أقبلت أيام أبريل الجميلة ذكرتنا إياها ، وأزعجتنا بذكراها ، وحركت فى أنفسنا عوامل الوجد ، ودعتنا

بدافع الغريزة إلى اجتلاء أنوارها واقتطاف أثمارها ، فى الغابات والخلوات من أرباض باريس ، إذ نكون أدنى إلى الطبيعة وأقرب من الربيع ، فكان يخيل إلينا ونحن ننعم معاً بلذة الاستراضة فى غابات (فنتينبلو) و (ڤنسين) و (سن جرمان) و (ڤرساى) أنا وجدنا غاباتنا وأمواهنا من وديان الألب ، أو على الأقل وجدنا شمساً كشمسها وظلاً كظلها ، وعرفنا فى حفيف الأغصان أنين هوائها .

٨٦

وكان من أثر الربيع الذى رد إلى السماء رونقها وصفاءها ، وللزروع حياتها ونماءها ، أن أعاد كذلك إلى جوليا بهجة القلب ومرح الصبي وجمال الشباب . فترقرق ماء الحيـاة فى وجنتيها ، وقوى بريق الفتنة والجمال فى عينيها ، وازداد كلامها خلابة ونحولها رقة ومشيها خفة ، وألهبتها حُمّى الحياة فتتابعت كلماتها ، وتسارعت حركاتهـا ، وبدا على جوارحها القلق ، فهى أبداً لا تسكن ولا تستقر . وكانت إذا أمسى المساء تركت الستائر مهصورة والنوافذ مفتوحة ، وأقبلت من لحظة إلى لحظة تطل من أحد الشبابيك فتتنسم طراءة المـاء وأشعة القمر وعبير النسيم . فقات لها ذات

ليلة وهى على تلك الحال : ما أولانا أن نجعل لأنفسنا أعياداً من هذه الأيام السعيدة ! فإن الله لم يجمّل السموات ولم يزين الأرضين إلا للذاكرين الشاكرين من عباده ؛ ونحن أقوى الناس شعوراً ، وأجزلهم شكوراً ، فلا يزكو بنا أن نكون أول من عمى عن جماله ، وفرط فى واجب أفضاله . فلننغمس معاً فى هـذا الهواء وذلك الضياء ، ولنغص فى ذلك المحيط الزاخر بالنبات والحياة الذى طبق الأرض فى هـذه الساعة . هلم لنرى هل تغير ما عهدناه فى أنفسنا من وقدة الحس وفيض الشعور وقوة الإدراك واضطرام العاطفة فوق جبال سقوا أو على أمواج البحيرة . فقالت لى : أجل هلم ! فإنا لن نشعر أكثر مما شعرنا ، ولن نتحابّ أكثر مما تحابينا ، ولكنا نشهد على سعادة قلبينا رقعة من الأرض وبقعة من السماء غير تلك البقاع التى شهدت ذلك الحب ورأت تلك السعادة .

ثم شجعنا الشيخ على هـذا التجوال فى الغابات الخضرة والخمائل النضرة من ضاحية باريس ، عسى أن يكون لنفحات الحقول ، وملابسة الشمس ، ورياضة الجسم ، فى نقاء الهواء وسكون الخلاء ، أثر حسن فى تهدئة أعصاب چوليا وانشراح قلبها وانبلاج صدرها . فكنت أغدو عليها ساعة الظهيرة من كل نهار فأخرج

بهـا إلى الخلوات فى مركبة مقفلة اتقاء للعيون ودرءاً للظنون ، ولا ننزل منها إلا عند مداخل الغاب ، أو على سفوح الهضاب ، أو لدى أبواب البساتين من ضواحى باريس . ثم نبحث فى فلورى ومندون وسِفْر وساتورى وفنسين عن الأماكن المهجورة التى وشتها يد الطبيعة بأفواف الزهر ، وغشتها بنضور النبت ، وطهرت من أوضار النـاس وضوضاء الحياة ، اللهم إلا بعض الأطفال أو بعض النساء يشققن الأرض بأسلحتهن ليقلعن منها الهندبَى ، وإلا وعلة وجلة تأتى الحين بعد الحين ترعى ، فإذا لحتنا فى العريش انطلقت عادية مذعورة . كنا نسير صامتين إما متعاقبين وإما متكاتفين ذراعها تحت إبطى . فاذا ما تكلمنا حلمنا الأحلام وتمنينا الأمانى وتصفحنا وجوه المستقبل ، ثم قطفنا مختلف الزهر فتبادلناه لغة ، وصورناه عواطف ، وأودعناه ذكرياتنا ونظراتنا وزفراتنا وصلواتنا ، ثم احتفظنا به لنعود إليه إذا حُمَّ الفراق فنذكر به تلك الأحاديث العذبة والأمانى الحلوة . ثم كنا نجلس فى الظل على حافة الطريق فنفتح كتاباً نقرأ فيه فلا نستطيع أن نأتى على آخر الصفحة فنلقيه ونفضل عليه أن نقرأ فى وجوهنا ما يختلف عليها من شتى المعانى وجم الصور . فإذا مسنا الجوع ذهبت إلى ما يجاورنا من الضياع فأحتلتُ شيئاً من اللبن والخبز الأسمر فأكلناه

فوق العشب ثم صببنا فضلة الأقداح إلى النحل ، و نثرنا فتات الخبز إلى الطير . حتى إذا تضيَّفت الشمس إلى الغروب عدنا إلى صخب باريس وضوضائها ، فينقبض الصدر ويستوحش القلب ، فأبلغ چوليا بيتها وهى نشوى من بهجة اليوم ، وأرتد أنا إلى غرفتى الخالية منهوكا من الغبطة متساقطاً من الجذل ، فأضرب بيدى حوائطها الأربعة عسى أن تتصدع فتردَّ إلى ما سلبته من النور والطبيعة والحب ؛ ثم أوقد المصباح وأتعشى من غير شهوة وأقرأ من دون روية ؛ ثم أفزع إلى تعداد الساعات مترقباً حلول الساعة التى أذهب فيها إليها ، لأنعم بالمثول بين يديها ، وأسأل الليل أن يعيد علىَّ أحاديث النهار .

٨٧

كنا نعيد اليوم ما بدأناه بالأمس من استراضة واستراحة . ولا تسل عما أحدثته بمديتى من السمات فى جذوع الأشجار التى تفيأتها واستنشيت فى ظلالها نسمة من الحياة ، أوشعَّة من الشمس ، أو نفحة من أريج الغاب . سيرى المار هذه الأشجار دون أن يدرى أنها عند بعض الناس أعمدة لهيكل مقدس ، على الأرض عابدُه ، وفى السماء معبوده . هيهات أن أنكر ما حييت

هذه الأشجار ! ولا زلت إلى اليوم أزورها مرة أو مرتين فى كل ربيع . وإذا ما وقعت عيناى على الفأس تجذّ فروعها ، وتقضب جذوعها ، أحسست أنها تعمل فى لحمى وتقطع من حشاى .

٨٨

على هضبة شاهقة من جنبات (سن كلود) تشرف على سهل (ايسى) ومجرى السين وطريق فرساى كان مراحنا ومغدانا . فكنا نتمتع فوقها بعلو القمة وسكون الوادى وهدوء الخلاء ، ونتملى فوق ذلك بما يكتنف المكان من مروج وزروع وسفوح لا يكدر صفوها جلبة ، ولا يقطع سكونها حركة . وهنالك تتردد الأنفاس منتظمة فى الصدر ، وتتوارد الأصوات محددة واضحة على الأذن ، وتطير النفس طليقة مترامية فى أفق الحياة . صعدنا إليه ذات صباح من شهر مايو والغابة يومئذ لا يغشاها إلا الظباء الشوادن يثبن ويمرحن على مماشيها المقفرة الخلاء ، وبعض حراس الصيد يجتازونها من حين إلى حين كالنقطة السوداء فى أقصى الأفق . وكان مجلسنا تحت الشجرة السابعة التى تتم بها نصف الدائرة فى ملتقى الطرق من الهضبة ، فوق أريكة طبيعية من العشب متكأُها الشجرة وظُلّتها الأغصان . وكان الضحى نقى الهواء رفاف الأديم

والشمس فى سمائها الصافية تمد الهضبة الشجراء بأشعتها المحرقة ، والطبيعة خرساء لا تلغو فيها لا غية ، فلا تسمع إلى نِثَارَ أوراق الشتاء الجافة المختلفة أسقطها نبض الحياة فى عروق الشجر لتنبت مكانها الأوراق الجديدة ، وإلا اصطفاقَ أجنحة الأطيار حول أعشاشهن فى الأشجار ، وأرانينَ الذباب أثمله الضوء فهو يبدو ويختفى زمراً كالغبار كلما تموج النبات المزهر .

٨٩

كان بين شبابنا وشباب العام وشباب اليوم اتحاد عجيب . وكان بين إحساسنا وبين هذا الضوء اللألاء ، وتلك الحرارة الممتعة ، وذلك السكون المتقطع ، وهذه البهجة الشاملة ، تَوَافق تام ، حتى حسبنا أنفسنا قد امتزجنا بهذا الهواء وهذى السماء ، واستحلنا إلى هذى الحياة وذلك الهدوء ، واستولى كل على أخيه تمام الاستيلاء ، ووجد فى فكره وحسه الكفاية والغناء . وما كنا فى حاجة إلى الكلمات نترجم بها عن أفئدتنا النابضة ، وعواطفنا الفائضة ، لأننا كنا أشبه بالإناء الطافح ؛ كلما ازداد فيضه ازداد ركوده . لم يبق فى قلبينا مكان لحس ولا موضع لاختلاجه ؛ على أنهما عظما حتى وسعا كل شىء ، ولا شىء مما استوعباه يريد أن

يخرج . لذلك صمتنا حتى لَيُغْيِيك أن تسمع أنفاسنا تتردد .

لاأدرى كم ساعة لبثنا صامتين ساكنين تحت هذه السنديانة قد اعتمد كل منا رأسه بيده وقد مد رجليه فوق العشب الضاحى ، ومدت الأفنان على جبينينا ظلها السجسج . إلا أننى حين رفعت رأسى كان الظل قد انسحب عن ثوب چوليا وانبسط أمامنا فوق الخضرة . فنظرت إليها ورفعت هى أيضاً رأسها تنظر إلىّ كأنما دفعها إلى ذلك ما دفعنى ، وكأنما حاولت الكلام فعىّ به لسانها فانفجرت باكية . فقلت لها بصوت خافت متهافت مخافة أن أزيد فى تأثرها ، أو أخرجها من تفكرها : م تبكين ؟ فقالت : من الغبطة ! ثم جرت على شفتيها ابتسامة حلوة كما جرت من عينيها عبرات كأنداء الربيع فوق الورد . وعاودت الكلام تقول : أجل أبكى من الغبطة ! فإن هذا اليوم ، وهذه الساعة ، وهذا المكان الساكن الهادئ ، وهذه الخلوة الصامتة معك ، وذلك التماثل الذى مزج نفسينا فجعلهما نفساً واحدة لا تفتقر إلى لغة ولا تختلف فى شعور ، أكبر من أن تحمله طبيعة بشرية يقتلها فرط السرور كما يقتلها فرط الألم ، وتئن لأنها لا تملك الأنين ، وتبكى لأنها لا تستطيع الشكر .

ثم سكتت هنيهة وعلت وجنتيها حمرة ونضرة ، فارتعد

جسمى خشية أن يأتى الموت ساعة تفتحها فيقطفها . ولكنى اطمأننت حين نادتنى بلهجة الجد والعزم كأنما تريد أن تعلن إلى خبراً جديداً طال انتظاره . قالت : رفائيل ! رفائيل ! لقد صدقت أن الله موجود . فقلت لها : وما الذى قرر فى نفسك اليوم هذا المعنى أكثر من كل يوم ؟ فقالت : الحب ! نعم هو الحب الذى أشعر بسيوله الآن تتدفق فى قلبى هادرة فياضة . وما عهدت نفسى من قبل قد شعرت هذا الشعور القوى الرضى الهادئ . كلا ! لم يعد فى قلبى موضع للشك ، فإن الينبوع الذى يفيض منه هذا النعيم على القلوب ليس من ينابيع الأرض ، فلا يعتريه نضوب ولا يدركه عدم . فلا بد من إله ينبثق عنه هذا الحب الخالد ، وما حبنا إلا قطرة منه ، وسينتهى بنا الأمر إلى أن نختلط معاً بهـذا المحيط الإلهى الذى اغترفنا منه ، وما ذلك المحيط إلا الله . لقد رأيته وأدركته وفهمته فى هذه اللحظة بفضل سعادتى ومعونة غبطتى . فما أنت يا رفائيل الذى أحبه ، ولا أنا التى تحبها ، وإنما هو الله الذى تعبده فىَّ وأعبده فيك ، ويعبده كلانا فى هذه العبرات التى نسكبها من الغبطة الداعة والنعيم المقيم . فلنمْحُ هـذه الأسماء الباطلة التى سمينا بها هذا الميل المتبادل بيننا . فليس بعد اليوم إلا اسم واحد يدل عليـه ويعبر عنه : ذلك الاسم هو الله ! ! وستكون العاطفة

التى تتولانا بعد ذلك هى العبادة لا الحب . وستكون أنت صلاتى إلى الله لا معبودى ولا حبيبى . أفهمتنى يا رفائيل ؟ فقمت والقلب يستخفه نوازٍ من الحمية والطرب ، فقبلنا الشجرة وباركنا عليها لأنها كانت مهبط هذا الوحى وموضع ذلك الإلهام ، ودعوناها بعد ذلك شجرة العبادة . ثم هبطنا منحدر سان كلود وعدنا فانغمسنا فى ضوضاء باريس ، ورجعت إلى منزلها وقد عرفت ربها ، وغمرت بنوره قلبها ؛ ورجعت أنا مثلوج الصدر قرير العين لاهتدائها إلى هذا الضياء ، وظفرها من الله بهذا العزاء .

٩٠

لم يتحمل ثمن الماسة الأخيرة من حلى أمى نفقة الخروج كل يوم مع چوليا إلى ضواحى المدينـة ، فأسرع إليه النفاد فى زمن يسير ، ولم يبق منه إلا عشر لويسيات . ولشدّ ما أظلم فى عينى اليأس واستولى على قلبى الهم ، حين عددت فى المساء هذا الباقى الضئيل وعلمت أنى لا أنال به غير أيام معدودات من أيام السرور ! وما كان أشد خجلى لو بحت إلى حبيبتى بسر هذه الفاقة ! ولو أنى فعلت لأمدتنى بكل ما تملك وهو لا يفيض من راحتها ، ولا يزيد على حاجتها ، وإذن يتضع حبى فى عينى وأنا أوثر أن أموت على

أن أحقر من شأنه أو أطأطئ من سموه . وكانت حياة القعود التى حييتها طول الشتاء فى ظلام الغرفة ، وإدمان الدرس ، ولجاجة الهوى ، ومكابدة الأرق ، والوهن الذى أصاب قلبي الضعيف من توقانه الدائم وفيضانه المستمر مدة عشرة أشهر ، قد أنحلت جثمانى وضعضعت كيانى ، فلم يبق وراء وجهى الضامر الشاحب غير لهيب يتأجج من غير وقود لا يلبث أن يأكل بعضه ويخبو .

فلما رأت ذلك جوليا نشدتنى الله أن أعود إلى مسقط رأسى فأستروح نسيمه وأتذوق نعيمه ، وأن أبقى على حياتى ولو على حساب حبى . ثم أرسلت إلىّ طبيبها الدكتور (أَلَنْ) لتعزز وسيلة الحب بسلطان العلم . وذلك الطبيب أو بالحرى ذلك الصديق كان من رجال الخير وأهل السمت الذين يحملون إلى ما يزورون من أكواخ الفقراء بركة الدين ونور اليقين وعزاء الأمل . أصابته علة فى القلب على أثر غرامه الخفى النقى بامرأة من أجمل نساء باريس ووجد نفسه فى كفاف من الرزق يتسع لقضاء حاجاته وإسداء مبراته ، وهو من بعد رجلٌ ورع عطوف نشيط حمول ، فقصر طبه على بعض أصحابه وذوى المتربة ممن يعرف ومن لا يعرف . وصناعة الطب جميلة ما لم يشوهها الطمع ، شريفة ما لم يحقرها الحرص ؛ وهى ألصق الصناعات بإحساس الرجل وقلبه ، تبتدئ

بالطبع وسيلة من وسائل الرزق ، ثم تنتهى فى غالب الأمر فضيلة من فضائل النفس . وقد أصبحت فى اعتقاد هذا الطبيب أقوى من الفضيلة وأسمى من الواجب ، واستحالت فى قلبه إلى هوى ملازم وشغف ملِح بالتخفيف عن جسوم المرضى ، والترفيه عن نفوس البائسين . فحيثما حل ينكشف سر الحياة ، وينتشر نور الله ، وينبعث فى النفوس الهالكة جمال الوجود وجلال الخلود حتى فى سياق الموت . ولقد رأيته بعد سنين يموت ميتة الأخيار البررة ، بعد أن طال قيامه وقعوده على أسِرَّة المحتضرين ، فتهيأ لها وراض نفسه عليها . أثبته المرض فى فراشه ستة شهور يعالج الروح ويكابد النزع ويَعد بعينيه الساعات التى تفصله عن الأبدية . وكان على مؤخر سريره ساعة معلقة ، وبين يديه المشبوكتين على صدره صليب لا تفارقه عيناه لحظة . فإذا رهقه من الألم ما يضيق عنه طوقه طلب ممن حوله أن يدنوا الصليب من فمه فيفضى إليه بصلاته وشكاته . ثم انتهى أمره إلى أن رقد رقدة الخلود بين اخضرار الأمل وابيضاض العمل ؛ تاركا إلى الفقراء والمرضى أن يتقدموه إلى الله حاملين ما ادخر من عمل صالح وكلمة طيبة .

مات هذا الكريم على حصيرة فى غرفة حقيرة ، وما خلف غير السمعة الجميلة والأثر الحسن . فحمل الفقراء جثته ، ومنحوه

مَرَّتهم قبراً من قبور الصدقة فى الأرض المشتركة !

أيتها النفس الطاهرة المطمئنة ! ! لكأنى أنظر إليك الآن تشرقين فى ذلك الوجه المتهلل السموح ! ! هل وجدت عاقبة هذه الفضائل الغر وتلك المحامد المشكورة وهماً باطلا وكذباً صريحاً ؟ وهل تفنين فنـاء ضوء المصباح أنار لى عن وجهك ثم أطفأته ؟ لا لا ! حاش لله أن يخدعك وأنت لم تخدعى فى دنياك طفلا !

٩١

تعلق بى الطبيب وجعلنى موضع اهتمامه ومكان عطفه ، ولم تخفَ عليه حقيقة دائى وإن لم يبح لى بما عرف عنه . إلا أنه أمرنى بالرحيل مخافة أن يدركنى الموت . ثم أفضى إلى جوليا بما يتوقعه لى من المكروه إن عصيته . واستعان بحنان الحب وسلطانه على أن ينتزعنى من بين أحضانه . ثم أخذ يُسيغنى مرارة الفراق بحلاوة الأمل ، فأمرنى أن أقضى زمناً بين أسرتى لتعود إلىّ صحتى ، ثم أرتد إلى حمامات سفوا فأنتظر جوليا هناك أوائل الخريف . وهكذا فصلنا هذا الحكيم التماساً لنجاتنا من عناق كاد يُشفى بنا على موت الخُناق لو استمر طويلا .

قبلت أخيراً أن أرحل أولا ، وأقسمت لى جوليا أن توافينى

على سفوا بعد قليل . وكان وا أسفاه من مدامع عينيها واصفرار وجنتيها وارتجاف شفتيها أوثق يمين وأصدق عهد . ثم حُمَّ البين وأَفِدَ الفراق وضرب يوم ١٨ مايو موعداً للرحيل . فأصبحنا نعد الدقائق بدل الساعات ، والساعات بدل الأيام ، وتمنينا على الله أن يجمع السنين فى لحظة ، ويختصر اللغة فى لفظة ، لنتمتع الآن بما سيسلبه الزمن من سعادتنا أثناء الغيبة .

لقد كانت هذه الأيام أيام نعيم ولذة ، ولكنها كانت كذلك أيام عذاب ومحنة ! فقد كنا نحس فى كل مقابلة ، وكل مصافحة ، وكل نظرة ، وكل كلمة ، برودة الغد القريب والبين المحتم . والسعادة على مثل هذه الحال لا تسمى سعادة ، وإنما هى لوعة القلب ولذعة الحب وحرقة الجوانح .

جعلنا للوداع عامة اليوم السابق ليوم الرحيل ، ثم اخترنا أن يكون فى سكون الخلاء تحت نظر السماء وبين أحضان الهواء لا فى ظلام المنازل التى تكظم النفس وتظلم العين ، ولا بين العواذل الذين يفتون الكبد ويصدعون الفؤاد . والطبيعة شريكة الإنسان فى شعوره ، ومشاطرته فى حزنه وسروره .

٩٢

وفى صباح ذلك اليوم ركبنا عربة كنت أكتريتها من قبل ، فاجتازت بنا وهى مغلقة النوافذ مُرْخاة الستائر شوارع الأحياء العليا من باريس تقصد حديقة (مُنْسو) . وكانت هذه الحديقة محبوسة إذ ذاك على نزه الأمراء الذين يملكونها ، فلا يدخلها داخل إلا بإذن ، ولا ينال هذا الإذن إلا قليل من الغرباء أو المفتونين بسحر هذا الفردوس . نلت هذا الامتياز بمعونة صديق من أصدقاء أمى له بمنزل هؤلاء الأمراء صلة وثيقة . ووقع اختيارى على هذا الروض لأنى أعلم أن الأمراء غُيَّب ، وأن الدخول إليه الآن منقطع ، وأن البستانيين أنفسهم تركوه ليحتفلوا بيوم عيد وعطلة . ففى هذا اليوم لم يغش هذه الرياض الأريضة ذات الماء السلسال ، والظل السجسج والأعمدة المرفوعة والأطلال المصنوعة ، إلا نحن وأشعة الشمس وحشرات الأرض وأطيار السماء . ولم تُسق وواليتاه أوراقها ووَرَاقها[1] بمثل ما سقتها مدامعنا الثرَّة المنهلّة ! ! على أننا كنا كلما دفؤ الهواء وصفت السماء وتصارع الظل والنور على العشب المكتهل ، وغرد البلبل تغريد الطروب الثَّمِل ، وانعكس النَّوْر والنُّور على صفحة الجداول الصقيلة ، واستضحكت

(١) الوراق خضرة الأرض : الجازون

ثغور الربيع فى هذه الربى الجميلة ، ارتدت هذه البهجة فى نفوسنا كآبة ، وغشيت قلوبنا الحزينة من صفائها سحابة فوق سحابة . ولَكم حاولنا فى غير طائل مخادعة أنفسنا بالنشاط والانبساط إلى روعة المناظر ، وبهجة الأزاهر ، وعبير النسيم ، وكثافة الظل ، وصلاحية هذا المكان لإيواء عالم المحبين بأسره !! فألقينا عليه من باب المجاملة نظرة ذاهلة ، ولكنها سرعان ما ارتدت إلى الأرض ! وأردنا أن نتبادل كلمات الإعجاب والجذل ، ولكنها أسفرت عن نضوب المعنى وعزوب الفكر . لقد كانت أفكارنا فى مكان آخر !!

كذلك حاولنا أن نقضى ساعة الوداع الأخير تحت ظلال الأشجار العطرة ، أو فوق قطع الأعمدة الخضِرة ، أو على حافة الجداول العشيبة النضرة ، فما استقر لنا حال ولا سكن لنا بال ولا اطمأن بنا خاطر . فما نكاد نختار مكاناً حتى يساورنا القلق والضجر فنتركه إلى غيره . هنا الظل ، وهناك النور ، وهنالك هدير الشلال أو هديل العندليب ، ولكن هذه الأشياء كانت تحول فى نفوسنا هذه اللذة ألماً ، وتقلب فى عيوننا ذلك المنظر قبحاً ! متى التاع القلب بجمرة الهم لا تزده الطبيعة كلها إلا هما وسأماً ؛ وجنة الفردوس إذا أصبحت مكاناً لوداع عاشقين كانت أشد من الجحيم

عذاباً وألماً . انتهى بنا الكلال من طول المطاف إلى أن جلسنا قريباً من قنطرة على جدول . جلسنا متباعدين مسافة غير قصيرة ، كأن صوت أنفاسنا كان يضايقنا ، أو كأننا أردنا بدافع الغريزة أن يخفى كل عن أخيه هَنين نحيبه المكتوم وقد أوشك أن ينفجر .

أطلنا النظر فى ذهول إلى الماء المخضر الراغى وهو يغور بطيئاً تحت عقد القنطرة ، تارة يحمل معه ورقة بيضاء من أوراق السوسن ، وتارة يكسح عشًّا خالياً من أعشاش الطيور رمى به الهواء من فوق الشجرة . فرأينا على حين بغتة جثة طير غريق من طيور السنونو قد حملها الماء حتى غيبها رويداً رويداً فى حنيَّة القنطرة . وما كادت تتوارى جثة الطائر حتى أقبل طائر آخر من جنسه وأخذ يقع ويقوم ويُسِفُّ ويحوم حول القنطرة وهو يئن أنين الحزين ويضرب بجناحيه أحناء العقد . فتبادلنا النظر عن غير عمد . وما أدرى ماذا قالته عيوننا حين الْتَقَيْن . غير أن يأس هذا الطائر المسكين قد صادف مناجفوناً مترعة ، وقلوباً موجعة ، فأدار كل منا ظهره لأخيه ثم انفجرنا بالبكاء . كانت العَبرة تبعث العبرة ، والفكرة تجر الفكرة ، والطِّيَرَة تجلب الطيَرَة ، والزفرة تستتبع الزفرة . ولقد عالجنا الكلام مراراً فتكسرت نبراته فى حلوقنا حتى عاد أنيناً وحشرجة . فنزلنا على حكم الطبيعة ، وظللنا

نذرف صامتين كل مافى مآقينا من دموع ، حتى تخضّل النبات وتبلل الثرى ، وحتى لم يبق من الدمع قطرة فى عيوننا ، ولا من الهم نقطة فى قلوبنا . ذلك كان وداعنا : صورة محزنة ، ودمعة هاطلة ، وصمت أبدى ! ثم افترقنا وكلانا لا يستطيع معاودة النظر لأخيه مخافة أن يخر إلى الأرض من صدمة النظرة .

حرام على هـذه الحديقة بعد أن شَهدتْ وداعنا ، وفرقت اجتماعنا ، أن تشهد ثانية وفودى إليها ، أو ترى آثار قدمى عليها !!

٩٣

وفى صباح اليوم التالى كانت العجلة تدرج بى على هضاب (ميدى) الجدبية والعقل شارد والجسم هامد واللسان صامت والرأس مدثر فى معطف ، وحوالى خمسة أو ستة من دهماء الناس يتحدثون فرحين عن نوع النبيذ وثمن الغذاء فى الخان . فقطعت هذه المرحلة الطويلة الثقيلة دون أن تأبه أذناى لحديث ، أو تنفرج شفتاى عن كلمة . ولما بلغت عرين الأبوة وعش الأمومة لقيتنى أمى بحنانها البشوش الذى يرد الشقى سعيداً . وماذا لقيت منى ؟ لم تلق وا أسفاه إلا جسما ناحلا ولونا حائلا وقلباً ذاهلا وشباباً عاطلا ويأساً قاتلا عزته هى إلى سأم الفراغ وسقم الخيال ، وأخفيت

أنا مبعثه الحقيقى حتى لا أضيف إلى آلامها ألماً لا طِبّ له ولا برء منه ، فلم تجد بدا من أن تبعث بى إلى واد من الأودية الخلاء لنا فيه مزرعة مستأجرة تعمل فيها أسرة نشيطة ، رجاة أن أجد فى هواء الجبال متنفَّساً من الهم ، وبين هذه الأسرة ملتمساً من العزاء ، فقضيت الصيف وحيداً فى هذا المكان لا يشغل ذرعى إلا عدُّ الأيام التى تفصلنى عن لقاء چوليا فى وادى الألب ، ولا يملأ فراغى إلا الرسائل التى أكتبها إليها أو التى أتلقاها منها .

وكانت هذه الرسائل المْمتِعة الرقيقة حرية أن تجلو ما ران على قلبي من صدإ الهم يوم الوداع . ولكن بعضاً من كلمات الأسى والجزع كان يسيل من شق يراعها الحين بعد الحين عن غير قصد ولا روية ، فيكون أشبه بالورقة الذابلة بين أوراق الربيع الغضيرة النضيرة . وأراها تناقض ما تحدثنى عنه من هدوء بالها ووفور صحتها ، فكنت أعزو هذا التنافر النادر إلى شجون الذكرى أو إلى إبطاء الزمن .

ثم كان من جفاف الهواء فى الجبل ، وطيب الرقاد فى الليل ، ولذة الاستراضة بالنهار ، والعمل البدنى فى الحديقة أو فى المرج ، فضلا عن اقتراب الخريف ودنو اللقاء ، أن مسح الله ما بى من ضنى الجسم وشفوف الألم . فلم يبق من آثار السقم إلا انقباض

لطيف يبدو على ملامح وجهى بُدُوَّ الضباب الرقيق على حاشية الصباح الجميل ، وصمت عميق كصمت الخفاء وعمق السر ، وعزلة عن الأنس أوهمت المشعوذين منهم أنى مؤاخ للجن . لقد أمات الحب فى نفسى كل مطمح ، فرضيت من الحياة الدنيا بالنصيب الأخس من خمول وفقر ، وأصبح كل ما أتمناه على الله أن أعمل بيدى أو بقلمى عشرة أشهر فى السنة ، فأجمع من المال ما يمكننى من العيش بجانب چوليا شهرين فى كل عام . حتى إذا ما فجعها الموت فى الشيخ جعلت نفسى فى خدمتها ، وقمت لها مقام روسو للسيدة دفرنس ، وعشت معها تحت ظلال الحب فى كوخ من أكواخ هذه الجبال ، أو فى جوسق من جواسق سفوا ، غير آسف على هذا العالم الفارغ ، ولا مبتغ من الحب جزاء غير السعادة بأنى أحب ! . . . .

٩٤

على أن شيئاً واحداً كان يوقظنى من هذه الغفوة ، ويزعجنى أثناء هذا الحلم : ذلك ما كانت تكابده الأسرة من الفقر المدقع والضيق الموجع ، مما أعقبته نفقاتى الضائعة ، ونقص الثمرات أعواماً متتابعة . فكنت كلما ذهبت يوم الأحد أزور أمى كشفت

لى بدمعها الهاطل وألمها القاتل عن اشتداد الأزمة واستحكام اليأس مما تسر نبأه عن أبى وأخواتى . وكنت أنا فى تلك الآنة قد بلغت الغاية القصوى من العوز والفاقة . فأنا أعيش فى المزرعة على الخبز الأسود مأدوماً باللبن والبيض ، ولم أجد أجرة البريد عن رسائل چوليا إلا ببيع ما أملك من متاع وكتب . ومع ذلك فقد شارف سبتمبر تمامه ، وكتبت إلىَّ چوليا تقول إن قلقها على زوجها العليل محبسها بباريس أكثر مما كانت تظن ، وتطلب إلىَّ أن أبادر بالسفر إلى سڤوا فأنتظر قدومها إليه آخر أكتوبر . وتلك كانت خدعة من خدع الحب الطاهر عمدت إليها إخفاء لآلامها وإقصاء لهمى . وكانت رسالتها مشرقة السطور بنصائح الأخت الحنون للأخ العزيز . تأمرنى بدالّة الحب وسلطانه أن آخذ حِذْرى من داء يكمن فى إهاب الشباب النضر فلا يزال يذويه ويضويه حتى يفتك به فى الساعة التى يرجو فيها الظفر به والانتصار عليه . وبين مطاوى هذه الرسالة إشارة من طبيبها وطبيبى الدكتور الشفيق (ألن) ينذرنى فيها بسوء العقبى إذا لم أقض مدة طويلة فى ربوع إكس وحماماتها . فأطلعت أمى على هذه الإشارة لتكون ذريعة لى إلى السفر . فلما قرأتها بدا عليها القلق ونال منها الهم وضمت رجاءها إلى أمر الطبيب . ولكن وا أسفاه ما كان فى

مقدورى أن أجد النزر اليسير من نفقات الرحلة ولا التافه الحقير من متاع السفر . على أن أمى فى ليلة واحدة وجدت فى قلبها مورداً لهذا المال ، وما يستطيع غير قلب الأم أن يهتدى إلى هذا المورد !

٩٥

كان فى زاوية من زوايا الحديقة التى تكتنف بيت الأسرة أَيْـكَةٌ صغيرة مؤلفة من ثلاث شجرات من شجر الزيزفون وسنديانة خضراء وثمانى دوحات من باسق الشجر ؛ وهى كل ما بقى من غابة قديمة العهد اجتثوا أشجارها ليخطوا فوقها البستان ويرفعوا عليها البيت . كانت هذه الأشجار الجميلة الظليلة منتدى الأسرة ومتفيأها أيام الصيف . وكانت براعمها فى الربيع واختلاف ألوانها فى الخريف وسقوط أوراقها فى الشتاء ، تعين لنا أوقات الفصول . وكان ظلها وهو يتقلص تحت جذوعها أو يمتد بعيداً عن فروعها ، أتم دلالة على ساعات النهار من الساعة . وكانت أمى تغـذينا وتناغينا وتهدهدنا وتدربنا على المشى تحت ظلالها . وكان أبى إذا ماعاد من الصيد جلس تحتها وكتابه فى يده ، وبندقيته اللامعة معلقة على غصن من أغصانها ، وكلابه اللاهثة راقدة فى ركن من أركانها . وأنا نفسى قضيت ألذ ساعات الحداثة فى

فيئها ، أنعم بقراءة هوميروس أو تليماك ، وألذ بالاستلقاء على العشب الدافئ وأمامي الصفحات منشورة تثب عليها من حين إلى حين عظاية أو ذبابة . وكانت البلابل تطرب البيت بأغاريدها الرخيمة العذبة دون أن يعرف أحد مبعث أصواتها ، أو يقف على مكان أعشاشها . كانت هذه الأيكة مجد الأسرة وذكرى الجدود ومهوى الأفئدة . فتحويلها إلى كيس من الدنانير لا تبعث ذكرى ولا تسر نفساً ولا تظل أسرة لا يخطر على قلب أحد . اللهم إلا الأم التي أذاب الهم لفائف قلبها ، إشفاقاً على حياة وحيدها وفلذة كبدها . خطرت هذه الفكرة ببال أمي ، فلم تكد تستيقظ من النوم حتى أسرعت بحكم غريزتها وصدق عزيمتها إلى دعوة الحطاب وأمرته أن يجتث هذه الشجرات بسرعة قبل أن تعلمني مخافة أن يبدو لها ، أو أحول أنا بينها وبينها . ورأت بعينها الباكية فأس الحطاب تعمل في جذور هذه الشجيرات ملجأ صباها ، وشاهد لهوها وهواها ، فأشاحت بوجهها ، وجعلت أصابعها في أذنها ، حتى لا تسمع أنينها ولا ترى سقوطها على أرض الحديقة العارية الجديبة !

٩٦

وفى يوم الأحد التالى بينما كنت عائداً إلى (ميلى) بحثت بعينى من فوق الجبل عن لفيف الشجر الذى كان يجمّل الهضبة ويظلل البيت ، فلم تقع عيناى منه إلا على جذور مبتورة ، وجذوع منشورة ، وأغصان منثورة ، وآلات منصوبة كآلات العذاب ، ونشارين يجزّونها جز الرقاب ! نخيل إلىّ أنى فى حلم . وهرولت إلى السور وفتحت باب الحديقة الصغير بيد ملتهبة وأعصاب مضطربة ، ونظرت فلم أرَ قائماً والهفتاه غير السنديانة وشجرة واحدة من شجر الزيزفون ودوحة من الأدواح الثمان جعلوا تحتها المقعد . ورأتنى أمى فأقبلت إلىّ وارتمت بين ذراعىّ وهى تنهنه دمعها المصبوب وتقول : حسبنا هذا ! إن فيما بقى كفاية ! وإن ظل شجرة واحدة ليعدل عندى ظلال غابة بأسرها ، ولكن ليس فى ظلال الأرض قاطبة ما يساوى ظلك . ولقد كتبت إلى أبيك أقول له إن الشجر قد آفَ ولا بد أن يعدى البستان ويؤذى الزرع إذا ترك . فلا تلمنى على شىء ، ولا تلْحَنى فى واجب ، ولا تحدثنى هذا الحديث بعد ! ! . . ثم قادتنى إلى البيت وفتحت خزانتها فأخرجت منها كيساً من الدنانير مملوءاً إلى نصفه ، وناولتنى

إياه وهي تقول : خذ هذا المال ياولدى وسافر ! وإذا ردك الله عليّ موفور الحظ من العافية ، معمور القلب بالسعادة ، كان لى من ذلك الثمنُ الأوفى لهذا الشجر . فمددت يدى خجلان ولهان باكيا ، وأخذت الدنانير منها وفى عزمى أن أردها إليها ، تخفيفاً من عبء الهم عليّ وعليها .

٩٧

سافرت على قدميّ فى لبسة الصائد . فعلى الساقين (دُزلك) من الجلد ، وفوق الكتف بندقية من بنادق الصيد . ثم أخذت من الكيس مائة فرنك وخلفت الباقى سراً فى المزرعة حتى أرده إلى أمى متى عدت ، فعزيز عليّ أن أكلفها هذا العنَت وأحرمها هذا المال ، وهو ثمن قطعة من كبدها . ومضيت أطعم وأنام فى الفنادق الحقيرة من كل قرية . وسبق إلى ظن الناس أنى طالب سويسرى فقير يعود من جامعة استرسبورج فلم يكافونى غير الضرورى من ثمن الخبز والنور والفراش . ثم تحققوا صحة ما زعموا حين رأونى أقرأ فى كل مساء أمام الدار (آلام فرتر) بالألمانية ، وما كنت أحمل من الكتب غيره .

على هذه الحال اجتزت مضايق (بورجى) وعبرت الرون

لدى صخرة (بيير شاليه) وتسلقت جبل القط من شعاب صيادى الوعول . فلما علوت قمته اطلعت فى الحضيض فرأيت أودية إكس وشمبيرى وأنيسى ، وأبصرت البحيرة قد رقطتها أشعة الأصيل الخفاقة بصبغ الورد ، فتمثل فى نفسى وأشرب حسى أن صورة واحدة تملأ رحب هذا الأفق ، فهى تبدو من جواسق الجبل ، ومن حديقة الطبيب ، ومن تين (بون بور) ، ومن كستناء (تريسرف) ، ومن غابات (سنت إنُوسنس) ، ومن جزيرة (شاتيلون) ، ومن الزوارق الداخلة فى المرسى ، ومن كل ما أرى من أرض وجوّ وموج

فجثوت أمام هذا الأفق المعمور بهذا الخيال ، وفتحت ذراعى وضممتها كأنى أعانق نفسى بعناق النسيم الهاب على مسارح سعادتنا ، ومواطىء أقدامنا . ثم جلست خلف صخرة أتأمل وأتخيل وأتمثل حتى مست الشمس قمم الثلج من (نيفوليكس)

لم أرد أن أعبر البحيرة ولا أن أدخل المدينة فى ضوء النهار ، فإن خشونة ملبسى وجشوبة عيشى وضيق ذات يدى كانت تبدو للقاطنين فى منزل الطبيب والنازلين به شاذة غريبة ، وتناقض كل المناقضة ما كنت عليه فى العام الماضى من أناقة الملبس وحسن الشارة وخفض العيش

فوطنت نفسى وعقدت عزمى على أن أتسلل بالليل إلى قرية صغيرة من أرباض المدينة أعرف بها خادمة فقيرة تدعى (فَنشيت) قد أعْتَدت في كوخها الحقير سريراً أو سريرين لتعول فيهما مريضاً أو مريضين من ذوى المتربة بأجر زهيد. وكان صديقى لويس قد سبق إلى هذه الفتاة فاحتجز لى سريراً فى الكوخ وكرسيا على المائدة، ثم وعدنى أن يتلقى رسائل باريس على عنوانه فى شمبيرى، ثم يبعث بها إلىَّ مع سائق من ساقة المركبات التى تنتقل على الدوام من مدينة إلى أخرى. وكنت مضطرا أثناء مقامى فى إكس أن أحتبس طول النهار فى الكوخ أو فى البساتين القريبة؛ فإذا أرخى الليل سدوله خرجت فصعدت إلى بيت الطبيب من وراء المدينة فأدخله من باب الحديقة المفتوح على الخلاء، ثم أقضى به ساعات المساء فى خلوة حلوة وتأمل لذيذ. لو أننى عانيت أضعاف ما أعانى من ذلة وقلة لكان فى هذه الساعات المباركة أوْفى الجزاء عن مهانتى، وأسمى العِوض من فاقتى.

٩٨

حررت خطاى فى طريقى من جبل القط إلى دير المتكمب على أن أصل إليه يوم جمع الله قلبينا برباط الحب فى منزل الصياد.

فمن الضفة العمودية التي تنحدر من قُنَّة الجبل ' و البحيرة لاح لى من على الشمال أطلال الدير وظلاله مرقومة سوداء على صفحة الماء . ولم يكن غير دقائق معدودة حتى بلغته ، وكانت الشمس قد غرقت وراء الألب ، وشفق الخريف قد سحب على الجبال والوديان والشطئان والأمواج ذيله الضافى المذهَّب .

لم أقف على الأطلال ، بل أجَزْت البستان الذى جلسنا فيه تحت كومة المرعى ، وكانت لا تزال على حالها تلك ، إلا أنك لا تبصر ضوء النار من زجاج البيت ، ولا الدخان من فوق السطح ، ولا الشبَّاك معلقة على سور الحديقة . قرعت الباب فلم يجب أحد ، فعالجت الرتاج فانفتح من نفسه ، ودخلت القاعة فإذا الموقد مكنوس ، وإذا الأثاث مرفوع ، وإذا البلاط مغطى بالقش والريش المتناثر من أعشاش السنونو الخاوية . صعدت السلم الخشبي إلى الغرفة التى أفاقت فيها چوليا من الإغماء ، واستجممت من الإعياء ، ودخلتها دخول العابد المحراب ، ثم أجلت فيها النظر فإذا السرير والخزانة والكرسي مفقودة ، وإذا طائر من طيور الليل أفزعته خطاى فحرك جناحيه وضرب بهما الحائط ، ثم استقلهما ناجياً بنفسه من النافذة . تلمست المكان الذى جثوت فيه بجانب چوليا وهى مغمى عليها من الغرق فمن بعد لأيٍ عرفته

فقبلته . وأخذت عينى تطلب فى جنبات الكوخ إنساناً أسأله عن مصير أهل هذه الدار فما وقعت على أحد . فغلب على ظنى أن تأخر الحصاد عاقها فى الجواسق العليا من الجبل ، وأنهم لا ينزلون منها إلا فى الشتاء . فصح عزمى على أن أقضى الليلة بهذا الكوخ فى الموضع الذى كانت تكابد جوليا فيه الموت . فجئت بضِغْث من العشب الطرى وبسطته على أرض الغرفة ، ثم أخرجت من جرابى رغيفاً من الخبز وقطعة من الجبن وذهبت أتعشى على حافة الينبوع الذى كان يجرى ثم يقف على التعاقب كأنه النفَس المتقطع .

٩٩

لقد كان من حفافى هذه الهضبة ومن أشراف هذا الدير فى وقت الأصيل منظر ساحر هو لقلوب المختلين ومشاعر المفكرين ونفوس المحبين مُسْتراد وفتنة . فهنا ظلال الجبل الأخضر الندىّ ، وخرير الينبوع الحلو الشجىّ ، وحفيف الورق الظليل الرخى ؛ وهناك أطلال الهيكل أوحشها البلى ، وصدوع الحوائط غشاها اللبلاب ، وأروقة الدير عمها الظلام وكن فيها السر ، وأمواج البحيرة المزبدة تموت واحدة فواحدة على سحيق

الرمل أو على وعر الصخور ؛ وهنالك العَدْوة الأخرى تجد الجبال الزرق تكسوها الظلال الشفافة ، وترى على اليمين لدى رجع البصر ذلك الدرب المستنير خلعت عليه شمس الأصيل حلة أرجوانية !

غصت بنفسى وحسى فى هذه الظلال والأنوار والأمواج والسحب ، وامتزجت بهذه الطبيعة ، وامتزجت بى صورة الحبيبة ، حتى أصبحت هى الوجدان والزمان والمكان والمنظر : فهذا هو المكان الذى لمحت فيه زورقها يصارع الموت ، وذاك هو البستان الذى تساقطنا فيه شهى الحديث وتبادلنا به حيّ النظر ، وهناك أعالى الحور تظال ذلك الطريق اللاحب الذى ينساب فى الأرض انسياب الأرقم الأخضر قد خرج من الماء ، وهنا الجواسق والمخاضر وأدواح القسطل والطرق الجبلية التى كنت أقطف من حفافيها الزهور وأجنى الفريز والكستناء ثم أملأ ميدعَتَها ، وفى هذه البقعة حكت لى خبراً من الأخبار ، وفى تلك بحت لها بسر من الأسرار ، وتحت هذا اللفيف من شجر الحور السليب إذ ذاك من ورقه ودعتنى ووعدتنى أن ترانى قبل اصفرار الأوراق الجديدة . وهاهى ذى الأوراق أوشكت أن تصفر ، وكذلك جوليا أوشكت أن تعود . فإن الحب صادق الوعد مسئول العهد . على

أنني أراها الآن ! ألست هنا في انتظارها ، ومن انتظر فكأنه نظر ؟ !

١٠٠

على أن الليل كان قد نشر ذوائبه على البحيرة فلم تعد العيون تبصر الماء إلا من خلال ضباب أدكن قد رصص[1] وجهه . ففي ذلك الصمت العميق الشامل الذي يسبق الظلمة قرع سمعي صوت مجدافين يدنوان من الشاطئ ، ثم ما لبثت أن رأيت في عرض البحيرة نكتة تتحرك على وجه الماء ، فتبينتها فإذا هي زورق ينساب نحو الخليج المجاور لمنزل الصياد ، فظننته إياه عائداً من شاطئ سفوا إلى بيته المهجور ، فهبطت من الطلل إلى الساحل مسرعاً إلى لقائه . فلم أكد أبلغه حتى رأيت الزورق يرسي ، والنوتي ينزل ، وهو يصيح بي قائلا : « لعلك يا سيدي الفتى الفرنسي النازل في بيت (فنشيت) ؟ إن كنت إياه فدونك هذه الرسالة فقد كلفت بحملها إليك » .

دلني ثقل الرسالة على أنها تتضمن رسائل كثيرة . ففضضت الغلاف الأول عن رقعة قرأتها في ضوء القمر فإذا هي من صديق

---

(١) رصص وجهه : طلاه بالرصاص أو لونه بلونه Plomper

لويس كتبها إلىّ فى صباح اليوم يقول فيها : إنه أعد لى المسكن عند الخادم (فنشيت) وإنه لم يقـدم أحد من باريس إلى الآن ، وإنه حين علم منى بقرب وصولى إلى دير المتكمب كلف هذا الرجل الثقة أن يلقى إلىّ وهو مار بالدير هذه الرسائل التى وردت إلىّ من باريس منذ يومين ، فلا ريب أنى شديد الظمأ إليها . ثم أضاف إلى ذلك أنه قادم غداً إلىّ بنفسه لنعبر البحيرة معاً ولندخل المدينة تحت جنح الليل .

١٠١

كنت أمسك بيدى وأنا أقرأ هذه الرقعة رزمة الرسـائل فأحسستها ثقيلة على أناملى ، ثقل الهم والشؤم على كاهلى . فنقدت الملاح وصرفته بعد أن التمست منه عقباً من الشمع أقرأ على ضوئه هـذه الكتب . ثم عدت إلى الغرفة العليا وأنا أطفر من الفرح وأنزو من النشوة ، وفى اعتقادى أننى سأمتع نظرى بخط الحبيبة ، وأسر نفسى برقيق كلامها وخبر قيامها . فجلست على ضغث العشب الذى فرشته ، وأشعلت الشَّمْعَدَانَ وتناولت الرسالة الأولى فإذا هى مختومة الغلاف بالسواد ، مكتوبة العنوان بخط الدكتور (ألن) ، وإذا بدلائل النعى فى مواضع البشرى ! . فمشت فى جسمى رِعدة

الخوف ، وجاشت فى صدرى غصة الهم ، وسقطت من يدى على ركبتى إضمامة الرسائل الأخرى وكانت على حدة ، ولم أجرؤ على أن أقرأ منها كلمة مخافة أن أجد فيها واأسفاه ما لا تستطيع محوه الحيلة ولا البكاء ، ولا الدمع ولا الدعاء ، ولا الأرض ولا السماء ... وهو الموت ... على أننى قرأت مع فرط ما بى من شدة اضطرابى واختلاج أعصابى هذه الكلمات :

« كن رجلا ! وفوض أمرك إلى الله الذى لا مرد لقضائه ولا مُعَقِّبَ لحكمه ! ! لا تنتظر أحداً . . . ! ولا تطلبها على الأرض ، فقد صعدت إلى السماء لاهجة باسمك . . . . . فى مشرق يوم الخميس أفلت شمسها المنيرة ، وفاضت نفسها الكبيرة . . . . لقد أفضت إلىّ بمكنون سرها وجملة أمرها قبل أن تموت ... وكلفتنى أن أبعث إليك بآخر آثارها ونهاية أفكارها ، فقد ظلت تكتب إليك حتى جمدت أناملها على القرطاس فوق اسمك . . . أَحِبَّها فى المسيح الذى أحبنا حتى الموت ، وتعز عنها عزاء جميلا ، وعش لأمك طويلا ! ! »

(ألبير)

١٠٢

سقطت على الفراش هامد الجسم فاقد الرشد لا أرتعز ولا أعى . ولم يثب إلىّ حسى إلا بنفحات الهواء الصرصر عند نصف الليل . وكان الشَّمْعَدانُ لا يزال مضيئاً ، وأصابعى لا تنفك معقودة على كتاب الطبيب ، وإضمامة الرسائل ساقطة من حجرى على أرض الغرفة . ففتحتها بشفقةٍ كأنني خشيت عليها من يدى أن تلمسها فتدنسها . فانتثرت منها على ركبتى طائفة من الرسائل الضافية منمقة بيراعة جوليا ، ومرتبة على حسب تواريخها .

وهاك ما حوته أولاها :

« رفائيل ! أى رفائيل ! أخى رفائيل ! إغفر لأختك خديعتها إياك هذا الزمن الطويل ! . . . فما كان فى أملى ولا مرجوّى أن أراك ثانية فى سفوا . . . ! لقد كنت أعلم أنه لم يبق من عمرى إلا أيام معدودة ، ولا من نفسى إلا حُشاشة مجهودة . فهيهات أن أعيش حتى أحظى بهذه السعادة ! . . . أتذكر يا رفائيل ساعة قلت لك : (إلى اللقاء) لدى باب حديقة منسو ؟ إنك لم تفهم ماذا كنت أعنى بهذه الجملة . لقد كنت أريد أن أقول : « إلى اللقاء ! إلى الهناء ! إلى الحب الأبدى فى ملكوت السماء ! ! . . . »

لقد أوصيت الطبيب أن يخدعك هو أيضاً ليحملك معى على ترك باريس ، فقد كنت أريد حتماً أن أقيك هذه الفجعة المحرقة تجد مسها من قرب فتقطع حشاك وتضعضع قواك ... كذلك اغفر لى يا رفائيل ما سأعترف لك به الآن ! لقد كنت أكره أن ترانى أموت ، فضربت بينى وبينك حجابا من البعد حتى لا ترى سريان البلى فى جسمى المعمود ! ! آه ! ما أقسى الموت وما أشد برده ! . . . . . إنى أحسه ، وأراه ، وأشعر به يدب فى جسمى ويفزعنى من نفسى . . . !

لقد كان متمناى يا رفائيل أن أترك فى عينيك صورة من الجمال تتأملها وتعبدها ، ولكن الرجاء خاب ورائد الأمل ضل ... فلا تسافر يا رفائيل ! . . . ولا تنتظرنى فى سفوا . . . فما هو إلا يومان أو ثلاثة ثم لا ترى لى أثراً ولا تسمع منى خبراً فى أى مكان . . . . ! سأكون هناك يا رفائيل ! . . . . وسأحل دائماً فى كل مكان تحله ! . . . . »

وكان على هذا الكتاب قطرات من الدمع أزالت صقاله وخددت صفحته !

ثم رسالة أخرى كتبتها فى اليوم التالى تقول فيها :

« رفائيل ! . . . إن صلواتك ودعواتك أنزلت على من السماء رحمة وبركة . لقد ذكرت بالأمس شجرة العبادة فى سان كلود ، وهى الشجرة التى فى فيئها رأيت الله من خلال نفسك . إن شجرة الصليب أطهر منها وأقدس . . . . فأنا طول النهار أعانقها ولا أفارقها . . . أواه ! ما أجمل أن يظل المرء تحت هذه الدماء وتلك الدموع التى تطهره وتعطره ! ! بالأمس دعوت قسيساً كان يحدثنى عنه (ألن) فألفيته كهلاً شامل العلم كامل الفهم واسع المغفرة ، فكشفت له عن دخيلة نفسى فغمرها بنور الله وفضله . ما أكرم هذا الوالد وما أعظم عفوه وأقل علمنا به ! ! إنه لا يسخطه أن أحبك وأن تكون أخى ! ويرضى أن أظل أختك فى الدنيا إذا عشت ، وملاكك فى الآخرة إذا مت . . . فلنحبه يا رفائيل لأنه شاء أن تحاب كما تحابينا . . . »

وفى ذيل هذا الكتاب رَسْمُ صليب صغير ووَسْمُ قبلة من حوله !

١٠٣

وثمّ رسالة ثالثة كتبتها بخط متشابك الحروف مطموس الكلمات مختلط السطور تقول فيها :

«رفائيل ! إنى أريد أن أقول لك اليوم كلمة أخرى . . . فلعلنى فى الغد لا أستطيعها . . . . ! إذا أنا مت فلا تمت أنت ! . . . . فإننى سأعنى بك فى السماء ، وسأكون برة قادرة كذلك الإله الكريم الذى شاء أن يجمعنى به ويضمنى إليه .

أحِبَّ بعدى يا رفائيل . . . وسيتيح الله لك أختاً أخرى تكون خليقة بمؤاخاتك ، ورفيقة صالحة لحياتك . . . أنا أطلبها لك من الله بلسانى وقلبى ، فلا تخش يا رفائيل أن تؤلم بذلك نفسى فى رمسى ، فإنى لا أغار فى السماء من سعادتك فى الأرض ، ولا أشعر بعد هذا الكلام إلا براحة القلب ورضا الضمير .

إن صديقى (ألن) سيؤدى إليك مع هذه الكلمات خصلة من شعرى ، وإنى ذاهبة لأنام . . ! »

ثم يلى ذلك الرسالة الأخيرة وهى من سقم الخط لا تكاد تقرأ . فعالجت حروفها المتزايلة وسطورها المتخاذلة فإذا فيها :

« رفائيل ! رفائيل ! أين أنت ؟ لقد آنست من نفسى القدرة

على ترك السرير ... وصرفت الممرضة التي تسهر عليّ طلباً للوحدة ، ثم زحفت على ضوء المصباح أتنقل من أثاث إلى أثاث حتى بلغت منضدة الكتابة ... ولكنى لم أعد أبصر شيئاً ... إن عينيّ تغشاهما الظلام فهما تسبحان فى ليل داج .. وإنى ألمح على وجه القرطاس سمادير[1] تطفو وتخفق ... رفائيل ! إنى أرانى لا أستطيع الكتابة ... ولكنى أكتب إليك هذه الكلمة إمّا لا ! .... »

ثم تلى ذلك كلمتان كتبتهما بحروف غليظة أشبه بتناشير[2] الصبية عند أول عهدهم بالخط ، فشغلتا كل السطر وملأتا ذيل الصحيفة ، وهما : « وداعاً يا رفائيل ! ! »

١٠٤

تخاذلت أناملى من هول ماقرأت فتناثرت من بينها الرسائل على الأرض . ثم أخذت أنتحب من غير صوت ، وأبكى من غير دموع ، حتى وقعت عيناى على رسالة أخرى نمقتها يد زوجها الشيخ ودسّتها بين الرسائل . فتناولتها ثم فضضتها فإذا فيها :

« لقد انطفأ سراجها ويداها فى يدى بعد أن كتبت إليك رسالتها الأخيرة ببضع ساعات . لقد فجعنى الموت فى ابنتى ،

(١) السمادير : نقط سوداء تتراءى للإنسان من ضعف البصر .
(٢) التناشير : كتابة غلمان الكتاب لا واحد لها .

فلتجملك الحياة ابنى مدى الأيام القليلة التى بقيت لى فيها . . . إنها مسجّاة فوق سريرها كالنائمة الحالمة ، وعلى أسرار وجهها سمة المتهلل الباسم رأى من وراء الحياة شيئاً يسره . . أبداً ما رأيتها على هذا الجمال ! وما عهدتها بهذا الحسن ! وإن إدمان النظر إليها على هذه الحال ليوحى إلى نفسى الشاكة عقيدة الخلود . لقد أحببتك بفضلها ولأجلها ، فأحبنى ! ! »

١٠٥

من سعادة النفس البشرية أنها لا تعتقد فى الحال بفقدان من تحب جملة واحدة .

فلقد كانت شواهد موتها مبثوثة من حولى ، ولكنى لم أستطع أن أصدق بفنائها واستحالة لقائها طول الأبد . فإن فكرتها ، وصورتها ، وملامح وجهها ، ونبرات صوتها ، وذكاوة حديثها ، وصباحة محياها ، كانت ماثلة فى عينى ، حاضرة فى ذهنى ، حتى ليخيل إلىّ أنها أتم من قبل وجوداً ، وأقوى على الحياة شهوداً ؛ وأنها لا تزال تملأ كيانى ، وتشغل وجدانى ، فهى تحدثنى وتدعونى ، وأننى إذا ما نهضت سعيت إليها فسلمت عليها . تلك فترة يفصل بها الله بين اليقين بالخسارة وبين الشعور بالحقيقة ، كما تفصل الحواس

بين رؤية العين لِهُوِىٍّ الفأس فوق الجذع وبين سماع الاذن لضربتها ترن طويلا بعد ذلك. تلك الفترة تخفف سورة الحزن وتكفكف غرب الألم بالمغالطة والخديعة ! إنك إذا فقدت مَن تحب فلن تفقده مرة واحدة ، وإنما يحيا فيك رَدَحاً من الزمن. وشبيه ذلك أن العين إذا أطالت النظر إلى الشمس وهى تغرب بقيت فيها أشعتها بعد أفولها وذهاب نورها ، لأنها لا تزال متلألئة فى نفسك ، مشرقة فى حسك . وهيهات أن تدرك الفقدان التام والحرمان المطلق إلا إذا أدرك شعورك القصور وحدده الفتور ، فتستطيع حينئذ أن تقول : « لقد ماتت فىَّ ! ! »

ذلك لأن الموت لا يتم بالفقدان ، وإنما يتم بالنسيان ! !

١٠٦

كابدت حزازة هذا الألم طول تلك الليلة على أشد ما تكون لوعة وحرقة ! ولم يشأ الله أن أشْتَفّ كأس الألم فى جرعة واحدة مخافة أن تهلك نفسى غرقاً فيه . وإنما ابتلانى ثم آسانى ، بأن جعلنى أتمثل فىَّ ومن حوالىَّ وبين يدىَّ حضور تلك المخلوقة التى لم يرنى الله إياها تلك الفترة القصيرة إلا ليوجه أنظارى وأفكارى إلى المكان الذى نقلها إليه وأنزلها به .

ولما احترقت ذبالة الشمعة ضممت رسائلي إلى صدري ، وقبّلت ما استطعت أرض هذه الغرفة التي كانت لغرامنا مهداً ، فأصبحت له اليوم لحداً . ثم تنكبت بندقيتي وخرجت أقتحم أفواه الجبال ومخارم الشعاب موله العقل شارد اللب لا أهتدي لطريق ولا أسير إلى غاية . وكان الظلام شديد الحلك ، والريح عاصفة الهبوب ، والبحيرة تقذف الصخور بأمواجها الهُوج ، فتحدث أصداء كأصداء الغيران ، وأصواتاً كأصوات الإنسان ، حتى وقفت مراراً وأنا مكروب النفس مقطوع النفَس إذ وقع في حسي أن أحداً يدعوني باسمي .

أواه ! أجل ! لم يخدعني حسي ولم تكذبني نفسي ، فقد هتف باسمي هاتف ولكنه كان في السماء !

١٠٧

أنا لا أذكر شيئاً عن ذلك الذي لقيني صباح تلك الليلة سادماً هائماً على شفا الهاوية في ضباب الرون فأنقذني وأعانني وأعادني إلى أحضان أمي المسكينة ، فحسبه جزاء الله على معروفه وفضله !

. . . .

. . . .

والآن وقد أتى على هـذه الفاجعة عشر سنين لا أجد من نفسى القدرة على استذكار هذه السنة العظيمة التى ما زها القدر من سِنِي صباى . على أن الله قد أنجز لى وعد چوليا فأتاح لى مخلوقة[1] فتحت فى وجهى أبواب الرجاء ، ومسحت على جواى بيد العزاء . فكنت كثيراً ما أزور معها وادى شمبيرى وبحيرة إكس . فإذا ما علوت ربوة (تريسرف) وجلست تحت سَرحات القسطل التى أحس لِحَاؤها[2] بوجيب قلب چوليا وهى تحتضنها ، ثم أبصرت هذه الجبال والثلوج ، وتلك الأشجار والمروج ، وهذه الأسنان الصخرية تغوص فى جو حارّ كأنما ينضح الأرض بسائل معطر معنبر ؛ ثم سمعت الأوراق تحف ، والنسيم يرف ، والحشرات تطن ، والأمواج تئن ؛ ثم رأيت ظل قرينتى يرتسم بجانبى على الرمل أو العشب ، وجدت فى صدرى سعة لا تنقصها رغبة ، ودعة لا تشوبها رهبة ، واعتقدت حينئذ أنى أرى روح تلك الفتاة الراضية السامية تبدو فى كل ناحية من نواحى هذا الأفق مشرقة الوجود محققة الخلود ، فتملأ هـذه السماء وهذا الفضاء وذلك الماء ، كأنها بركة الله أفاضها على هذا الوادى الجميل !

(الى هنا انتهى مخطوط رفائيل)

---

(١) يريد بها لامرتين زوجته فقد كانت على قيد الحياة أيام نشر رفائيل
(٢) اللحاء : قشر الشجرة

مراثى لامرتين لجوليا

كان حب لامرتين أو (رفائيل) لجوليا من أقوى الأسباب فى صفاء نفسه ودقة حسه، فتفتقت قريحته فى رثائها عن شعر كمنضور الزهر وأفواف الوشى . من ذلك ست قصائد بدأ بها ديوانه (التأملات)، وهى من عيون الشعر الفرنسى وغرره . نترجم منها اليوم قصيدة (البحيرة Le Lac) وقصيدة (الوحدة L' Isolement)

فى البحيرة

نظم لامرتين هذه القطعة الخالدة فى بحيرة بورچيه من سفوا وقد وفد على إكس عام ١٨١٧ ينتظر قدوم چوليا إليها كما مر بك فى سياق القصه، وچوليا يومئذ كانت تكابد غصص الموت على سرير المرض فلم تلب نداءه ولم تستطع لقاءه . فزفر لامرتين هذه الزفرة وأرسل هذه العبرة من صدر مكروب وعين قريحة، ثم عاد إلى (ميلى) شارد اللب مضطرم الجوانح . وهذه هى :

أهكذا قضى الله أن نمخر فى عباب
الحياة مدفوعين فى ظلام الأبد من شاطئ
إلى شاطئ ، دون أن نملك الرجوع إلى
ملجأ ، أو الرسوّ ذات يوم على مرفأ ؟

* * *

انظرى أيتها البحيرة ! ها هو ذا العام
قد كاد يشارف تمامه ، وأنا وحدى بجانب
أمواجك الحبيبة أرتقب عبثاً عودة چوليا
إليها ، جالساً فوق الصخرة التى كنتِ تَرَيْنها
جالسة عليها !

* * *

كذلك بالأمس كنت تهدرين فوق
هذه الصخور المعلقة ، وتتكسر أواذيّك
على جوانبها الممزقة ، ويقذف هواؤك
الزبدَ على قدميها المعبودتين .

* * *

أتذكرين ليلة كنا فوق صفحتك
بين الماء والسماء نجدف فى سكون وصمت ،

وقد ضرب الله على آذان الطبيعة ، وختم على أفواه الخليقة ، فلا نحس حركة ولا نسمع رِكزاً غير إيقاع المجاديف على أنغام الموج ؟

* * *

وإذا بصوت لا عهد للآذان بمثله ينبعث من ضفتك الجميلة ، فشق حجاب السكون ، وأطلق لسان الصدى ؛ وهناك أنصت الموج ، وأصغى الهواء ، وأخذ هذا الصوت الحبيب إلىّ يُساقط هذه الكلمات :

* * *

« أيتها الأرض قِفى دورانك ! وأنت أيتها الساعات قفى جريانك ! ودعينا نتمتع بعاجل لذاتنا ، وننعم بأجمل أيام شبابنا .

* * *

« إن كثيراً من صرعى الحياة وفرائس البؤس يتضرعون إليك أن تسرعى بهم ، لتخففى من كربهم ، فاستجيبى إليهم ، وكرّى

مسرعة عليهم ، وخذى مع عمرهم الذاهب ، ألم عذابهم الواصب ، واتركى السعداء والناعمين غارّين فى غفلات العيش وظلال الأمن !

* * *

« على أننى واويلتاه كلما لججت فى الطلب ، لج الزمان فى الهرب ، فأنا أتمنى عليه المنى فلا تُحَقّق ، وأستزيده البرهة اليسيرة فلا أوفّق ، فسألت هذه الليلة أن تكون أطول وأمهل ، ولكن السؤْل خاب وبازىَ الصبح قدافترس غراب الليل ! !

* * *

«فلنتساق إذن كؤوس الهوى دِهاقاً ، ولنقض مآربنا عجالا ، فليس لسفينة الإنسان مرفأ ، ولا لخضمّ الزمان ساحل : إن الزمان ليتدفق وإنا مع تياره نمر ونمضى !

* * *

« أيها الزمن الحاقد الحاسد ! أكذلك

قضيت أن تمضى لحظات الأنس وسكرات الحب سراعاً كما تمضى أيام الشقاء والبؤس !!

* * *

« ويلك ! أما نستطيع على الأقل أن نتبين آثارها ونلمح أنوارها ؟ وكيف ؟ أتراها قد ذهبت إلى غير رجعة ، وماتت إلى غير بعث ؟ واويلتاه ! هل انقضى كل شيء ؟ وهل الزمن الذى منحها وأعطاها ، والذى طمسها وعفّاها ، لا يردها ثانية علينا ؟؟

* * *

« حدثنى أيها الأبد ! أيها العدم ! أيها الماضى ! أيها الغور العميق ! ماذا تصنع بهذه الأيام التى تغيبها فى أحشائك ، وتطويها فى أثنائك ؟ أما تُرجع إلينا ما سلبتنا من سكرات نبيلة ، ومسرات جميلة ؟

* * *

« أيتها البحيرة الصاخبة ! أيتها الصخور الصامتة ! أيتها الغِيران الموحشة ! أيتها

الغابات المظلمة ! أنتن اللاتى يُبقى عليهن الدهر ، فيُجِدُّهن بعد البلى ، ويخصبهن بعد المَحْل ! فاحتفظن من هذه الليلة السعيدة على الأقل بذكراها ، واندمجن على شذا أرجها وطيب رَيَّاها !

* * *

« لتبق ذكراها أيتها البحيرة فى هدوئك الشامل ، وعواصفك الهُوج ، وهضباتك الضحوك ! لتبق فى هذا الصنوبر الذاهب فى السماء ، وفى وعر الصخور المعلقة فوق الماء ! لتبق فى النسيم العابث بوجهك ، وفى الهدير المردَّد بين ضفافك ، وفى الكوكب الفضى يضىء سطحك بأنواره الرَّخية الزهية !

* * *

« وليقل الهواء الذى يصفر ، والقصب الذى يزفر ، والنسيم المعطر الذى يَضُوع ! ليقل كل ما نرى وما نسمع وما نتنسم :

« لقد كانا عاشقين ! !

الوحدة

استسلم لامرتين بعد فجيعته فى حبيبته إلى الهم ، واستأنس بالوحدة ، واستكان للعبرة ، وخلا إلى الحزن فى خلوات (ميلى) ومن هناك بعث إلى صديقه (ڤريو) بهذه القصيدة فى ٢٤ أغسطس سنة ١٨١٨ وهى :

جلست محزون القلب ، مستطار اللب على قُلَّة الجبل ، وتحت ظُلَّة السنديانة العتيقة ، أشيع شمس النهار وهى تغرب ، وأسرّح بصرى فى وجوه السهل وهى تتغير :

* * *

فهنا النهر صخاب الموج ، جياش الزبد ، ينساب فى جوف الوادى ، ثم يضل فى ظلام البعد ! وهناك البحيرة راكدة السطح ، راقدة الماء ، تتراءى فى جوانبها نجوم الليل !

* * *

والطَّفَل لا يزال يلقى على رؤوس

الجبال الشجراء ومْضاً من شعاعه ، وملك الليل قد أخـذ يصعد إلى عرش السماء فى محفته الندية ، فأشرقت جوانب الأرض ، وازدهرت حواشى الأفق .

* * *

وناقوس الـكنيسة الغوطى قد بدأ يقرع الهواء برنينه الدينى ، فكف الفلاح عن العمل ، ووقف السائر عن المسير ، واختلطت هـذه الأرانين المقدسة بما بقى من ضوضاء النهار وصخبه !

* * *

ولـكن نفسى كانت من كل هـذا خلية ! فما تبعث فيها هذه المناظر الجليلة ولا تلك الصور الجميلة نشوة ولا بهجة ! لقـد كنت أتأمل الأرض وكأنها ظل منتقل أو خيال طائف !

إن شمس الأحياء لا تدفئ الموتى !

* * *

فكنت أنقل عينى من الربى إلى الجبال ، ومن الجنوب إلى الشمال ، ومن ظلمة الغسق إلى حمرة الشفق ؛ وأنفض[1] السهل والوعر ، والمأهول والقفر ، عسى أن أجد لنفسى سعادة فى مكان ، أو أتوسم لقلبي راحة فى إنسان ، فلا أعود بطائل !

* * *

وما تصنع لى هذه الوديان والأكواخ والقصور ما دمت لا أجد لجمالها فى عينى روعة ، ولا لسحرها فى قلبي فتنة ؟؟

أيها الأنهار والأحجار والغابات والخلوات العزيزة علىَّ ! إن غيبة مخلوق واحد من ربوعكن جعل عامركن خرابا ، وردَّ أنسكن وحشة ! !

* * *

سواء علىَّ أتطلع الشمس أم تغرب ، وتصحو السماء أم تغيم ، ويظلم الليل أم

(١) نفض المكان : نظر إلى كل ما فيه ليعرفه .

ينير الصبح ، فليس لى بغية فى اليوم ولا رجيّة فى الغد .

* * *

وحينما أرسل عينىَّ تتبعان الشمس فى مدارها الرحب القصى لا أبصر فى كل مكان غير الفراغ والخلو ! لا حاجة لى إلى من تظله السماء ، ولا رغبة لى فيما تنيره الشمس .

* * *

ولكنَّ من وراء هذا الفلك الدائر وهذه الشمس الساطعة أمكنة أخرى تسطع فيها الشمس الحقيقية ! فلو أتيح لنفسى أن تخلص من قفصها لرأت فى تلك السموات حبيبها الذى طالما بكت عليه وحنت إليه !

* * *

هنالك أنتشى من رحيق الغبطة ، وأظفر بالأمل والمحبة ، وأنعم بما تاقت إليه نفسى من مُتع لا تمر على سمع ولا تدور بِخَلَد .

* * *

ما أعجزنى أن أطير إليـك وأنا مثقل
بقيود المـادة خاضع لجاذبية الأرض !
وليت شعرى لمـاذا قضى الله أن أبقى إلى
الآن فى أرض المنفى وما تربطنى بها رابطة ،
ولا تصلنى بأهلها صلة ! !

* * *

إذا ما ذوت الأوراق فى المرج ،
وأسقطهاقرُّ الخريف فى الوادى ، هبت عليها
الشمال فذهبت بها أباديد ! وأنا بهـــذه
الأوراق الذابلة أشبه ! فاحمليني أيتهـا الريح
كما حملتِها ، وانثريني فى وجوه الفضاء كما
نثرتِها ، فما بعد الصباح إلا المساء ، وما بعد
اليأس والوحدة إلا الفناء !

